

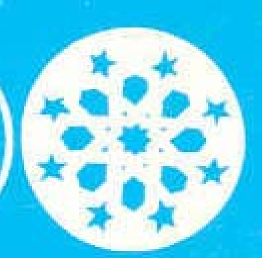


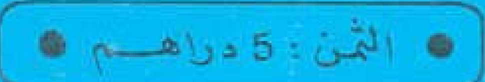
• شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر

• تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، المغرب



العدد
235





• الثمن : 5 دراهم •




بسم الله الرحمن الرحيم

بمناسبة عيد العرش المجيد

تنظم

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

المعرض الرابع لمطبوعاتها

من 6 جمادى الثانية إلى 13 منه 1404

9 مارس إلى 16 منه 1984

بمقر المجلس العلمي الإقليمي لمدينة وجدة

(الكائن بباب الغربي)

بمناسبة المعرض، وتشجيعا للطلبة والمثقفين والمهتمين، تنظم مكتبة الأوقاف عرضا خاصا تخفض فيه أثمان المطبوعات بنسبة 30%



شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية
الرباط - المملكة المغربية



أسسها
جلالة المغفور له
محمد الخامس
قدس الله روحه
سنة
1376 هـ — 1957 م

التحرير:
الهاتف: 601.85

الإدارة و التوزيع
636.93
627.03
627.04
608.10

*

الاشتراكات:
في المملكة المغربية: 55 درهماً
في البلاد العربية: 67 درهماً
في العالم: 77 درهماً

الحساب البريدي: رقم 55-485. الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55
à Rabat

هذا العدد

• • يتضمن هذا العدد وثيقتين سياسيتين فكريتين هامتين . الاولى : كلمة جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله بمناسبة استقباله لاعضاء المجلس العلمي الاعلى، والثانية خطاب العرش بمناسبة الذكرى الثالثة والعشرين لتربع جلالته على عرش أجداده المنعمين .

• • في الوثيقتين فقرات جد هامة تتعلق بالتوجيه الاسلامي والدعوة الى تطوير أساليب العمل الفكري والثقافي والتربوي في مجالات التوعية الدينية . وهما معا تشكلان ميثاقا للعمل الاسلامي العام يصلح أن يكون مقياسا لمعرفة ما يتفق وطبيعة ديننا وما لا يتعارض مع هذه الطبيعـة .

• وحينما تجتمع العبقرية السياسية الى النبوغ الفكري والقدرة على التوجيه والنصح للامة ، تكون القيادة قد استوفت الشروط الحضارية اللازمة لتسيير دفة الحكم على هدي من شريعة الله وسنة رسوله، وعلى هدي ايضا ، من نبوغ الفكر، ورجاحة العقل، ونفاذ البصيرة، وثراء التجربة والخبرة والمران .

• • وكل هذا تجمع في شخصية جلالة الملك الحسن الثاني، وجعل منه ، حفظه الله، قائدا اسلاميا ورائدا للصحوة ، وباعثا للنهضة وحاديا للمسيرة الوطنية والعربية والاسلامية المظفرة .

• ونحن في (دعوة الحق) نسترشد بهذه التوجيهات الفكرية والمعالم الحضارية ونقتبس منها ما يجعلنا ـ ان شاء الله ـ أوفياء للمبدأ الذي رسم لهذا المنبر الثقافي الاسلامي والذي اقترن ظهوره بزوغ فجر الحريـة والاستقـلال .

• • وهكذا ، تكون (دعوة الحق) مجلة فكر وثقافة وادب، ومنبر دعوة وتوجيه واصلاح ، وملتقـى الاقلام المؤمنة العالمة الواعية القادرة على الاسهام بالكفاءة العالية في تطوير المجتمع وبناء الانسان على قواعد من المنبر الثقافي الاسلامي والذي اقترن ظهوره ببزوغ فجر المؤمنـة ..

• • اننا نوجه انظار جميع العاملين في حقـل الفكر والدعوة والعلم والثقافة العربيـة الاسلاميـة الى الوثيقتين الآنفتي الذكر لما لهما من ثقل وقيمة واعتبار . ونامل أن يفرغ علماؤنا ومفكرونا وكتابنا وادباؤنا والمشتغلون بالبحث والدراسة والكتابة عموما لتحليل ما ورد فيهما من توجيه بلغ الغاية في السمو والنضج والحكمة ..

• • وهذه دعوة من المجلة الى أرباب القلم وذوي الفكر والنظر للاسهام في العمليـة الحضاريـة الواسعـة النطاق التي أرادها قائد هذه الامة ان تكون بداية نهضة مباركة تصحح فيها المفاهيم وتقوم الافكار وتقام معالـم الطريق نحو ما نريده لهذه البـلاد من تقـدم وازدهـار ، وللامة جمعاء من رفعة وسؤدد .

والله الموفـق .

رئيس التحرير

بسم الله الرحمن الرحيم

الدّعوة الإسلاميّة في عهدها الجديد

●● حدد جلالة الملك نصره الله في الكلمة التوجيهية الهامة بمناسبة استقباله للسادة العلماء اعضاء المجلس العلمي الاعلى الاطار العام لنهج العمل الاسلامي واسلوب التوجيه الديني وسبل النهوض بالمستوى الفكري والتربوي والثقافي والاجتماعي لرسالة العلماء من منطلق الشعور باهمية الدور الذي تضطلع به هذه الفئة من القيادات الفكرية والعلمية في البلاد في اطار السياسة العامة للدولة القائمة اساسا على الاختيار الاسلامي القرآني السني .

● ولقد وضع جلالة الملك ، وهو يقدم تحليلا عميقا للاوضاع في العالم الاسلامي ، معالم على طريق الدعوة الاسلامية في الوقت الذي تتكاثف ظلمات الالحاد والتطرف والغلو والانحراف . فاوضح بذلك ، نصره الله ، الملامح الرئيسية لوظيفة العالم والمفكر الاسلامي والمصلح الديني والداعية المسلم في مجتمعاتنا المعاصرة ، انطلاقا من الوعي الشامل بطبيعة الظروف والملابسات التي تكتنف هذه المجالات ، وصدورا عن الاحساس العميق بقيمة الدور الاسلامي في تطوير الشعوب ، من جهة ، وتحصينها ضد عوامل الزلل والزيغ واسباب الضعف والعجز .

●● وليس شك ان جلالة الملك ، وهو يبسط الصورة العامة للعالم العربي والاسلامي ويكشف عن الاخطار والمصاعب التي تواجه العرب والمسلمين ، كان يهدف الى ابراز السمات الاساسية لرسالة العلماء وحاجة المجتمع اليهم ومدى المسؤوليات الجسيمة التي يتحملونها بحكم وضعهم الديني وموقفهم الفكري ومكانتهم الاجتماعية ، قاصدا من وراء ذلك ، حفظه الله ، الى ان يتحمل كل فرد من هذه الفئة المستنيرة من

إفتتاحيّة

ابناء شعبه الوفي مسؤوليته على الوجه الشرعي والوطني الذي يجعله يرقى بالعمل في هذا المجال الى درجة التجرد والاخلاص والولاء التام للقيم الاسلامية والمبادىء الوطنية والمثل الانسانية ، وذلك في اطار من الانضباط والاستقامة والحكمة والتبصر .

● ولعل دعوة جلالة الملك الى وجوب اتباع السنة النبوية الشريفة والالتزام بها فقها وفهما وعلما وعبادة ومعاملة وممارسة وتطبيقا ، من المعالم البارزة التي رسمها جلالته اعز الله امره للسادة العلماء ليكونوا دعاة سنة ، وهداة الى المحجة البيضاء ، وقدوة حسنة تجسم تعاليم الاسلام وتبرز النموذج الاسلامي الشامخ . وفي ذلك ما فيه من اماتة للبدعة وازالة لها وقضاء عليها ، بالاسلوب القرآني البالغ الحكمة وبالنهج الرباني القويم والمستقيم .

●● يقول جلالة الملك حفظه الله في كلمته السامية امام علماء المملكة : ((اناشدكم الله دائما أن تحاربوا السلبي بالايجابي ، لان السلبي ياتي وقت ينضب فيه الانبوب ، اما الايجابي فان منهله دائما معطاء)) . ويقول جلالته في موضع آخر من هذه الكلمة التوجيهية البالغة القيمة : ((لا نريد ان نبني عملنا على محاربة البدعة ، اريد أن نبني عملنا على توطيد السنة . المغاربة كانوا دائما ايجابيين ، ولم يكونوا سلبيين ، والاسلوب السلبي لا يعطي ولا يغني من جوع)) . فهما ، اذا ، عنصران اساسيان يقوم على اساسهما منهج العمل الاسلامي والدعوة والتوعية والتوجيه في بلادنا :

— اولا : توطيد السنة .
— ثانيا : اعتماد الاسلوب الايجابي في الدعوة .

وهذا المنهج الواضح في اسسه وضوابطه وقواعده يقتضي تطوير اساليب الدعوة الاسلامية على النحو الذي يرقى بها الى مستوى الايجابية والفعالية ويجنبها الارتجال والانفعال والتشنج ، ويكسبها الجدية المطلوبة في كل عمل يراد به بناء المجتمع على اساس قرآني سني اصيل .

● ولعلنا لا نتجاوز حقيقة الامر اذا قلنا ان جلالة الملك أعد العدة الكاملة الصالحة لتطبيق الخطة الجديدة في النهوض بمستوى الدعوة الاسلامية ، فدعا حفظه الله الى العمل ، وبشر بتوفير الامكانات ، ووضع الاساس المكين لانتظام العمل من أجل حماية الاسلام والدفاع عنه وتنشئة اجيال مسلمة تفهم هذا الدين على حقيقته بعيدا عن الاهواء والانحرافات وتعمل بتعاليمه في سماحتها ويسرها في منأى من التطرف والانحراف .

●● وتلك هي ملامح العهد الجديد للدعوة الاسلامية في هذا البلد المسلم .

أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله يترأس اجتماع المجلس العلمي الأعلى

جلالته يعين الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري وزيرا للأوقاف والشؤون الاسلامية



●● تراس امير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله بالقصر الملكي بالرباط اجتماعا للمجلس العلمي الاعلى . وعين جلالة الملك بالمناسبة السيد الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري وزيرا للاوقاف والشؤون الاسلامية خلفا للسيد الاستاذ الهاشمي الفلالي الذي عينه جلالته مستشارا بالديوان الملكي .

وكانت اجتماعات رؤساء المجالس العلمية الاقليمية قد افتتحت بالدار البيضاء قبل ذلك تحت رئاسة السيد محمد المرابط الكاتب العام لوزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية ، حيث تم اعداد ملتمسات رفعها السادة العلماء الى أنظار صاحب الجلالة حفظه الله .

ثم بعد ذلك ، وعلى اثر استقبال جلالة الملك المعظم للسادة رؤساء واعضاء المجالس العلمية عقد اجتماع موسع بمقر ولاية الرباط وسلا تحت رئاسة السيد الدكتور عز الدين العراقي وزير التربية الوطنية وبحضور السيد الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري وزير الاوقاف والشؤون الاسلامية والسيد الاستاذ احمد بن سودة مستشار صاحب الجلالة والسيدين الكاتبين العامين لوزارتي الاوقاف والشؤون الاسلامية والتربية الوطنية ، والسيد والي صاحب الجلالة على الرباط وسلا .

وحضر جلسة العمل التي عقدها صاحب الجلالة نصره الله مع السادة اعضاء المجلس العلمي الاعلى صاحب السمو الملكي ولي العهد الامير سيدي محمد والسيد محمد كريم العمراني الوزير الاول وبعض اعضاء الحكومة ومستشارا جلالة الملك .

وكان العاهل الكريم قد القى في بداية الجلسة كلمة سامية قال فيها :

« باسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

قبل ان نفتتح جلسة العمل للمجلس الاعلى للعلماء أريد أولا وقبل كل شيء أن انوه هنا من صميم القلب وبعميق الاخلاص بما قدمه لنا وللشعب المغربي كافة منذ الحماية الى يومنا هذا الفقيه السيد الهاشمي الفيلالي .

وحتى يعرف مقامه عندنا واحتياجنا فيه ، فاننا قررنا ان نلحقه بصفة مستشار بديواننا الملكي . كما قررنا أن نوسمه بوسام العرش من درجة ضابط كبير، كما قررنا تعيين الفقيه العلوي المدغري خلفا له في منصب وزير الاوقاف والشؤون الاسلامية » .

وبعد أن عين جلالة الملك السيد الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري وزيرا للاوقاف والشؤون الاسلامية الذي ادى القسم بين يدي جلالته أعطى العاهل الكريم الكلمة للشيخ المكي الناصري رئيس المجلس العلمي للرباط وسلا الذي القى امام صاحب الجلالة كلمة ننشرها بعد الخطاب الملكي السامي :

الحمد لله ... والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه .

حضرات السادة العلماء .

لسنا في حاجة للتعبير عن مشاعرنا ونحن نجتمع بكم وانتم تعرفون ذلك وتعرفون اننا الفنا الاحترام والاجلال والاكبار منذ نعومة اظفارنا الى أهل العلم واسرة العلم ، ولكن زيادة على واجب الاكبار والاحترام منذ ان قيضنا الله سبحانه وتعالى لتسيير هذه الامة ومنذ ان قلدنا بامارة المؤمنين رأينا الا نكتفي بالاحترام والاجلال فقط بل رأينا انه من واجبنا ومن اسمى واجباتنا ومن الامانات المقدسة التي هي في عنقنا ان نلتقي بكم حينا بعد حين لاعطائكم التوجيهات اللازمة ولامدادكم بالمدد اللازم والكافي ماديا ومعنويا .

ان الظروف التي يجتمع فيها مجلسنا هذا هي ظروف جد استثنائية ودقيقة جدا لانه تتطلب لتحليلها رؤيا استراتيجية سياسية في متناول كل احد ان يدركها بكيفية شمولية او مدققة اذا هو نظر اولا الى خريطة العالم ونظر ثانيا الى الخريطة ، خريطة الدول والشعوب الاسلامية وما كان المؤتمر الاسلامي الرابع الذي عقد بالدار البيضاء والذي كلل الله سبحانه وتعالى جهوده بالنجاح مضيفا نعمة على نعمه وكرما على كرمه . وما كان اجتماع القمة الرابع الاسلامي في الدار البيضاء الا فرصة لنا جميعا نحن معشر المؤتمرين ان ننظر بتدقيق الى الخريطة العالمية وان ننظر بدقة اكثر الى الشعوب والدول الاسلامية كما وزعت في العالم اما اسيوية او افريقية او اوروبية وغيرها .

وبمجرد ما يفتح كل ذي بال وعقل وتحليل كتاب الجغرافية يرى ان الاسلام انتشر شرقا وانتشر غربا بمعنى انطلاقا من شبه الجزيرة السعودية ولكن لم



يكن انتشاره في الشرق كانتشاره في الغرب ، ذلك ان الاسلام في المشرق الاقصى وجد نفسه مبنيا على نوعين من الرهبانية ، ونجد ان الاسلام الـذي انتشر غربا لم يحتج الى تلك الرهبانية بل منذ اليوم الاول كان سنيا وبقي سنيا ، وما هو السبب في هذا الفرق بين الاسلام الاقصى الشرقـي والاسلام الاقصى الغربي ، الفرق او السبب لهذا الفرق هو سهل ، وهو يمكن ان نوجزه في كلمة واحدة عـدم التعريـف بالعربية . فجهل اناس اللغة العربيـة هي التـي نشرت في الشرق الاقصى الملة ونشرت رجال الدين الذين كانوا يحتكرون اللغة العربية ، تلك اللغة العربية التي بها نمارس معاملاتنا وعباداتنا وحالاتنا الشخصية، تلك اللغة العربية التي يجب علينا ان ندركها ونكـون العلماء ومن المدرسين ومن المحاضريـن فاصبـح ملمين بها حتى يمكننا الاستفادة من اولى الفكر ومن الاسلام في الشرق الاقصى اسلاما يتعبد به الناس لا يعرفون ولا يحفظون اكثر من الفاتحة ، وهنا تقـف معرفتهـم بالعربيـة .

والنبي صلى الله عليه وسلم وكأنه كان يشم هذا في بداية الاسلام ، قال : ((لا رهبانية في الاسلام)) والرهبانية هنا نشات عن جهل افقي وعمودي للعربية.

هذه الكلمات والتحليلات التي اضعها امامكـم كانت محور كلمة طويلة القيتها شخصيا في الجلسات المقفلة في المؤتمر الاسلامي وطلبت وكنت ارى في شاشة التلفزيون ان جميع رؤساء الدول الاسلاميـة كانوا يتتبعون هذه الكلمات وكانوا كانهم يكتشفـون امريكا في القرن الرابع عشر ويكتشفون الثغرة بـل الهوة التي يمكن ان يخلقها الجهل بلغـة الضـاد . وطلبت منهم على الاقل ان يعطوا حصة للعربيـة في جميع مدارسهم الابتدائية والثانوية على الاقل حصة ثلاث ساعات او اربع ساعات في الاسبوع . طيـب لنكمل اذن جولتنا الاستراتيجية السياسية . هل من المعقول ان نظن ان البدع الهدامة والمضادة للسنة ستريد ان تنتشر في ناحيتها والحالة هذه ان افريقيا الشمالية بمائة مليون من السكان كلها سنية . لا انا لو كنت قائد المروجين ومفتي المفتين للبدع لا ابتدىء في عملي في الشرق ولا في الشرق الاقصى الا اذا انتهيت مع خصمي السني في افريقيا الشمالية حتى لا نصبح كما يقول بعض المفسريـن للحديـث : ((خلق الاسلام غريبا وسيعود غريبا فطوبى للغرباء)) بل ((بدا الاسلام غريبا)) .



بحيث قبل ان انشر السرطان البدعي وأركز على نشره في الشرق الاقصى يجب ان أكون مرتاح البال من خلفي وهو افريقيا الشمالية التي كانت دائما سنية وستبقى سنية ، فلهذا توجيهي لكم في هــذه النقطة بالذات لا نريد ان نبني عملنــا على محاربــة البدعة . اريد ان نبني عملنا على توطيد السنــة ، المغاربة كانوا دائما ايجابيين ولم يكونوا سلبييــن والاسلوب السلبي لا يعطي ولا يغنــي من جــوع . وسنجد نفوسنا في فقر وعوز اذا نحــن ارتكبنــا الاسلوب السلبي في الوعظ ، انا اريد ان نمتطــي الجواد السباق الايجابي الذي يعرف بالسنة والتي يوطىء لها والتي يعزز جانبها في الدار في المنزل في المسجد في المدارس فى الكتاتيب ، ا ريد ان يبقى برنامج التوجيه الديني المغربي ان يبقى مغربيا كمــا كان منذ 14 قرنا الاسلام المغربي سني ولكن لطيف بعباد الله الاسلام المغربي على كــل حــال اسلام التسامح والتساكن والتجانس ، الاسلام المغربــي مبني من الناحية العقائدية على : « ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » هذا قرءان ولكن مبني كذلك حتى لا تكون الفوضى على من رأى منكرا فليغيره اما بيده أو بفمه او بقلبه وذلك اضعف الايمان اذن ، عندنا فيما يخص تلقيــن الشريعــة الاسلامية والاخلاق الدينية التربوية المغربية لنــا دستور وهو القرءان ولنا كذلك نصوص تطبيقية وهي الحديــث .

بقي الآن كيف ننسق هذه الاعمال اولا فيمــا يخص الدعوة الاسلامية ، انا اريد ان اقترح عليكــم مرحلة تسبق المرحلة العليا وهو ان نوجد في أقرب وقت ممكن من اولئك الذين لهم الباكالوريا العربيــة ولا يدركون ولا يتحكمون في لغة اجنبية ان نعطيهم الذليل بالوسائل المرئية السمعية اليوم في ثلاثــة اشهر او اربعة اشهر اما الانجليزيــة او الفرنسيــة اولئك هم الذين سيكونون دعاة الاسلام في المدارس الابتدائية في بنغلاديش في الباكستان في الصومال في دجيبوتي في جزر القمر في غينيا في السينغال في جميع الدول الاسلامية التي لا تتكلم العربيــة . وهذا أسهل لاننا عندنا وفر كبيــر مــن الشبــان الحاصلين على الباكالوريا بالعربية . ولكن وقفوا هنا فلو امكن انه اقليميا او جهويا ان نكونهم في ظــرف ثلاثة اشهر ويمكنهم ان يتكونوا في ثلاثة اشهر امــا بالانجليزية ، ويذهبون الى الدول الاسلامية المتكلمة

..أريد أن يبقى برنامج التوجيه الديني المغربي مغربياً كما كان منذ 14 قرناً . الإسلام المغربي سني ، وهو إسلام التسامح والتساكن والتجانس.

بالانجليزية وهم في حاجة الى ذلك ، او بالفرنسية ليذهبوا الى الدول المتكلمة بالفرنسية ، والمغاربة ولله الحمد مطلوبون على السوق العالمية للعلم او في جميع الاسواق لانهم لا يتدخلون في الشؤون السياسية للبلاد التي يعيشون فيها ويعملون بها بل قبل ان نعين أصدقاءنا وآخواننا سنخدم جالياتنا في الخارج ، وتكاليف هذا التكوين سوف تكون ضئيلة جداً . اما بالنسبة لنا وللجاليات فالتضحية واجبة ان نؤدي لهم اجرتهم كما يجب .

اما الدول الاجنبية الاخرى الاسيوية والافريقية هم مستعدون على ان يدفعوا لكل واحد اجرته كاملة غير منقوصة مقابل انقاذهم من الجهل الذي هم فيه من اللغة العربية . وفعلا فقد أحسوا بخطر جهل العربية . اذن يجب قبل التوعية العالمية والدعوة الاسلامية على الاقل ان نجلب لهذا البلد الخير الكثير النبي صلى الله عليه وسلم في حديث يقول :

« ولان يهدي الله بك رجلا واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس » .

كما ان المغرب في أوائله عرف الاسلام حتى للسودان ، السودان مالكي المذهب ولم يرد اخذ العلم من مصر لانه هناك من قديم التخوفات بين السيطرة والسيطرة ففضلوا ان ياخذوا العلم عن المغرب لهذا هم مالكيون . فكما ان الله سبحانه وتعالى اعطانا دور الفاتحين لا بالسيف ولكن بالقلم وبالكتاب وبالسنة . اريد ان يعطينا مرة اخرى فرصة جديدة في تاريخنا لفتح جديد . ولي اليقين ان الاجيال المقبلة هي التي ستعرف ثواب جهدنا ومجهوداتنا حيث انه ستدرك بعملنا ، ستدرك ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم : « معيشة خير من كل ما طلعت عليه الشمس » .

هذه نقطة اريد ان تتدارسوها بكيفية ثابتة ومتركزة .

ويمكن في اكتوبر المقبل ان نرسل سربا من 200 الى 250 شخصا نصفها ناطق بالفرنسية والنصف الآخر ناطق بالانجليزية لتدريس اللغة العربية في المدارس ، لان المدارس الاسلامية محتاجة الى اساتذة في العربية . اذن تفاهمنا تماما ، فهم لن يعلموا الدين بل سيعلمون اللغة العربية حتى يمكن لكل واحد ان يقرأ التفسير او يقرأ الشرح لمتن او لسورة من السور .

اما النقط الاخرى التي جاءت فى جدول أعمال دراستكم فاعدكم بتلبيتها وتطبيقها تلبية وتطبيقا كاملين . بما فيها الاول ، وهو الميزانية الكافية . وهذه السنة سوف نعطيكم الحد الادنى الذي طلبتموه لاننا في شهر مارس ، ولكننا في السنة المقبلة سنزيد ان شاء الله وربما حتى في ظرف هذه السنة شخصيا سازيدكم . بقيت مسالة اخرى وهي مسالة التنسيق بين الفرقان والسلطان ، الفرقان هو انتم ، السلطان هو ممثل ملك المغرب في الاقاليم وفي الولايات وفي الجهات . المغرب الآن يتوفر على اكثر من 40 اقليما وعندنا ولله الحمد 60 قائدا الذين تخرجوا من كلية الشريعة والذين التحقوا بالمدرسة التكميلية للاطر في القنيطرة والذين عندهم الاجازة الاولى والثانية سوف أعطي الامر لوزير الداخلية لكي يكون لكل مجلس علمي شخص واحد من هؤلاء يكون رابطة وصل بينه وبين العامل . لان هؤلاء جميعا تخرجوا من كلية الشريعة وتلقوا في مدة اربع سنوات التطبيق بمدرسة الاطر بالقنيطرة .

طيب هناك عمالات لا توجد بها مجالس علمية ولكن ريثما يكون فيها المجالس العلمية لا بد من واحد يكون له اتصال دائم مع قاضي عاصمة العمالة ريثما تكون المجالس العلمية مغطية المغرب ان شاء الله كله . لماذا هذا التنسيق لانه اولا يجب علينا ان نتخذ (اطلب من الامين العام للحكومة ان يسجل هذا) يجب علينا ان نتخذ اولا وقبل كل شيء تشريعا هو انه لا يمكن ان تعطى رخصة لبناء اي مسجد اذا لم تكن بجانبه مرافق من اجل تسيير ذلك المسجد . فالناس يبنون المساجد ويسلمونها للاحباس ، والاحباس لا تجد ما تؤدي عليها فتبقى المساجد (يدخلها من الائمة من اراده صاحب المسجد عن حسن نية) فتصبح وكرا للناس الذين لا يصلون مع الجماعة ، للناس الذين يصلون على كيفية من الكيفيات ، وفي غالب الاحيان الناس الذين يبنون المسجد بهذا الشكل ليست لهم رخصة للبناء ولكن عندهم ارض محيطة يريدون بناء المنازل فيها بكيفية عمياء وهم يعرفون أن لا احد يستطيع هدم ذلك المسجد فنصبح بذلك في مستنقع فكري وديني ومستنقع سكني فلذا يجب ان نتخذ ظهيرا انه لا تعطى الرخصة لبناء مسجد الا اذا كان في تصميمه (وهنا العمال يجب ان يكونوا على بينة من ان هذه المسألة تعد خارجة عن نطاق ميثاق البلديات) .

ان المساجد كانت دائما حتى في عهد الحماية مرتبطة مباشرة بالملك حيث انه في هذا الصدد ليس من اختصاص رئيس المجلس البلدي ان يمنح الرخصة بل ان العامل هو الذي سيمنحها لانها تدخل في اطار هيكل كان دائما مسألة خاصة بامير المؤمنين فلا يعطى الاذن لبناء مسجد الا اذا توفرت المرافق الحيوية التي يمكنها اولا ان تصرف عليه .

ثانيا ان اجدادنا لم يقوموا بالاشياء عبثا بل كانوا على علم بما يقومون به حتى بالنسبة للمساجد دفاعا عن السنة وليس تجسسا على الناس ، فلهم خطيب المنبر والامام والمؤذن وغسال الناس ، وهؤلاء كانوا اذا ما راوا بدعة يخبرون بها المخزن .

واليوم لا يصل اي شيء من مساجد اقاليمكم ونسمع بان هناك اناس ينتظرون ان تنتهي الجماعة من صلاتها ليؤدوا بعد صلاتهم ، يتكلمون اثناء كلمة الخطيب كي لا يطبق « ومن لغا فلا جمعة له » .

يقفون عند ابواب الجوامع ولا يسمحون بالدخول الا للذين ارادوهم ان يصلوا وهذه هي البدع الحقيقة باي شيء سنحاربها ، نحاربها بالرجوع الى السنة دائما نحارب السلبي بالايجابي ، اناشدكم الله في هذه القضية .

اناشدكم الله دائما ان تحاربوا السلبي بالايجابي لان السلبي ياتي وقت ينضب فيه الانبوب ، اما الايجابي فان منهله دائما معطاء ودائما موجود بحيث لا بد من التنسيق مع السلطة المحلية . وهنا القواد الذين سيشرعون في مهامهم يجب تعيينهم في اقرب وقت . اما البرامج في الاذاعة والتلفزة فاني اقبلها ولكننا على استعداد لنعقد برنامجا مرة في الاسبوع او في كل شهر على اساس تسجيل البرامج من قبل وان يتم عرضها على لجنة حتى لا تمتعض المراة التي تتزين لاستقبال زوجها لدى عودته من عمله وتعتقد ان التزيين مخالف للدين . فالنبي صلى الله عليه وسلم مع عدة زوجات الصحابة كان يصيح فيهم بان الدين ليس مخالفا للتزيين وليس مخالفا للشعر المشوط ومع ذلك فقد اصبحنا امام نفور بحيث اصبح الناس يتساءلون كيف ذلك وهم صرفوا نحو 100 او 150 درهما في الحلاقة ثم ياتي الفقيه ليطلب منك اعادة الوضوء من جديد . ما هذه المصيبة .

اذا كانت البرامج ستنجز يجب - ها هو وزير الانباء هنا - يجب تكوين لجنة رقابة من العلماء ، ولا تبث هذه البرامج مباشرة لانه ليس من حق احد ان يرتجل لان النصيحة لا تقبل الارتجال . ففي التوجيه يمكن للانسان ان يرتجل . اما في النصيحة الدينية لا يسمح بالارتجال بل يجب ان يكون الكلام مركزا ومبنيا .

وشكلوا لجنتكم التي سيراسها وزير الاوقاف واختاروا من سيكون ضمنها انها مهمتكم . اعدوا برامجكم 6 او 4 او 20 برنامجا مسجلا سناخذها بعين الاعتبار ، واذا اعددتم برنامجين اثنين في الاسبوع مقبولين وقصيرين وغير مملين ويتناولان حقا المشاكل التي تهم الناس فلا مانع في ذلك بحيث ان فائدة ربع الساعة افضل من المسلسل الذي يفرض علينا في بعض المرات .

فهذه مهنتكم وليست مهنتي ، اما ما يمكنني ان اقوم به فهو السماح لكم باستعمال الاذاعة والتلفزيون ولكن اتقوا الله واتقوا الله حتى في انفسكم لان هذا يتعلق بانتاج علماء المغرب واريد ان يكون علمائي في مستوى الوعظ يعلون من شانهم وشاننا لانه يوجد في بلادنا عدد وافر من الاجانب العرب والمسلمين سيقفون على مستوانا فمنهم من سيقوم بتسجيل هذه البرامج بواسطة الفيديو لنقلها اما الى عاصمة بلاده قصد التنويه بها او اظهار الحضيض الاسفل الذي وصل اليه المغرب ، فخير لنا جميعا ان يكون البرنامج في المستوى المطلوب ولو كان بسيطا .

اما المعهد العلمي فسنضعه نصب اعيننا لان هناك مقترحا من المؤتمر الاسلامي لبناء معهد تكنولوجي وعلمي اسلامي في المغرب .

فانا افضل عوض احداث معهد خاص بالشؤون الدينية ان ندخل في المعهد التكنولوجي شعبة دينية كي يحصل تساكن بين الذي سيعمل في الكيمياء او الفيزياء النووية يتناول طعامه وشرابه في نفس المعهد الذي يوجد فيه من يتكفل بتصحيح كتاب لابن رشد مثلا او يعالج كتاب الموطا بكيفية اخرى ليعرف بان هناك تساكنا بين العلم والتكنولوجيا والفلسفة الاسلامية .

فهذه مسالة يجب ان ننظر فيها وننظر فيها مع الاسيسكو ونبحث في المقررات الاخيرة للقمة . ولكن كما كان قد تقرر انه سيتم بناء هذا المعهد معهد التكنولوجيا والعلوم ونحن سنوفر البقعة الارضية التي سيشيد عليها وكما تعلمون فان التكنولوجيا تعني الطائرات الاقمار الاصطناعية هي عدة مسائل اخرى ومع ذلك سندخل الشعبة الدينية لكي نظهر انه ليس هناك اي تناقض بين الدين والعلوم والتكنولوجية .

اظن اننا انهينا عملنا وحقيقة انا مسرور جدا انه امكنكم في ظرف يوم ونصف ان تتفقوا على ست نقط اساسية وحيوية والتي ولله الحمد لم تلق منا القبول فقط بل التشجيع كذلك ، وهنا اعبر لكم باسم كافة المغاربة على الرضى الكامل على اعمالكم وعلى ما قمتم به من مجهود وحتى لا تبقى هذه المسائل مجرد ملتمسات بدون قاعدة تطبيقية فان السيد عز الدين العراقي سيراس ان شاء الله عشية اليوم بمعية وزير الاوقاف الجديد جلسة عمل بعمالة الرباط . اجتمعوا معهم لمدة ساعتين او ثلاث ساعات لتتعرفوا على النصوص التي تدخل في الاطار التشريعي وتاتون بها للطابع والنصوص التي تدخل في الاطار التطبيقي لعرضها على الوزير او الوزراء الذين سيوقعون على الرسوم او القرار واتخذوا جميع التدابير التشريعية والتنظيمية لكي يتوصل العمال برسالة دورية فيما يخص هؤلاء القواد . وقد استمع السيد عبد اللطيف الفيلالي لما راج حول استعمال الاذاعة والتلفزة .

والكريم سبحانه وتعالى اذا بدا تمم فلم نر منه الا الخير ولن يرينا الا الخير ان شاء الله .

والسلام عليكم ورحمة الله .

كلمة الشيخ محمد المكي الناصري

مولاي امير المؤمنين الحسن الثاني اعز الله بكم الوطن والدين .

ها هي مجالسكم العلمية الحسنية جاءت باعضائها ورؤسائها من كل صوب وحدب تنتهز فرصة اقتراب عيد العرش العلوي المجيد ، عيد البيعة الحسنية الخالدة لتكون السباقة في طليعة شعبكم الوفي الى تقديم اعز التهاني واطيب المتمنيات لجلالتكم ولعرشكم ولسمو ولي عهدكم ولاسرتكم الكريمة .

ها هي المجالس العلمية جاءت وكلها امل كبير فيما تناله من جلالتكم من توجيه وارشاد ورعاية وامداد وقد كلفت خديمكم ومحبكم هذا ان يفضي امامكم بكلمة موجزة تستغرق بضع دقائق لتعبر عن مشاعرها وعن تطلعاتها بالنسبة للمرحلة التي انتهت وللمرحلة المقبلة التي تستقبلها في عهدكم السعيد .

مولاي : ان المجالس العلمية التي غرستم غرسها الطيب شجرة تؤتي اكلها كل حين باذن ربها ، وما من مجلس مجلس ، وما من عضو عضو ، الا وهو ينافس الآخر في تحقيق الاهداف السامية التي وضعتموها جلالتكم لهذه المؤسسة العتيدة التي جددتم بها شباب الاسلام .

ان المجالس العلمية بذلت كل ما تستطيع في نطاق طاقاتها المحدودة لحد الآن وقد ادركت وادرك الشعب المغربي أن هذه التجربة الفريدة التي وضعتم غرسها تتجاوب مع الشعب كل التجـاوب ، فقـد انعشت آمال الامة وحركت الوجـدان الدينـي في شعبكم ، فالكل أصبح اليوم يسأل عن دينه ويبحـث عن ايمانه ويشكر الله تعالى ان وفقه فجعلكم تاجا على رأس هذه الامـة .

ان المرحلة المقبلة يا مولاي تسعى لان تكـون تطلعاتها في مستوى تطلعاتكم . فنحن كلما حاولنـا اللحاق بكم لهثنا ولم نستطع ذلك اللحاق ، لكن عندنا طموح كبير وارادة صادقة وايمان برسالتكم التي هي رسالة الاسلام نحتاج الى مدد قوي لنؤدي الرسالة المنوطة بنا لنكافح التيارات الهدامة وما اكثرهـا ، ولندخل المعترك بسلاح قوي نستطيع ان ننجح به في المعركة . وانتم سيد العارفين فلا يخفى عليكم مـا يحتاجه الضبـاط من سلاح سواء في الميـدان العسكري أو في ميدان الامن الروحـي والغـذاء الروحي الذي هو غذاء الاسلام .

مولاي : لقد اجتمع اعضاء المجالس العلميـة رؤساء المجالس وتدارسوا فيما بينهـم النقـط الرئيسية التي لا غنى عنها في المرحلة الحاضرة وهي مرحلة ما اشدها وما اعظم الصراع فيها مع قـوى الشر والباطل من الداخل والخارج . وقد ركزت على امرين اثنين : هما الوسائل المادية التي تكفيهـا في هذه المرحلة الحاسمة ، ثم نقطة حيوية واساسيـة تعد حجر الزاوية في كل عمل اسلامـي الا وهـي تأسيس معهد عالي للدعوة الاسلامية تبلـغ اشعتـه ارجاء العالم الاسلامي كله لا المغرب فقط ، ولكـن المغرب والمشرق بالاسلوب الحسنـي وبالرؤيـة الاسلامية الصريحة والواضحة السمحة التي تراها جلالتكـم .

فكلياتكم ومعاهدكم التي رصعتم بها هذا البلد هي تاج على راس هذه الامة ، جزاكم الله عنا خيرا ، ما من موضوع موضوع ، وما من مجـال مجـال ، الا ووضعتم فيه الاساس ، بقيت لبنة واحدة ، كمـا جاء في الحديث النبوي الشريف ، هذه اللبنة هـي معهد عالي وكلية للدعوة الاسلامية يتخرج منها الدعاة مسلحين بسلاح العلم الشريف وسلاح العصر لمواجهة التحديات المعاصرة بالاسلوب اللائق والسلاح اللائق، وليس هذا على همتكم بعزيز . لقد ملأتم هذه البلاد كليات ومعاهد وجامعات وطموحكم لا يحـده شيء ، وهمتكم العالية لا يقف في وجهها شيء .

فالامل عظيم ان تكون المرحلة المقبلة للمجالس العلمية تتوفق وأن تزدان باصدار أوامركم السامية بانشاء هذا المعهد العالي الذي لا يلجـه الا طلبـة الباكالوريا والذي يسلح بعلوم حديثة من علـم نفس واجتماع الى آخره ... الى جانب العلـوم العلـم الشريـف .

مولاي : اذا اذنتم لي ان القي على مسامعكـم خلاصة ست فقرات هي التي اهتدى اليها وحصـر فيها رؤساء المجالس ملتمساتهـم المرفوعـة الى جلالتكم وكلهم ثقة ورجاء وأمل في أنها ستكون موضع رعايتكم وموضع نظركم الشريف ، فاذا اذنتـم لي قرات عليكم هذه الفقرات الست كما وضعها رؤساء المجـالس .

ملتمسات المجالس العلمية الإقليمية

الحمد لله ، والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآلـه وصحبـه .

الى المقام العالي بالله مولانا امير المؤمنيـن حامي حمى الوطن والدين جلالة الملك الحسن الثاني ايده الله ونصره تتقدم المجالس العلمية الاقليميـة بالملتمسات التي أسفر عنها جمعها العام المنعقـد بالدار البيضاء يوم الاربعاء 19 جمادى الاولى عـام 1404 موافق 22 فبراير 1984 وهذه هي الملتمسات:

* اولا : تخصيص ميزانية قارة ومستقلـة وكافية لمواجهة المصاريف والنفقات المترتبة عـن ممارسة المسؤولية التي تتحملها المجالس العلميـة الاقليمية بالنسبة لها وللاقاليم المنضوية تحت لوائها وذلك من اجل اداء رسالتها على الوجه الاكمل ، وان الامل لمعقود على صاحب الجلالة نصره الله لاصدار اوامره المطاعة في هذا الصدد تحقيقا للاهداف التي ينشدها جلالة الملك .

* ثانيا : احداث معهد عال لتكويـن دعـاة ومرشدين وخطباء من ذوي المواهـب والمؤهـلات ليستطيعوا مقاومة التيارات المناوئة على ان يكـون

لطلبة المرشحون لدخوله من الذين انهوا دراستهم الثانويـــة .

* ثالثا : تفرغ بعض السادة العلماء الموظفين وتكليفهم بمهمة الدعوة الاسلامية باعتبارها ميدانــا فسيحا يحتاج الى تكريس الجهود وتضافر الكفاءات وذلك بالاتفاق مع الوزارات المعنية .

* رابعا : تخصيص برامج ثابتة وكافية في الاذاعة والتلفزة للتوعية الاسلامية تعميما للفائدة .

* خامسا : اختيار نخبـــة من الشبـــاب المتمسك بالدين والمتخرج من كليات جامعة القرويين وشعب الدراسات الاسلامية بالكليـــات الاخـــرى لايفادهم الى بعض بلدان الشرق العربـــي قصـــد استكمال تكوينهم وتوسيع مداركهم بالاتفـــاق مـــع المجالس العلمية الاقليميـــة ووزارتـــي الاوقـــاف والشؤون الاسلامية والتربية الوطنية .

* سادسا : ربط الاتصال بالعالم الخارجي وذلك بتوجيه الدعوة من حين لآخر الى بعض اقطاب الفكر الاسلامي بالدول الاسلاميـــة وبعـــض الدول العربية الشقيقة لزيارة المغرب والاقامة به مدة معينة املا في تقوية أواصر الاتصال بين علماء المغـــرب وعلماء المشرق وتبادل الخبرات والآراء فيما بينهم تعميما للفائدة واستدرارا للمزيد من المعرفة .

اطال الله بقاء مولانا امير المؤمنين وحامي حمى الملة والدين جلالة الملك الحسن الثانـــي نصره الله وايده وحقق على يده الآمال وحفظه في ولي عهـــده سمو الامير الجليل سيدي محمد وصنوه السعيـــد سمو الامير مولاي الرشيد وباقي افـــراد أسرتـــه الكريمة ، انه سميع مجيب ، والسلام على المقـــام العالـــي باللـــه .

وفي ختام هذه الكلمة اعلن امام جلالتكـــم ان المجالس العلمية دائما وأبدا في انسجام وتنسيـــق وتعاون تام مع وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية ، وقد سبق لنا تعاون وثيق مع السيد الوزير السابق السيد الهاشمي الفيلالي ونحن مستعـــدون تمـــام الاستعداد للتعاون التام مع الاستـــاذ عبد الكبيـــر المدغري في ظل جلالتكم ، وفي خدمة الدين والوطن ، والسلام على المقام العالي بالله .

نبذة عن حياة
الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري
وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية

ولد السيد وزير الاوقاف والشؤون الاسلامية الدكتـــور عبـــد الكبيـــر العلـــوي المدغـــري بمكناس عـــام 1942 وتابـــع دراسته الابتدائيـــة بمدرسة النهضة الاسلامية بها وحصـــل على شهادة الباكالوريا في التعليم الاصيل عام 1964 ، والاجازة في الاداب من جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس والاجازة في الحقوق من جامعـــة محمد الخـــامس وديبلوم الدراسات الاسلامية العليا ودكتوراه الدولة في العلوم الاسلامية من دار الحديث الحسنيـــة ، وعمل استاذا للتعليم العالي بجامعة القرويين كليـــة الشريعة والمدرسة المولوية بالرباط وهـــو عضـــو المجلس العلمي الاقليمي بفـــاس ومحـــام بنـــفس المدينـــة .

ومتزوج ولـــه خمسة اطفـــال .

وللسيد الوزير نشاط علمي وثقافي في حقـــل الدراسات والدعوة الاسلامية ، وقد شارك مرتين في الدروس الحسنية الرمضانية بمحاضرتين دينيتين ، ونشر عدة أبحاث في الثقافة العربيـــة الاسلاميـــة بالمجـــلات المغربيـــة .

جلالة الملك الحسن الثاني في خطاب العرش:

• عاشت بلادنا منذ أن تفتحت للإسلام مستظلة بظلال القرآن المجيد والسنة النبوية الشريفة متمسكة بمذهب السنة والجماعة.

●● تضمن خطاب العرش الذي القاه صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله يوم 3 مارس بمناسبة الذكر 23 لجلوس جلالـته على عرش أجداده المنعمين توجيها بالغ القيمة تناول مختلف أوجه الحياة الاجتماعية والروحية والاقتصادية والسياسية ببلادنا . وفيما يخص الجانب الديني اكد الخطاب السامي على وجوب التمسك بالهوية الثقافية والروحية لبلادنا وشعبنا ، وقد رسم جلالة الملك أعز الله امره الملامح الرئيسية لسياسة المرحلة القادمة من مراحل التطور الحثيث الذي نقطعها جميعا وراء جلالة الملك المعظم قائد المسيرة ورائد النهضة .

ونتشر فيما يلي النص الكامل لخطاب العرش ●●

الحمد لله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه .

شعبي العزيز :

نخاطبك حينا بعد حين طوال كل عام . ونتحدث اليك أحاديث متعددة تختلف محاورها ومواضيعها باختلاف ما يطرا من ظروف ويجد من ملابسات . وقد جرت عادتنا ان نطلعك من خلال هذه الاحاديث على آرائنا ووجهات قصدنا . وندلك على ما نؤثره بعد التامل والتفكير بالاختيار والتفضيل من الاعمال والممارسات والاسباب والوسائل .

وفي اثناء مخاطبتنا اياك لانالك مصارحة وتوجيها وارشادا مبتغين لك ما يبتغيه الاب لابنائه ومتوخين بنصحنا لك وتسديد مسالكك ومسعاك ان تفوز بالحسنى وتنال خير الدارين . نخاطبك شعبي العزيز هذه المخاطبة ونتجه اليك هذا الاتجاه حتى اذا اشرقت طلعة عيدك وعيدنا هذا واهلت ذكرى جلوسنا على عرش اسلافنا الميامين شاع في حديثنا اليك ما



نتقاسمه نحن وأنت من فرح وابتهاج وما يمتلىء به قلبنا وقلبك من حمد لله وشكر على نعمة لقائنا المتجدد وتواصلنا المستديم وتوافقنا الثابت المكين على مر الاحقاب والقرون .

وخطابنا في هذا اليوم المبارك الميمون ان كان يتصف بهذه الصفة ويمتاز بهذه الميزة فانه يمتاز كذلك بانه لا يقتصر على مضمار واحد ولا يتقيد بموضوع منفرد وانما يلج ابوابا كثيرة ، ويجول في ميادين مختلفة لحرصنا لا على الاستقصاء والاحصاء وانما علي الوقوف ولو قليلا عند اجلى وابرز ما تضمنه حصيلة عام كامل من الاعمال التي تيسرت بتاييد الله وتاييدك وظفرت بلادنا من وراء انجازها باظهر المنافع واوفر المكاسب .

وسنجري في اتجاهنا اليك اليوم على عادتنا فى الاستعراض والتذكير والنصح والتوجيه متوخين ما نتوخاه باستمرار من دلالتك على انبل الاغراض والمقاصد واسلم الطرق وانجع الوسائل .

شعبي العزيز :

ان عيدنا الوطني الذي نحتفل به اليوم ليس عيد ذكرى جلوسنا على عرش أسلافنا المقدسين فحسب وانما هو عيد نحيي باحتفالنا له اصدق واخلص تحية تلك القيم السامية الثابتة المستقرة في اعماق كياننا ونخلد ذكريات وامجاد تلاحقت عن امتداد ماضينا وتالقت صفحاتها في عرض تاريخنا الطويل ، فاذا نحن صرفنا النظر عن حقب هذا التاريخ البعيدة وقصرنا رؤيتنا على مطالعة وتصفح حقبه القريبة وجدنا ان بلادنا امتدت اليها خلال القرن الماضي اطماع الطامعين وتصدى لها الاستعمار وهو في اوج الصولة وغلواء المد والاندفاع وصولة الشره والنهم والتجا لبلوغ اغراض السيطرة والهيمنة الى منكر الوسائل وتذرع للمصادرة والاستقصاء بمرذول الذرائع ، وما لبث بما والاه من دسائس وخداع وزاوله من ترغيب وترهيب واستثاره من شغب واضطراب ان تيسر له مطلب انهاك السلطة المركزية واتزافها ، فتم له حينئذ ما اراد واستدار

على البلاد نطاق مشيئته وسلطانه وخيل اليه وهو مزهو بهذا النفوذ الواسع وهذا الجاه العريض أن كلمته ستظل مسموعة وأن حرية تصرفه هيهات أن تحدها حدود ، ولكن الله سبحانه وتعالى تدارك هذا البلد بجميل وعظيم فضله وصانه مما كاد ان يصيبه من أذى ويحيق به من شر ذلك ان الله قيض لوطننا في ظرف عسير ملكا خاض هو وشعبه معركة ضارية من أجل الحرية والاستقلال باقدام كبير وبطولة نادرة ، وهذا الملك هو جلالة محمد الخامس رضي الله عنه .

ولقد عانى هو وشعبه لتحقيق هذا المطمح النبيل ضروب البطش والاضطهاد والوان الامتحان والابتلاء ، ولم تصرفه الشدائد عن قصده ، ولم تفت المكاره ولا التضحيات في تصميمه وعزمه ، فلما اقترف الاستعمار جريمة ابعاده وابعاد أسرته عن الديار والاوطان تلقى رحمه الله هو واسرته هذا التصرف الجائر وهذا التحكم الشنيع تلقى ذلك بالصبر وبالشجاعة واطمئنان المؤمن بعدالة مطلبه ونصر الله لحقه ، ولم يخلد الى الراحة في منفاه السحيق بل ظل يواصل الجهاد ويقود المعركة التي استمر مريرها الى ان كلل الله ثورة الملك والشعب باكاليل الفوز والانتصار واثاب النضال والكفاح والصبر والمصابرة والآلام والتضحيات بالابلاء من داء الاستعمار والاحتلال وبالحصول على الحرية والاستقلال ، وعلى هذا النحو استطاعت الدولة أن تستعيد كرامتها وتسترد سيادتها وتستانف مسيرتها الطلقة المتحررة بنفس جديد وشباب عتيد ، ومنذ اللحظة التي تم فيها الانبعاث وبلادنا مصروفة العزيمة والجهود الى جميع الميادين ، مهتمة شديدة الاهتمام بقضايا الحاضر وقضايا المستقبل لا تنفك تبذل الرعاية الدائبة الساهرة للشؤون السياسية على تعددها والشؤون الاقتصادية والاجتماعية والثقافية على اختلافها وتشعبها ، فكافا الله الداب المشترك بين الملك والشعب وظهرت آثار التكاثف الذي تنطلق منه الاعمال والتناصر الذي ترتكز عليه المساعي متمثلة في مكاسب جزيلة توافرت في كل مجال .



وهكذا كتب الله النجاح الباهر لمسعى عملاق اتحدت فيه الرغائب والارادات اتحادا وثيقا تيسر به التئام الشمل واجتماع الاخوة والاقرباء بعد انفصال طال احقابا واحقابا ، ذلك هو مسيرتنا الخضراء المؤزرة التي استعدنا بها الصحراء وقطعنا بها شوطا بعيدا في طريق استكمال وحدتنا الترابية ، وهكذا أيضا استطعنا أن نقيم نظام الملكية الدستورية وننشيء المؤسسات الواردة في الدستور ونوطد دعائم الديمقراطية التي نتشارك نحن وانت في الايمان الراسخ بها والحرص الشديد على أن تسير بخطى ثابتة قويمة لا يعوقها عائق ولا يعتري سلامتها اعتلال ،

> **اهتمامنا بالميادين الاقتصادية والاجتماعية وبالقطاعات المنتجة وبالتشغيل والمحافظة على القدرة الشرائية للمواطنين سيظل إن شاء الله اهتماما متصلا .**

وها هي بلادك التي تعتز بالتقاء الرئاسات والزعامات فوق ارضها للتشاور والتداول في قضايا العرب والمسلمين وتبرم في رحابها المواثيق المؤكدة وتتخذ القرارات المصيرية تضطلع محترمة مقصودة الجانب بالاوراد المشهودة في هذه الظروف المثقلة بالمعضلات والحافلة بالتحديات ، وبلادك التي تعني عناية فائقة بقضايا العالم اجمع تعير بالغ اهتمامها بصورة خاصة لقضايا العالم الافريقي والعالم العربي والعالم الاسلامي وتسهم الاسهام الفعال من خلال المشاركة في المؤتمرات الدولية أو من خلال ما تواظب عليه من اتصالات بالملوك والرؤساء والقادة والشخصيات في مد اسباب الحلول والتسويات .

شعبي العزيز :

ان غضبنا للكرامة المهيضة والسيادة المغلولة والحقوق المهضومة وان اباءنا وحفاظنا وحرصنا على الاجادة والاحكام وحبنا للعمل الصالح المثمر وطموحنا المشروع الى ارتقاء احسن المستويات وتبوء أعلى الدرجات باقتناء المحامد والمكارم ، كل هذه الخصائص والطبائع ان هي الا الفضائل والشيم والمعاني والقيم التي نحييها حامدين الله نعمتها السابغة ، اذ نحيي عيدنا الوطني هذا ونحتفل بها شاكرين معتزين داعين المولى سبحانه ان يبقيها فينا وفي أعقابنا وأعقاب أعقابنا ويجعلها سمة خالدة عالقة بهذا الوطن شائعة في ابنائه ما توالت الازمان وتلاحقت العصور .

شعبي العزيز :

تجتاز بلادنا منذ بضع سنين مرحلة عسيرة ناتجة عن اسباب متنوعة عرضناها عليك قبل اليوم واطلعناك على ما لها من تاثير في اقتصادنا ، وليست الصعاب التي اعترضت وما زالت تعترض سبيلنا بالظاهرة التي خص بها المغرب دون سواه ، فقد منيت بها سائر الدول النامية كما منيت بها دول صناعية متقدمة ، وعلى رغم ما قاسيناه بسببها ونقاسيه من مضايقة ومعاكسة فقد دابنا نبذل الجهود مواجهة لها وتخفيفا من حدتها ، وسنواصل جهودنا مقاومين مناهضين للمشاكل معتمدين على عون الله وتاييده وعلى ما ركب الله في طبائعنا من قدرة كفاحية .

ونبادر الى القول ان اهتمامنا بالميادين الاقتصادية والاجتماعية وبالقطاعات المنتجة وبالتشغيل وبالمحافظة على قدرة المواطنين الشرائية سيظل ان شاء الله اهتماما متصلا ، ولن نستعرض فى خطابنا هذا جيع الاشكال التي برز فيها هذا الاهتمام وانما سنكتفي بتدبيرين اثنين اتخذناهما تصحيحا لميزانية الدولة وتشجيعا لقطاع نشمله بعناية كبرى موثرين الايجاز ومحيلين من يرغب في البيانات المفصلة المستقصية على ما تصدره وزارتنا في الاعلام من مستندات ووثائق .

احد هذين التدبيرين يتعلق بسياسة الصرامة التي سلكناها ازاء ميزانية الدولة ، فقد ضغطنا على

اعتمادات التسيير بفرعيها قاصدين الى تحقيق التوازن المطلوب بين المداخيل والنفقات ، واذا كنا ضغطنا من جهة اخرى على اعتمادات التجهيز فاننا راجعنا قائمة الاسبقيات المنصوص عليها في برامج الاستثمار مراجعة مراعية للاهداف المشمولة ببالغ الاهتمام فاخضعنا اختيار المشاريع الى مقاييس معينة ترتب عليها الابقاء على المشاريع ذات المردود بالنظر الى التشغيل واستغلال الثروات الوطنية ونموها وتحسين ميزان الاداءات .

اما التدبير الثاني فانه يتصل بعالم الفلاحة .

تعلم شعبي العزيز ، ان الفلاحة تحتل من عنايتنا واهتمامنا مكانا مرموقا وليس يخاف عليك ان قوة الامم ولا سيما الامم النامية تقاس في الظروف الراهنة بقدرتها على تأمين الغذاء في احسن الاحوال لمجموع المواطنين ، ومن اجل هذا يتعين على العالم الفلاحي الذي يحظى باهمية كبرى في مخططات نمونا ان يكون واعيا للدور المنوط به ومشاركا في المجهود

الرامي الى تحقيق الاكتفاء وبالتالي الى تحقيق الاستقلال في مجال التغذية ، بيد ان القطاع الفلاحي يعاني منذ سنتين اضرارا جسيمة في كثير من جهات مملكتنا بسبب قلة الامطار وتاخر نزولها ، وللتخفيف عن سكان البادية ولانعاش وانهاض القطاع الفلاحي الذي ينعكس بصورة فعالة على مضمار التشغيل وعلى الانتاج الداخلي والميزان التجاري ومالية الدولة اتخذنا عدة قرارات استهدفت الدعم والمساعدة ، الا انه تبين ان هذه المساندة لم تنشأ عنها جميع الآثار المرجوة لتخفيف مفعول الجفاف العميق وان الوضع يقتضي اتخاذ اجراءات ذات مدى وابعاد خليقة باعانة الفلاحين على تذليل الصعاب الحالية . ولذا فقد قررنا ان نعفي الدخل الفلاحي من الضرائب

وان يمتد مفعول هذا الاعفاء الى سنة 2000 .

شعبي العزيز :

تتبعت بانتباه وامل كبيرين مراحل الزيارات التي قمنا بها خلال فصل الخريف الاخير الى الولايات المتحدة الامريكية والى اوروبا ، لانك تعلم ان مثل هذه الزيارات لا تدعو اليها عادة الرغبة في الراحة والاستجمام وانما يحمل على القيام بها ما نبتغيه من السعي الدائم وراء ما يمكن ان يعود على بلادنا وعلى العالم العربي والعالم الاسلامي والعالم الافريقي من عوائد حسنة في الحال والمآل ، وكان من فضل الله علينا ان كتب لخطانا ومساعينا السداد والتوفيق ، فلقد اتاحت لنا زيارتنا للولايات المتحدة الامريكية الاتصال بصديقنا الكبير فخامة السيد رونالد ريغان رئيس الولايات المتحدة الذي اجرينا معه محادثات تناولت قضايا العالم الراهنة وقضايا الشرق الاوسط، ولقد اتسمت هذه المحادثات كسابقاتها بسمة الصداقة والود وكانت مثمرة وايجابية على غرار ما

سلف بيننا وبين الرئيس من مباحثات ، وبالاضافة الى هذا الاتصال فقد تم بيننا وبين كبار المسؤولين في الولايات المتحدة وبعض الشخصيات الامريكية البارزة لقاءات طبعها الاهتمام المشترك الواسع بمختلف الشؤون والقضايا ، وكانت زيارتنا للولايات المتحدة فرصة سمحت لنا بتجديد الصلة بأصدقاء لنا ، رؤساء دول وحكومات ووزراء وباجراء محادثات معهم تبودلت خلالها الاراء وتاكدت بها وتوثقت أواصر التعاون والصداقة .

وانطلاقا لما نوليه لقضية القدس الشريف من اهتمام متواصل فقد اغتنمنا مقامنا بالولايات المتحدة وعقدنا برئاستنا اجتماعا للجنة القدس استعرضنا فيه

> أصالتنا الإسلامية التي أينعت في ظلها العلوم والآداب والفنون وازدهرت في حضنها حضارة زاهية هي مصدر هويتنا وشخصيتنا .

ما تم في مجال هذه القضية من خطوات وقطـــع من مراحل وما نامل ان يتم ويتحقق .

وفي اثناء هذا المقام رحبت بنا الجمعية العامة لمنظمة الامم المتحدة فالقينا فيها خطابا تناولنا فيه قضية الشرق الاوسط وقضية صحرائنا ، واكدنـــا موقفنا من هاتين القضيتين ووجهة نظرنا ، وقدمنـــا جميع الايضاحات الضرورية الكفيلة بتمهيـــد وانارة الطريق الى الحلول المعقولة العادلة ، وقـد تلقـــى خطابنا بارتياح وتقدير جميع الذيـــن يصدرون في احكامهم عن النزاهة وحب الانصاف ، ثم ـ شعبـــي العزيز ـ بعد ذلك انتقلنا الى اوروبا وحللنـا بفرنسا بادىء بدء حيث التقينا بصديقنا الكبير فخامة السيد فرانسوا ميتران رئيس الجمهورية الفرنسية واجرينا معه محادثات دارت حول القضايا الثنائية والقضايا الدولية ، وساد هذه المحادثات وفق المعتاد جـــو التفاهم والود والصداقة .

وحرصا منا على ان تدرك اوروبا كـــل الادراك حقيقة مصالح المغرب ومصالح افريقيـــا باجمعهـــا ويتاكد لديها ما بين هذه المصالح ومصالح اوروبا من تداخل وترابط فقد توجهنا الى بلجيكـــا للاتصـــال بالمشرفين على لجنة الرابطة الاوروبية الاقتصادية ، وبعد ان اجتمعنا بصديقنا الكبير صاحب الجلالة الملك بودوان عاهل بلجيكا اجتماع الصديـــق بصديقـــه واستقبلنا بعض رجال حكومته تم بيننا وبين رئيس لجنة الرابطة الرئيس تورن الذي تربط بيني وبينـــه صداقة خاصة . تم لقاء ادلينا خلالـــه بالبيانـــات والايضاحات الضرورية مفسرين ومدافعين عن مصالح المغرب ومصالح افريقيا التي نسعى نحن وصديقتنا المملكة الاسبانية ليكون ارتباطها باوروبا اوثق واقوى عن طريق الربط القار .

وهكذا ـ شعبي العزيز ـ جعلنا من رحلاتنا عبر الولايات المتحدة الامريكية واوروبا مناسبـــة لشرح قضايا العالم الافريقي والعالم العربي والعالم الاسلامي وبذل المساندة لها والقيام بالدفاع عنها .

كان لبلادنا ـ شعبي العزيز ـ في وسط شهر يناير الماضي شرف احتضان القمة الرابعة للمؤتمر الاسلامـــي .

ولقد كان من دواعي مسرتنا واعتزازنا ان لبى دعوة المشاركة في اعمال هذا المؤتمر عدد كبير من رؤساء الدول والحكومات ومن القـــادة والزعمـــاء والشخصيات الدولية السامية ، اجتمع هؤلاء القادة والاعلام في مدينة الدار البيضاء وتداولوا في قضايا مصيرية بالنسبة الى العالم الاسلامـــي واتخـــذوا قرارات على جانب عظيـــم من الاهميـــة ، وسادت مباحثاتهم ومناقشاتهم روح اسلامية عالية ، وما كادت اعمالهم تنتهي حتى تحققت الاغراض المقصودة فـــي اجتماعهم وتوثقت بينهم اواصر التضامن وروابـــط الاخاء التي يدعو اليها ويحض عليها ديننا الاسلامي الحنيـــف .

ونجح هذا المؤتمر ولله الحمد والشكر ، وهو المؤتمر الاسلامي الثاني الذي انعقد فوق ارضنا منذ قمة سنة 1969 نجح بالنظر الى عدد وزن المشاركين فيه بالنظر الى القضايا التي طرحت على بساطة والى القرارات المتخذة في رحابه والروح التي هيمنـــت عليه من ابتدائه الى انتهائه والنظام الذي كفلته بلادك ـ شعبي العزيز ـ لسير جلساته ، وما هو ملكـــك وراعيك وقد قلده المؤتمر مسؤوليـــة الرئـــاسة الاسلامية يستعين بالله على النهوض باعبائها ويعتمد على ما عهد فيك من مؤازرة وتاييد .

شعبي العزيـــز :

ان الاعمال العظيمة التي حققها جلالة والدنـــا محمد الخامس رضي الله عنه وارضاه ، وان ما لاقاه في سبيل انجاز هذه الاعمـــال وتحقيقهـــا ، وان التضحيات التي اقتضت ظروف نضاله ان يبذلهـــا بسخاء كل هذا ماثل لابصارنا وبصائرنا حاضـــر في قلوبنا وذاكرتنا ، نراه ونشعر به في سائر ايام حياتنا باعتزاز واكبار . واذا كانت ذكرى والدنا جلالة محمد الخامس طيب الله ثراه تلازم صباحنا ومساءنا فان روحه في هذا اليوم الذي استخلفنا الله في مثلـــه منذ ثلاثة وعشرين عاما على عرش اجدادنا الاماجـــد لاقوى حضورا بيننا واكثر ملازمة لنا ومشاركـــة . وانا اذ نسال الله العلي القدير في يوم مسرتنا هذه واعتزازنا ان يجازيه احسن الجزاء واوفاه على مـــا قدمه لوطنه واسداه من الايادي البيضـــاء الباقيـــة الخالدة لنتضرع اليه سبحانه ان يغمره بعظيم رحمته وغفرانه ويجله بجزيل كرمه ورضوانه ويبوئه في دار

الخلود فسيح جناته ويلحقه بالذين انعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

شعبي العزيز :

منذ عهد قريب فقد المغرب بوفاة شقيقنا صاحب السمو الملكي الامير مولاي عبد الله احد ابنائه الابرار . وقد كان لانتقاله الى جوار ربه الوقع الشديد في نفسنا ونفوس المواطنين اجمعين .

ان الامير الذي أسهم اسهاما كبيرا في حياة البلاد الوطنية واشتهر بين اخوانه المغاربة بسجاياه العديدة ومزاياه لجدير بان تظل ذكراه حية في الافئدة والخواطر . ونسال الله مبتهلين في هذا اليوم المبارك أن يهب له واسع الرحمة والغفران وينعم عليه بالخلود في جنة الرضوان .

شعبي العزيز :

ان احتفالنا بعيد جلوسنا على عرش آبائنا وأجدادنا الكرام فرصة سعيدة مواتية نغتنمها لنبعث تحياتنا وتحياتك الخالصة الى قواتنا المسلحة الملكية وقوات الدرك والامن والقوات المساعدة المرابطة بصحرائنا المتصدية باستمرار للعدوان الذي يتطاول به خصوم وحدتنا الترابية على ارضنا وسيادتنا . وان قواتنا هذه التي تواجه منذ سنين بقيادتنا غارات المعتدين وتحبط هذه الغارات وتصدها بشجاعة فائقة وبطولة سار بذكرها الركبان لتستحق منك – شعبي العزيز – ومنا كل اشادة وتنويه . واننا اذ نعرب لها عن عطفنا الابوي الكبير وعن سابغ رضانا لنوجه اليها باسمنا وباسمك عبارات اكبارك واكبارنا لما تواليه من بذل وتسترخصه من تضحيات تسمو احيانا الى اسمى قمم العطاء . والله المسؤول ان يمد بسنده وعونه قواتنا الواقفة في الصحراء سدا منيعا وحصنا حصينا الذائدة عن ترابنا بتفان واستماتة وهو المسؤول كذلك ان يشمل بكريم رحمته ومغفرته شهداءنا الابرار ويسكنهم فسيح جناته مع المجاهدين الاخيار .

شعبي العزيز :

الآن وقد اوشكنا ان نفرغ من هذا الخطاب يداخلنا الشعور العميق بان الجهود التي نصرفها متضافرين متآزرين ستفضي بنا ان شاء الله في الغد القريب كما افضت بنا مثيلاتها بالامس الى ما نتطلع اليه من اهداف وغايات ، ويصاحب شعورنا هذا أمل وطيد مقرون بالاعتقاد ان الله الذي لم يحرمنا طرفة عين من تعزيزه وهدايته سيواصل لنا عوارفه والاءه بتذليل العقبات والصعاب التي لا تعترض سبيل القاعدين الخاملين وانما تنمو وتزدحم في طريق الذين يجدون عاملين متحركين طامحين غير متواكلين ولا متوانين .

وإذا كان نجاحنا ونجاح بلادنا موقوفين على الآصرة الدائمة الوثيقة الموشجة بين قلوبنا الموحدة لرغائبنا وارادتنا فانهما موقوفان كذلك على ما يجب ان يطبع أعمالنا من مزايا الجد والتبصر والوعي في كل لحظة من لحظات حياتنا وفي كل ناحية من نواحي تصرفنا .

ان بلدنا الذي تضرب جذوره وأعرافه في أعماق التاريخ بلد متحضر مهذب بحكم تربيته الاسلامية وتجاربه الطويلة وعاداته وتقاليده . ولكي يظل بلدا متحضرا مهذبا يتعين علينا ان نرعى رصيدنا هذا رعاية لا تتساهل ولا تتهاون ونضيف اليه بالاكتساب والاستيعاب من الثراء والغنى ما يناسبه ويلائمه لا ما يعارضه ويناقضه . ثم اننا شعب يتمتع افراده بالحريات المكفولة لهم دستوريا وقانونيا ويمارسون هذه الحريات التي اصبحت بفضل كفاح والد الامة المغربية جلالة محمد الخامس رضوان الله عليه التي اصبحت بفضله وبفضل كفاحنا جميعا مكاسب قارة لا ينازع فيها منازع ، وبلادنا التي تعيش في ظل سيادة القانون وتخضع حياتها العامة لنظام الملكية الدستورية منذ اكثر من 20 عاما .

ان بلادنا تؤمن بالديمقراطية كعقيدة وتمارس هذه الديمقراطية على صعيد جميع المؤسسات التي انشاناها انطلاقا مع احكام الدستور بيد ان هذه الحريات وهذه الديمقراطية اذا نحن اردنا ان تؤدي لمجتمعنا الخدمات النافعة الضرورية ينبغي ان نصب فيها المدلول الذي يعصمها من الشطط والفوضى والذي يجعل منها عاملا من عوامل النمو ، نمو الفرد وثرائه الفكري والروحي .

فالحرية الصالحة هي الحرية التي يبقى معها للافراد والجماعات الاحساس بالواجب والمسؤوليات والقدرة على الاختيار المستقيم وعلى التمييز والموازنة بين المنافع والمضار . والحرية الصالحة بعد هذا هي الحرية التي لا تضيع معها الشخصية ولا تذوب في غيرها .

وان أوجب ما يجب علينا نحن الذين نعيش منفتحين على جميع التيارات متلقين بصدر رحب لجميع الحركات الفكرية ان ناخذ ونستقي عن بصيرة وبينة ونحتاط لانفسنا حتى لا يفلت من يدنا زمام الاختيار السليم وحتى لا تعصف رياح هذه التيارات وهذه الحركات بانفس ما نملك وهو اصالتنا الثقافية والحضارية . واصالتنا هذه قوامها كتاب الله العزيز وسنة نبيه الغراء واللغة التي نزل بها الوحي ومذهب اهل السنة والجماعة الذي هو مذهب السماحة والاعتدال والصفاء . وهذه الاصالة التي اتسعت على امتداد اطوارنا وعلى امتداد اطوار تاريخنا المعاصرة ومعايشتها لا تضيق الآن صدرا بالمعاصرة النظيفة بل تتسع لها أيما اتساع وترحب بها أيما ترحيب . وما دامت أصالتنا الاسلامية التي اينعت في ظلها العلوم والفنون وازدهرت بها وفي احضانها حضارة يعدها العارفون من أزهى الحضارات وأرقاها هي المعين الذي نستمد منه أبرز وأغلى ما تمتاز به هويتنا وشخصيتنا . فان علينا ان نجتهد باستمرار تعزيزا لجانبها وتمكينا واكتشافا واكتناها لما تزخر به من أسرار واخلاق .

ان علينا أيضا ان نؤمن لها باستمرار الاسباب التي تقيها شر التفريط والاهمال وتصونها من كيد الكائدين واعتداء المعتدين ، فاذا انفصمت لا قدر الله في نفوسنا عرى أصالتنا لسبب من اسباب التضاؤل والاضمحلال ، وانقطع ما هو موصول بيننا وبينها فاننا سنصبح حينئذ وقد ضاعت الذاكرة واستحالت الملامح وشاه الوجه وصوحت رياض الوجدان كالمنبث لا ارضا قطع ولا ظهرا ابقى . ان الحرية - شعبي العزيز - نعمة كريمة وهبة من الله خولها ايانا لنسخرها بالتمييز والاستبصار لفائدة نمو العقل والنفس ورقي الانسان . فهي وسيلة من وسائل العلاج واداة من ادوات الخير . واخلق بالانسان ان يستعملها الا فيما يدرأ عنه المضار ويجلب له المنافع. واخلق بك - شعبي العزيز - ان ترعى ما كتب لك الله من عراقة واصالة وتصون أركان هذه العراقة وهذه الاصالة وتمكن لدعائمها في نفسك وحواليك .

لقد عاشت بلادك منذ ان تفتحت للاسلام مستظلة بظلال القرءان المجيد والسنة النبوية الشريفة متمسكة بمذهب السنة والجماعة وحققت في هذا الاطار الخصب الثمين ما شاء الله ان تحقق من اعمال جليلات ومكاسب فاخرات .

فالى الله نتوجه في هذا اليوم الاغر الايمن الموسوم بالفرح والاستبشار ان يحفظ الاصرة التي تجمعني واياك ناضرة وثيقة ويديم اعتصامي واعتصامك بحبله المتين وكتابه المبين وسنة نبيه الامين خير البشر اجمعين انه بالاجابة قمين .

((قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم)) . صدق الله العظيم .

والسلام عليكم ورحمة الله .

مفهوم التكافل في الإسلام

وأسسه النظرية

للدكتور ممدوح حقي / (مقديشو)

تعتمد البلاد الاسلامية على رقعة من الارض ، واسعة فسيحة ، تنهد من أقصى غرب افريقيا لتحط على اقصى شرقي آسيا بطول ينوف على عشرات الآلاف من الاميال ، وبعرض لا يقل عن ذلك الا قليلا ، وبمساحة تبلغ الملايين من الاميال المربعة ، يقطن بها مليار انسان مسلم موحد ، يشهدون ، بأن لا اله الا الله ، وبأن محمدا رسول الله ، يتلون القرآن الكريم كما انزل منذ ألف واربع مائة سنة ، تصديقا لقول الله تعالى فيه : « **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون** ». يتعالى اذانهم بلغة القرءان من فوق مآذنهم ومناراتهم خمس مرات في اليوم ، الله أكبر ، الله أكبر ، ويتردد صداه في اوربا وامريكا واوستراليا ونيوزيلاندة ، والجزر وحيث ينتشر المسلمون من ارجاء العالم الوسيع . والمنطقة التي يحتلها المسلمون منطقة استراتيجية وسط العالم ، تتمناها أي دولة عظمى ويسيل عليها لعاب القوى المتصارعة في الغرب والشرق لما فيها من كنوز وركاز ، ولما في تفاوت تضاريسها ما بين اعلى جبال الدنيا الى ادنى مستوى عن سطح البحر ، والى سهولها وغاباتها وغوطاتها وتدفق اعظم انهار الدنيا على وجهها وتنوع انتاجها الزراعي بكل ما في العالم من نبات واشجار وفاكهة وأخشاب . والى اغزر المراعي بقطعان الماشية والى مفاتيح الطرق التجارية الدولية، وبحارها ومضايقها وما تغل من ثروة مائية في مستطاعها ان تفي بحاجة البشر كافة ، والى نفطها الذي يحرك مصانع الدنيا ومعاملها وآلاتها وسياراتها وقطاراتها وبواخرها وبوارجها وطياراتها ... ويدفئها في صبارة القر ويروح عنها حماوة القيظ اللاهب ... ومع كل هذه المزايا في بلاد الاسلام فان اكثرهم ما زالوا يعيشون عيشة الكفاف هي الى المجاعة أقرب يقتلهم الفقر والجهل والمرض والبداوة حتى أصبحت هذه العلل علما عليهم .

دولهم متعددة ممزقة تتعادى وتتحارب وتترامى على مباذل الغرب وسواته او ترسو على شطئان الالحاد في الشرق وسيئاته ، يسترحمون ويستعطفون حرياتهم من هذه ومن تلك ، وينبذون اوامر دينهم الذي يدعو الى الكرامة والاعتزاز بالله وحده .

« **الذين يتخذون الكافرين اولياء من دون المؤمنين ، ايبتغون عندهم العزة ؟ فان العزة لله جميعا** » (النساء 139) . ولقد حار العلماء والصلحاء والمخلصون فيما هم فيه ، وتداولوا الآراء وتدارسوا الاوضاع وعقدوا الندوات والمؤتمرات واجتمعوا مئات المرات ... ولكنهم لم ينتهوا الى حل حاسم . اجتمعوا على تفاوت وتفرقوا على تنابذ ، وان كان أكثرهم يعلنون بأن السبب الرئيسي لهذا

الوضع المحزن هو تباعد المسلمين عن حقيقة دينهم وجوهره !! .

فما هو جوهر الدين الذي تباعدوا عنه ونبذوه؟! ويقف في مواجهتهم زعماء آخرون ينكرون عليهم رأيهم هذا ويدعون بان لتاخر المسلمين اسبابا أخرى دنيوية لا علاقة لها بالدين . بل يذهبون الى ابعد من ذلك فيدعون الى فصل الدين عن الدولة فصلا تاما ليتسنى للمسلمين اللحاق بركب الحضارة والتقدم في مضمارها ، فأي حضارة هذه التي بها سيلحقون؟!(1) .

يسوقنا البحث هنا مرغمين الى الموضوعات التالية ، لنصل منها الى تصور المجتمع الاسلامي المثالي ، المجتمع المتكافل المتعاون المتضامن :

أ ــ هل الاسلام دين تعبدي افرادي لا مجتمعي ، منفصل عن الدولة ؟

ب ــ ما أوجه الشبه بين المجتمع الاسلامي والمجتمع في سواه من الديانات ؟ وما هي أوجه الخلاف ؟

ج ــ هل المجتمع الاسلامي مغلق على نفسه ، أم هو مجتمع مفتوح على العالم ؟

د ــ هل المجتمع الاسلامي مجتمع هادف بناء متكافل أم هو مجتمع تراجعي متفكك

1 ــ هل المجتمع الاسلامي دين تعبدي لا مجتمعي ؟

اسفرت الحرب العالمية الاولى (1914 ــ 1918) عن تمزق الامبراطورية العثمانية وانهيارها انهيارا تاما محزنا ، حتى تجرات عليها احقر دولة أوروبية اذ ذاك (اليونان) فاستولت على الساحل الغربي من لب بلاد الترك (الاناضول) ، وتقدمت الجيوش الفرنسية من جنوبها في كليكيا ، وتغلغلت الجيوش الروسية من الشرق فاجتاحت وان وقارص وأردهان وارضرو ، وتديعت الجيوش البريطانية في العاصمة استنبول ، ووقع خليفة المسلمين في قبضتهم وهو الذي كان يحمل الالقاب العظمى الضخمة : (سلطان البرين وخاقان البحرين وخادم الحرمين الشريفين : الخ) ووجد المسلمون انفسهم أضيع من الايتام على مادبة اللئام ، تستعمر الدول الاوروبية بلادهم استعمارا استثماريا وبشريا ، وتقودهم الى الهاوية كما تقاد النعاج الى المذبح ، واخذهم ذهول المفاجاة وكانهم اصبحوا مشلولين عن أي حركة لا يدرون ما يفعلون ... وفجاة ، ظهر في الاناضول بطل وطني يقود الجيوش التركية الحافية الجوعى من نصر الى نصر تحت راية الاسلام فيطرد اليونان من ازمير ويسترجع استنبول من الانجليز وكليكيا من فرنسا والاناضول الشرقي من روسيا ، بعد ان قذف بالجيوش اليونانية الى البحر ... فارتفعت معنويات المسلمين الى الذروة وتساقطت عليه المعونات المالية ورسائل التأييد ودعوات الائمة في المساجد، والمقالات المؤيدة في الصحف ، والخطب في النوادي ... وصوره الشعراء بطلا اسلاميا عظيما ، وقرنوه بخالد بن الوليد وصلاح الدين الايوبي ، وانشد امير الشعراء (احمد شوقي) قصيدته العصماء :

الله اكبر كم في الفتح من عجب
يا خالد الترك جدد خالد العرب

لكن ــ وا اسفاه ــ لم يكد البطل يستكمل النصر النهائي حتى تنكر لمن ايدوه وآزروه من المسلمين ، ودعوا له وساعدوه ، فأعلن الغاء الخلافة (يوم 3 ــ 3 ــ 924) وطرد الخليفة من استنبول وارغم شعبه على التزين بالزي الاوروبي ونبذ الزي الوطني ، وحرم الاعتمار بالعمائم واتخذ الحروف اللاتينية مكان الحروف العربية للغته والف لجنة لتتريك كل حرف عربي منها مع ان ثلث اللغة التركية مركب من الفاظ عربية ، وقطع آخر جذوره من الاسلام والعرب والقرءان وامر المؤذنين ان ينادوا الى الصلاة بالتركية : (تانرى بيوكدر ، تانرى بيوكدر)، بدل : الله أكبر الله أكبر . فاذهل العالم الاسلامي بهذه الجراة الوقحة ، وندم من كان اعانه بالمال ، وهجاه من كان مدحه من الشعراء وتصدى له احمد شوقي نفسه فقال :

---

(1) انظر كتاب الامير شكيب ارسلان : « لماذا تاخر المسلمون وتقدم غيرهم » .

عادت اغاني العرس رجع نواح
ونعيت بين معالم الافـــراح

ضجت عليك مآذن ومنابـــر
وبكت عليك ممالك ونـــواح

الهند والهة ومصر حزينـــة
تبكي عليك بمدمع سحـــاح

والشام تسأل والعراق وفارس
أمحا من الارض الخلافة ماح ؟ !

وبينما الناس في غمرة هذا الحزن ، طلع عليهم في مصر عالم ازهري بكتاب اطلـق عليـه اسم : « الاسلام واصول الحكم » يدعو فيه الى فصل الدين عن الدولة ، والى محو الخلافة واجتثاثها من جذورها ويدعي بانها الاصل في بلاء المسلمين ، وليس لها في القرءان ولا في الحديث من سند ، وان جميع الذين ادعوا الخلافة بدأ من ابي بكر الصديـــق الى نهايـــة السلسلة العثمانية كانوا ملوكا مستبديـن طاغيـن استخدموا الدين لمكاسب دنيوية .. الخ . ذهـل المسلمون مرة اخرى لان كتاب الشيخ جاء بعد نكبة الخلافة في تركيا وكأنه فتوى تأييدية لما صنعه كمال اتاتورك وهو ما كان المستشرقون الانجليز بخاصـة يحاولون ازالته في افهام المسلمين ... وتداولـوا امر هذا المرتد الذي يقف الى جانب خونة المسلمين والمستعمرين ، وبريطانيا منهم بصورة خاصة ، وهي اعدى اعداء الاسلام ، وأول من هاجم الخلافة وقطع صلات المسلمين بالخلفاء العثمانيين في الهند ومصر وعدن وشرقي افريقيا وسواها ممـــا كان تحـت سيطرتها الاستعمارية .

وعقد علماء الازهر محكمة حكمت بطرده مـن زمرتهم ... وهاجمت الصحف المتزنة غير الحزبية، والفت ضده كتب ردت عليه شبهاتـــه وصححـت اخطاءه ... ودافع عنه اصحابه وحزبه . اشهر مـن هاجمه الشيخ رشيد رضا في مجلته المنار وهو من انبغ تلاميذ الشيخ محمد عبده ، ومحمد شاكر وكيل الازهر السابق ، والاديب السياسي أمين الرافعي .. واشهر من دافع عنه حسين هيكل باشا وعبد العزيز فهمي باشا ولطفي السيد باشا . واشهر الكتب التي ظهرت بعده بعام واحد (1926) كتـاب « حقيقـة الاسلام » للشيخ محمد بخيت مفتي الديار المصرية ، وكتاب « نقض كتاب الاسلام واصول الحكم » للشيخ محمد الخضر حسين شيخ الازهر بعد ذلك . وكانت حصيلة هذه العاصفة : سقوط الوزارة وانفراط عقد الحزبين المتشاركين في الحكم ، حتى قيل : ما جاء كتاب مثير مثله في القرن العشرين ... ولكن هذه العاصفة لم تهدأ الا لتثور من جديد بعد بضع سنين ، اذ طفق بعض الصحفيين يتخذونه وسيلة للشهرة او للهجوم على الاسلام ، ويصورون الشيخ بطـلا مـن ابطال الفكر الحر ويدعون انه وقف وحده في وجـه الملك والانكليز ... وهم في الغالب من اليساريين المتطرفين . ويرد عليهم المؤمنـون البناءون بمـا قدرهم الله عليه من علم متزن . مثال ذلك كتـاب احمد بهاء الدين « ايام لها تاريخ » (1954) والـرد عليه بكتاب الدكتور محمد ضياء الدين الريس « نقد كتاب الاسلام واصول الحكم ، الاسلام والخلافة في العصر الحديث » ، وحاول بعض المشتبه باخلاصهم اعادة نشر كتاب الشيخ في لبنان لتوزيعه في العالم العربي ، فما كان اسرع ما رد عليهم الدكتور ممدوح حقي بكتاب « الاسلام واصول الحكم » نقد وتعليق ، (1966) حتى توقفوا فجاة وارتحلوا خاسئيـن . ويمكن تلخيص آراء الشيخ بما يلي : الدعـوة الى الهدم ،هدم الخلافة ومنع الجهاد وفصل الدين عـن الدولة ... كما يمكن تلخيص آراء المؤمنيـن : بأن الامامة (الخلافة) قامت باجماع المسلميـن ، وان الجهاد ركن أصيل من اركان الاسلام بدليل قول الله تعالى: **« اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير »** (الحج 39) . **انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا باموالكم وانفسكم في سبيل الله** (التوبـة 41) . **كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى ان تكرهـوا شيئا وهو خير لكـم** (البقـرة 219) . **وقاتلـوا المشركين كافة كما يقاتلوكم كافة** (التوبة 36) . **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيـل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم** (الانفـال 60) ... وجاء في الحديث قوله صلى الله عليـه وسلـم : **« مقام الرجل في الصف في سبيل الله خير من عبادة ستين سنة »** . وقوله : « **لا تحضر الملائكة من اللهو الا ثلاثة : لهو الرجل مع امرأته ، واجـراء الخيـل والنضال** » (رواه الحافظ الذهبي عن آخر طبقـات الحفاظ باسناد الى ابي أيوب الانصـاري) . قـال الزهري : كانت المسابقة بين اصحـاب رسول الله

صلى الله عليه وسلم بالخيل والركاب والارجل ، لان الغزاة يحتاجون الى رياضة خيلهم وانفسهم والتعليم للكر والفر ... بنى الزهري قوله هذا على اذن الرسول صلى الله عليه وسلم لسلمة بن الاكوع ان يسابق رجلا انصاريا كان لا يسبق ، فسبقه سلمة بن الاكوع .

وكذلك حرم الرسول المراهنة الا على السباق ورمي النبال .

وفي سيرته صلى الله عليه وسلم وحروبه في سبيل الله خير دليل عملي على تأيد الجهاد لتاسيس دولة اسلامية دستورها القرءان وشعارها التوحيد، والايمان برسل الله جميعا وبخاتمهم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

واما دعوة الشيخ لفصل الدين عن الدولة ، فخير جواب عليها : سيرة سيد المرسلين بعد هجرته الى المدينة وبعثه معاذ بن جبل واليا وقاضيا ومفقها بالقرءان وعلي بن ابي طالب كذلك وسواهما . وجمعه الصدقات وصرفها في وجوهها العادلة ، وكان هو نفسه صلى الله عليه وسلم اماما ورئيس دولة وقاضيا في آن واحد . وتأييد القرءن الكريم له في كل ذلك : **« يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم »** (النساء 59) **« واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »** (النساء 58) . **« كنتم خير امة اخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر »** (آل عمران 110) . فهل بعد هذا ــ وهو قليل من كثير ووشل من بحر ــ من يجرؤ على القول بفصل الدين عن الدولة ؟ !

واما قوله : « بأن الاسلام لم يغير في المجتمع العربي شيئا » فما جوابه فيمن حول العرب من مجتمع قبلي ممزق الى امة متحضرة بسرعة لم يعرف التاريخ لها مثيلا ، ومن تفرق الى وحدة ، ومن جهل الى علم وايمان ، ومن ضعف الى قوة ، وبناء حضارة اضاء نورها الوهاج ظلمات القرون الوسطى واخرج البشرية كلها من الظلمات الى النور ... انه لا ينكر ذلك الا جاهل جاحد عنيد . وحرم عليهم الربا وكان يفتت مجتمعهم ويخلق الى جانب القلة من الاغنياء المترفين ، طبقة الفقراء المعدمين والصعاليك وقطاع الطرق وما يتبع ذلك من قلق اجتماعي وعدم استقرار . ومنع عنهم بعض الاطعمة المضرة بصحتهم كالميتة ولحم الخنزير، وبعض الاشربة كالخمر والدم، ووقفهم عن واد بناتهم وقتل اطفالهم خوف العار او خشية الفقر ــ كما يدعون ــ **« ولا تقتلوا اولادكم من املاق ، نحن نرزقكم واياهم »** (الانعام 151) . **« ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم »** (الاسراء 31) . ومثل ذلك كثير ، فكيف يمكن ان يدعي بأن الاسلام لم يغير في العرب شيئا ؟ !

ب ــ اوجه الشبه واوجه الخلاف بين الاسلام وسائر الديانات :

كان لا بد من عرض ما تقدم لنثبت بأن الاسلام دين اجتماعي لا دين تعبد فردي كالبرهمية والبوذية والمسيحية والكونفوشيوسية (2) ... فالمسيح اكد على أن دينه فردي تعبدي حين قال : « اعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » (انجيل متى اصحاح آية 21) والبرهمية والكونفوشيوسية والبوذية وسواها . تعزل الفرد عن المجتمع وتدفعه الى الرهبنةوالفقر والتسول ليكسر نفسه كسرا ويعودها الزهد والتواضع (2) وكانت كلمة عيسى عليه السلام

---

(2) جاء في القرءان الكريم قوله تعالى : **« ولقد ارسلنا رسلا من قبلك ، ومنهم من لم نقصص عليك »** (غافر 78) وقوله جل وجل : **« ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك »** (النساء 164) ، افلا يمكن ان يكون هؤلاء (براهما وكونفوشيوس وبوذا) رسلا جاءوا بالخير لشعوبهم ثم فسد اتباعهم من بعد هم وبدلوا اسس دياناتهم وعبدوا غير الله ؟ !
وانما شبه دليل على ذلك باليهود الذين لم يبعد عنهم موسى غير اربعين ليلة حتى تركوا عبادة الله وعبدوا العجل « **ثم اتخذتم العجل من بعده وانتم ظالمون** » (البقرة 51 ــ 92) . « **يا قوم انكم ظلمتم انفسكم باتخاذكم العجل** » (البقرة 54) «**قالوا سمعنا وعصينا واشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم** » (البقرة 193) « **ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات** » (النساء 153) ، فالامر من الوجهة العقلية مقبول ، اما السند التاريخي لاثبات نبواتهم فمعدوم .

حاسمة في انقلاب الدين المسيحي الى دين كهنوتي ، اقل ما فيه شعور الفرد بالنقص الدائم والخطيئة الابدية والتذلل والاعتراف أمام الكاهن بالذنب كان الكاهن وكيل الله على الارض يمنحه الغفران على ما اجترم ، فيخرج من غرفة الاعتراف وقد غسل ذنبه ليعود فيرتكب اثما آخر ما دام القسيس موجودا ومستعدا لغفران ذنوب الخاطئين وفتح ابواب الجنة لهم !! وقد قبلت المسيحية توراة اليهود كتابا مقدسا كأنه كلام الله تعالى ، مع انها كتبت على مدى 1400 سنة ، وكتبها أحبار اليهود بدءا من وجودهم في اسر بابل ، وفيها من القصص الخرافية والاساطير والفسوق ما لا يمكن ان يصدر عن نبي حتما .

اما القرآن الكريم فقد جمع بين الدنيا والآخرة فقال: **« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا »** (القصص 77) **« قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا »** (الاعراف 32) .. **« المال والبنون زينة الحياة الدنيا »** (الكهف 46) . **« يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد »** (الاعراف 31) . ان جميع الديانات تدعو الى الله تعالى بطرق مختلفة ، ولكن هدف جميعها واحد هو : خير الفرد في دنياه ونجاته في آخرته ، والدين الاسلامي كذلك ولكنه لا يكتفي بالوقوف عند هذا الحد بل يدعو الى خير الفرد والجماعة والدولة والانسانية كلها في الدنيا والآخرة . انه يجعل من المجتمع الاسلامي مجتمعا مؤمنا واقعيا وكتلة متماسكة تهدف الى خير البشرية جميعا وبناء حضارة نبيلة تدعو الى السلام الابدي . فالفرد الصالح حجر الزاوية في بناء اسرة طيبة . والاسرة نواة المجتمع الصغير في القرية او المدينة ، والمدن اساس الدولة ، تتعاون كلها تعاونا متساعدا متكافلا متقابلا متضامنا لدفع الشر والنكر وجلب الخير للمجتمع . قال الله تعالى : **« كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »** (آل عمران) . وجاء في الحديث الشريف : **(من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه، فان لم يستطع فبقلبه،وذلك اضعف الايمان).** وعلى هذا فبامكاننا الادعاء بوجود مجتمع مسلم له صفات معينة وميزات خاصة . هو مجتمع حقيقي واقعي على حد تعريف العلماء للمجتمعات . ولا يمكننا الادعاء علميا بوجود مجتمعات للديانات الاخرى ، بل نعترف لها بوجود تجمعات لا تنطبق عليها صفات المجتمع المتكافل الهادف كالاسلام .

ج ـ هل المجتمع الاسلامي مجتمع مغلق ؟

منذ ان سيطر الاستعمار على بلاد الاسلام سيطرة فعلية في القرون المتاخرة ظهرت كتب جريئة في نقد الدين الاسلامي ووصفه بانه مجتمع مغلق يجب كسره كما يكسر الجوز ليرى ما فيه . وتجرأ المستشرقون الصليبيون والكتاب الكارهون للاسلام واعداء الحضارة الاسلامية فاخذوا ينشرون آراء غامضة حول الاسلام اكثرها اكاذيب وادعاءات ليس لها من الحقيقة والصحة نصيب ، وكان بعضهم صريحا وقحا في عدائه كسيلفستر دوصاص ولامانس وبعضهم دساسا مواربا كماسينيون . غير اننا نستطيع ان نجملهم كلهم في اطار واحد هو العداء الحاقد للاسلام ومحاولة هدمه بشتى الوسائل . ولعبت السياسة دورها في هذا المضمار فشدت فرنسا وهولاندا وبريطانيا حربا دعائية عنيفة ضد المسلمين . وعملت بريطانيا بخاصة على هدم تمحورهم حول قطب الجهاد في سبيل الله . واوجدت من المسلمين الخلافة مركز تجمعهم الروحي وتثبيط همتهم عن الخونة ـ مع الاسف ـ انبياء دجالين يدعون الى نبذ الجهاد والخمول والتفكير الدائم بالخرافات والاساطير على انها حقائق دينية ... كالذي اطلق على نفسه لقب المسيح الموعود (احمد القادياني في الهند) والباب في ايران الذي اصبحت ديانته البهائية ذات مكانة اليوم ما بين سخفاء الامريكيين . حتى ادعى الربوبية والتف حوله اتباعه وحموه واوجدت فرنسا في سوريا نبيا جديدا ما زال يترقى ومنعوا السلطة السورية بعد الاستقلال ان تصل اليه واعتصموا به في الجبل قرب اللاذقية ، غير ان الحكومة السورية استطاعت استنزاله من معتصمه وحاكمته بتهمة الخيانة وحكمت عليه بالاعدام شنقا !! كل هؤلاء الانبياء المزيفين كانوا يصرون على ان الاسلام لا علاقة له بكل ما اسس من حكومات باسمه كالخلفاء الراشدين والامويين والعباسيين وان الجهاد كلمة اختلقها هؤلاء الزعماء او الملوك لمآربهم الدنيوية فقتلوا وسبوا وجمعوا الاموال وتمتعوا بالنساء وسيطرة الملك وابهة السلطان ... فحركة

كمال اتاتورك عام 1924 وكتاب علي عبد الرازق عام 1925 والمستشرقون والصليبيون والصهاينة ومن يدور في فلكهم من المسلمين المتخاذلين او المرتدين الملحدين ... هذه الموجة الطاغية يثيرها اعداء الاسلام بين فترة واخرى ودعواهم بأن الاسلام مجتمع مغلق ويجب ان يعود كما انشيء – على حد دعواهم – دينا تعبديا اخرويا يبتعد به المسلمون عن تأسيس الحكومات باسمه ، وعليهم أن يلتزموا المساجد والتكايا والزوايا ويتركوا الدنيا لاهل الدنيا والسياسة والحكم لمن حكم ... !! ونحن نرد عليهم بما يلي :

1 – ان تكتل المسلمين في انحاء العالم ردا على تخرصاتهم وبوعي صاح جدا يعتبر ردا عمليا على وجود المجتمع المسلم الفاهم المدرك لمعنى الدين على حقيقته .

2 – الخطب والمقالات والمؤلفات التي فندت مزاعمهم وكلها مبنية على اسس علمية صحيحة دليل على ان هذا المجتمع حي مدرك لما يجول في الفكر العالمي من تطورات .

3 – لم يقم المسلمون بأي جهد تبشيري ومع هذا فالذين يدخلون في الاسلام كل عام لا يمكن احصاؤهم ومنهم بعض اكابر العلماء والمستشرقين المشهورين بانصافهم كموريس بوكاي ، وبعض الشيوعيين العنيفين كروجيه غارودي .

4 – الصهاينة الذين انشاوا اسرائيل بمساعدة الدول المسيحية الكبرى ماديا ومعنويا وسياسيا ودبلوماسيا ... اليسوا مجتمعا مغلقا حقا ؟ ! انهم يرفضون ايا كان عن الدخول في دينهم اليهودي ويعتبرون انفسهم شعب الله المختار ليحكم العالم ،وان الرب هو ربهم وحدهم ولا يسمحون لاجنبي ان يدخل كنيستهم فلماذا لا يصفونهم بانهم مجتمع مغلق ، بينما يفتح الاسلام صدره للعالم كله ويسمح لمن يريد بالدخول الى المساجد والاطلاع على صلوات المسلمين وقراءة قرآنهم والمجادلة فى دينهم ، ويتقبلون النقد بصدر رحب وعندهم أن من دخل في دينهم فعليه ما عليهم وله ما لهم بل له ملك الحق في ان يرشح نفسه لاي منصب حتى منصب الخلافة ، فهل هؤلاء يعدون مجتمعا مغلقا واليهود مجتمع مفتوح ؟ !

5 – اقوى دعوى يستند اليها اعداء الدين هي بان الاسلام قسم العالم الى قسمين :

دار الاسلام ودار الحرب ، ولو عقلوا قليلا لرأوا ان دار الاسلام يسكنها المسلم والذمي والمجوسي معا وللجميع ما للمسلمين من حقوق مدنية وقضائية ومالية واقتصادية ... ولا يحرم الاجنبي عن الاسلام الا من الحقوق السياسية التي هي من اخص خصائص الحكومة الاسلامية لا تصلها مباشرة بالسلطة والخلافة . وهذه الحقوق تشبه في كثير من الوجوه حقوق السيادة في الوقت الحاضر ، بل هي موسعة على الاجنبي في دار الاسلام اكثر مما هي في كثير من الدول القائمة ، ونحن في القرن العشرين ، قرن الحرية وحقوق الانسان كما يزعمون . فهل اذا كنت حاصلا على اذن الاقامة في فرنسا مثلا – وهي من اكثر دول العالم ديمقراطية – هل تسمح لي بالتدخل في شؤونها السياسية الداخلية ؟ هل تسمح لي بان اكون ناخبا او منتخبا حتى في اصغر قرية ؟ ان بعض الدول المعاصرة لا تسمح للاجنبي بحق تملك العقارات فيها بينما يتسامح الاسلام بهذا الحق لغير المسلمين في دار الاسلام . فلماذا اذن يهاجمون المسلمين ويدعون بأنهم مغلقون على انفسهم في مجتمع مبهم ، ويسكتون عن الخوض في الحديث اذا دار حول الدول المغلقة حقا كالصين والبانيا وروسيا وسائر الدول الشيوعية ؟ !!

د – هل المجتمع الاسلامي مجتمع هادف بناء متكافل أم هو مجتمع تراجعي مفكك ؟ !

كان لا بد للوصول الى معنى التكافل الهادف فى المجتمع الاسلامي من عرض هذه المقدمة الطويلة لاثبات وجود هذا المجتمع المتميز بصفات خاصة لا مثيل لها في اي مجتمع آخر . وليس فيما ندعيه هنا مبالغة ولا شطط ، وكل ما سنعرضه من آراء

ونظريات تؤيده آية من القرءان الكريم او حديث شريف – قولي او عملي – ولن نعرض لسواهما من اصول الفقه كالاجماع والقياس مثلا الا نادرا جدا ، لكي نبرهن على ان في قرآننا وحده الكفاية فهو دستور الدين الاسلامي والحديث شرح لهذا الدستور . لكن ما هو معنى التكافل مبدئيا ؟ ! لنرجع الى المعاجم فنسألها الوصف ولنستمع الى اجابتها :

يقال : كفل يكفل كفلا وكفالة فلانا : عاله وانفق عليه وقام بأمره .

كفل يكفل ، كفل يكفل كفلا وكفولا الرجل وبالرجل ، والمال وبالمال : ضمنه .

كافل مكافلة : حالف وعاهد .

تكافل القوم : كفل بعضهم بعضا .

الكافل : الضامن – القائم بأمر اليتيم – العائل .

الكفالة : الضمان .

الظاهر في معنى الكفالة المعجمي انها تتضمن ثلاثة معان هي : ا – القيام بأمر المكفول . ب – الحلف والتعاهد . ج – الضمان . واذا كانت الكفالة تشبه الضمان فما معنى الضمان معجميا ؟

يقال : ضمن يضمن ضمنا وضمانا الشيء وبه : كفله .

ضمن : غرم والزم .

تضامن الغرماء : ضمن بعضهم بعضا تجاه صاحب الحق . يقال : هم متكافلون متضامنون : اي لصاحب الحق ان يطلب حقه كله ممن أراد منهم او منهم جميعا .

الضامن : الكفيل والملتزم .

الضمان : التزام رد مثل الهالك ان كان مثليا ، او قيمته ان كان قيما ، ومن هذا المعنى يمكن ان نفهم الضمان الاجتماعي ، وهو ان يضمن المجتمع افراده ما يحتاجون اليه من نفقات تمريض وتعليم حتى زواج المعسرين وغير ذلك ... والضمانة الدولية ، وهي ان تضمن الدول الكبرى استقلال دولة من الدول الصغرى .

فالتكافل والتضامن اذا مترادفين على معنى واحد او على معنيين متقاربين جدا يسمح باستخدام احدهما مكان الآخر . **وصيغة التفاعل** هذه تدل على المشاركة من الجانبين المتضامنين المتكافلين وكلاهما يتضمن معنى الالزام ، أي لا يصح ان يكون الضمان او الكفالة من جانب واحد ، بل لا بد ان يتساوى فيها الطرفان المتعاقدان تعاقدا صريحا او ضمنيا ، ملفوظا او ملحوظا . وطرفا التكافل في الاسلام هما : كل فرد مسلم على حدة مقابل الفرد المسلم الآخر ، وكل فرد تجاه مجتمعه ، وكل مجتمع تجاه افراده منفردين ومجتمعين . وهو تكافل فسيح جدا متسع الى أبعد حدود الاتساع شامل كل امر من امور المعاش وواضح كل الوضوح لا ابهام فيه ولا غموض . فحين يرد في الحديث الشريف قوله : « **كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته** » و « **كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله** » يشمل جميع المسلمين لا يستثني منهم احدا . وفي القرءان الكريم آيات في التكافل لا حصر لها ، تحوم اكثرها حول الدعوة الى الخير والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وتقديم الصدقات والزكوات والانفاق على المحتاجين من رزق الله ... لتقريب الفاصل الاجتماعي المعاش ما بين مختلف طبقات الامة ، ودفعا للحقد الطبقي واتقاء ما ينجم عنه من جرائم . اليك امثلة منها دليلا عليها كلها : « **المؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض يامرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة** » (التوبة 71) . « **كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم او الوالدين والاقربين . ان يكن غنيا او فقيرا فالله اولى بهما فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا** » (النساء 135) .

التكافل في الاسلام : والاسلام يكفل المولود قبل ان يتخلق في رحم امه ، بل قبل ان يتلاقى ابواه بالزواج !! اترى ذلك عجيبا او مبالغا فيه ؟ انظر الى الحديث الشريف : « **تخيروا لنطفكم** » « **اياكم وخضراء الدمن** » لماذا يصر الرسول صلى الله عليه وسلم على هذا التخير والتحذير ؟ ! اليس ليعد للمولود اما خبيرة تعرف كيف تعني بمولودها وكيف تربيه تربية حسنة . اليست هذه الدعوة قائمة حتى اليوم ؟ فالمراة الشريرة مهما كانت جميلة

جذابة لا ينتج منها الا نسل مثلها يحمل صفاتهـــا ، جاء في القرءان الكريم قوله : « **ولأمة مؤمنه خير من مشركة ولو اعجبتكم** » (البقرة 221) . والمرأة غير المسلمة حتى ولو كانت كتابية فان اولادها ينجذبون الى دينها وعادات قومها واخلاقهم غير الاسلامية بحكم تعلق الاولاد بامهاتهم طبيعة ، او ليس ذلك ما يحصل في هذا العصر من زواج الشبان الذين يدرسون في ديار الغرب من بناتهم بعامل الانجذاب نحو الجمـــال الظاهري ؛ حتى اذا هدات عاطفة الحب الدافع لهذا اللقاء انقلبت العلاقة الى برودة وجفوة ، وافتقـــدت مثل هذه الاسرة سعادة الزوجية وآضت الى تعاسة وتفكـــــك .

ولم يكتف الاسلام بكفالة المولـــود تربويـــا واخلاقيا ، بل كفله صحيا كذلك . جاء في الحديث : « اغتربوا فلا تضووا » اي تزوجوا الغريبـــات عـــن اسركم وتركوا القريبا للاباعد ، حرصا على صحـــة المواليد الناتجة من هذا الزواج ، فقد ثبت علميا ان الزواج المتعادى من القريبات ينحـــدر بالنسل الى ضعف صحي وهزال وتعرض لاكثر الامراض .

وفي التزواج ما بين الاباعد نظرة اجتماعيـــة عميقة لا يفطن لها الا القليل ، فهو يقرب ما بين مختلف الاسر ويربطها رباط القرابة ويجعل من الانسباء اهلا فيعظم تماسك المجتمع ويتوسع نطـــاق التكافـــل والتعاون فيـــه .

وعنى الاسلام بالمولود فأمر بارضاعه مدة كافية ليصلب عوده ، وقد ثبت انه لا يعوض حليب الام اي غـــذاء آخـــر ، جـــاء في القـــرءان الكريـــم : « **والوالدات يرضعن اولادهن حولين كاملين لمن أراد ان يتم الرضاعة** » (البقرة 233) . وفي ارضاع الام طفلها امر آخر جدير بالتنويه ، فقد ثبت في علـــم النفس الطفولي وفي علم التربية ، ان الطفـــل الذي تحضنه امه وتضمه الى صدرها وترضعه من ثديهـــا يرتبط معها بعاطفة حنان جذاب ويشب ارق طبعـــا والطف خلقا واكثر قالبية للاندماج الاجتماعـــي مـــن الطفل الذي يلتقم الرضاعة الصناعية من كف خادم او مربية ، وبهذا تتكون اسرة مترابطـــة يحن فيهـــا الابوان على أولادهما ، ويصفو حب الاولاد لابويهمـــا ويقوم بينهم جميعا تعاون مشترك متين . ان نـــواة التكافل اذن تبدا منذ اللحظة التي يفكـــر فيها الاب والام باللقاء والزواج .

واذا فطم المولود ودخل في زمرة الطفولة التي تاخذ بالوعي ، يكفل الاسلام له تربية صحية وعقليـــة واخلاقيـــة ودينية فهو عهدة بين يدى ابويه وامانة لدى مهذبيه ومربيه . يقول الامام الغزالي في الاحيـــاء : (الصبي امانة عند والديه وقلبه الطاهـــر جوهـــرة نفيسة خالية من كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل ما ينقش عليه ومائل الى كل ما يمال اليه ، فان عـــود الخير وعلمه نشا عليه وسعد في الدنيـــا والآخـــرة وشركة في ثوابة ابواه وكل معلم له مؤدب ، وان عود الشر او اهمل شقى وهلك وكان الوزر في رقبة القيم عليه ورقبة من اهمله . ويتحتم ان يصان الصبي عن الآثام وان يعلم محاسن الاخلاق ويحفظ من قرنـــاء السوء ولا يعوده الوالي التنعم ولا يحبب اليه الزينة واسباب الرفاهية فيضيع عمره في طلبها اذا كبر) . وقد اوجز الغزالي جميع ما ورد من فكر في التربية الاخلاقية والدينية بهذا المقطع الصغير ، ولو اردنا التوسع والشرح لرددنا كل فكرة في قطعته الى آية كريمة او حديث شريف وما اكثرهـــا .. ويتوقـــع الاسلام ما يمكن ان يقع على الطفل فيحميه بآيـــة او حديث كوقوعه في اليتم مثلا يقول : « **فاما اليتيم فلا تقهر** » ، (الضحى 9) . « **أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم** » (الماعون 2) . ويدعو الى العطف عليه باطعامه واكسائه ورعايته .

« **ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا** » (الانسان 8) . « **أو اطعام في يوم ذي مسغبة يتيما ذا مقربة** » (البلد 15) وحفظ لليتيم ماله وحذر من الاعتداء عليه فقال : « **ان الذين ياكلون أموال اليتامى ظلما انما ياكلون في بطونهم نـــارا** » (النساء 10) . وامر برد ماله اليه حين يصبح قادرا على ادارتـــه : « **وآتوا اليتامى أموالهم** » (النساء 2) .

رد الجميـــــل :

ويتابع الاسلام هذا الطفل وهو ينمو برعاية الله رويدا رويدا حتى يشب ويستغنى في السعي لرزقه عن ابويه فيدخله الى المجتمع عضوا فعالا ويكلفـــه خدمته والعطف عليه كما خدمه هو من قبل فحفـــظ عليه صحته وخلقه ودينه وماله . ويأمره بالصدقـــة

والزكاة والانفاق على المحتاجين ردا للجميل الذي تلقاه وهو طفل ويافع وشاب : « **خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم** » (التوبة 103) « **انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها** » (التوبة 60) اما الزكاة فقد قرنها بالصلاة في نحو 32 آية فجعلها بذلك خدمة اجتماعية شبه تعبدية يتقرب بها الى الله كما يتقرب بسائر العبادات . ومن امثلة ذلك : « **واقيموا الصلاة وآتو الزكاة** » (البقرة 43) . « **الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة** » (المائدة 55) «**ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله**» (التوبة 71) . « **رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة** » (النور 37) .
واما النفقة فهي نوع آخر من رد الجميل تكافلا وتضامنا مع المجتمع ، والمال في الاسلام مال الله والناس موكولون عليه يحفظونه بامر الله ليفيدوا منه لانفسهم ولسواهم . وتدرج الامر بالانفاق على الوالدين اولا ثم الاقربين ثم اليتامى ... ولو طبق المسلمون هذا الامر حق تطبيقه لزال الفقر المدقع الذي تعانيه الامة ، وانتفت المجاعات الحزينة التي تجتاحهم بين كل فترة واخرى . قال الله تعالى : « **قل ما انفقتم من خير فللوالدين والاقربين واليتامى**» (البقرة 215) . « **وما انفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين** » (سبأ 39) . ونبه الى ان الانفاق يجب الا يتعدى حدوده والا انقلب الى اسراف وسفه : « **والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا** » (الفرقان 67) . وغالبا ما يرد الامر بالانفاق مصحوبا بالتذكير بأن المال مال الله والرزق هو معطيه ، فعلام يخاف المنفقون بذل مال الله ما دام هو قد تعهد باخلافه : « **الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** » (البقرة 3) . « **ويدرؤون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون** » (القصص 54) . ومجموع الآيات التي ورد فيها ذكر النفقة ومشتقاتها في القرءان الكريم 74 آية ، فاذا أضفنا اليها آيات الصدقة والزكاة رأينا عددا كبيرا يدعو فيه الاسلام بكتابه الكريم الى التواصل الاخلاقي بالانفاق تكافلا مع المجتمع بعمومه لرفع مستوى معيشة الفقراء والمعوزين وتقريب الشقة ما بين مختلف الطبقات مما يخمد من حقد الفقير المعوز على الموسر الممسك ، يؤيد ذلك اباحة التجارة وما فيها من ربح وخسارة وتحريم الربا تحريما قاطعا لما يخلق بسببه من تقسيم المجتمع الى طبقات بعيدة التفاوت منها الغنية الموسرة وهي الاقلية ومنها الفقيرة المعدمة التي ترزح تحت وطأة الربا وتعجز عن رد الدين فتتألم وتتحسر وتحقد وتنقلب الى طبقة مجرمة تستحل السرقة والنشل والخطف وقطع الطريق كما كان يحدث في الجاهلية ، واشتهر من هذه الطبقة العسيفة صعاليك سراق وقتلة ومجرمون كأبي النشناش والشنفري وتأبط شرا ... وقد أباح الاسلام للحاكم من مال الغني في حال الضرورة – خلاف الصدقة والزكاة – ما يرد به على الفقراء ليسد عوزهم .

انواع الضمان الاسلامي :

ويمشي الاسلام مع هذا الشاب الذي دخل المجتمع فعلمه كيف يتصدق ويزكي وينفق ويتاجر ويتأبى عن الربا ... وسمح له بالمشاركة الفعلية في سياسة دولته بانتخاب الامام وحاكم البلد تطبيقا لمبدأ الشورى ، فلا يشعر بغضاضة في تطبيق الاوامر الشرعية بل يطيعها عن رضا . لقد اصبح الآن رجلا كاملا يعطي ويأخذ ويشارك في الضمان المجتمعي والتكافل التكاملي في جميع فروع الحياة حتى لو طلب منه دمه للدفاع عن حوزة الامة لقدمه طبعا ، وكما ان له حقوقا فعلية مقابلها واجبات . ويمكن حصر الضمانات الاجتماعية في موضوعات معينة لتسهيل بحثها . ولعل اهمها ما يلي :

1 – ضمان طبيعي – ويتضمن حقه في الحياة والعيش والكسب والتناسل .

2 – ضمان اجتماعي – ويتضمن حقه في مستوى عيش معين وفي العمل والتداوي والتعلم وضمان العجز والشيخوخة .

3 – ضمان مدني – ويتضمن حقه في الحرية والثقافة وبناء الاسرة والتنقل والسفر محميا من الاعتقال او النفي او الحرمان من الجنسية بغير قانون ...

4 – ضمان اقتصادي – ويتضمن حقه في اختيار العمل الذي يفضله والاحتفاظ بحصيلة كسبه او ارثه .

5 ـ ضمان مالي ـ ويتضمن حقه في الملكية والارث .

6 ـ ضمان عدلي ـ ويتضمن حقه في اللجوء الى القضاء عند اللزوم والمساواة امام الشرع ودفع المعتدي عليه .

7 ـ ضمان سياسي ـ ويتضمن حقه في الاعتقاد بأي رأي سياسي شرط الا يضار الشرع واصوله وحقه في التوظف والمشاركة بسياسة بلاده على عمومها ضمن القوانين .

فهذا الضمان الذي يقدمه المجتمع للفرد ، يقابله الوفاء من الفرد للمجتمع ، فكما ان له حقوقا يطالب بها كذلك عليه واجبات يجب ان يؤديها ، بعضها ظاهر كالصدقة والزكاة والانفاق والضرائب المشروعة لمصلحة البلد ... وبعضها خفي غير واضح كسياسة الحكم مثلا ، فاشتراكه في انتخاب الامام يتضمن عقدا اجتماعيا بينهما ، احدهما ينتخب ويطالب بالحكم العادل ، وثانيهما يقبل الحكم ليخدم المجتمع خدمة صالحة ويطالب بالطاعة فيما أمر الله. يفسر هذا خطبة ابن بكر في السقيفة :

« اطيعوني ما اطعت الله فيكم ، فان عصيته فلا طاعة لي عليكم » ... هكذا سبق الاسلام جميع الشرائع والقوانين بالعقد الاجتماعي الضمني المتقابل reciproque بين الحاكم والرعية بأكثر من الف سنة . والآيات والاحاديث على جميع ما تقدم بتفاصيله اكثر من ان يحصيها عد . ولنأخذ العمل وحده وهو اقلها ففيه من لفظه ومشتقاته المنبثة في جميع سور القرءان نحو 362 آية ، فاين مكان العقد الاجتماعي الذي جاء به روسو Rousseau في هذه العصور الاخيرة عدوه من آيات العبقرية ؟ ينظر الاسلام الى التكافل الاجتماعي باوسع مما ينظر اليه التضامن الاجتماعي الحديث .

فتضامن الاسلام يقوم على قدمين هما : الواجب والمعروف اي على الشرع والاخلاق معا . بينما يتجرد التضامن الحديث من الاخلاقية ولا يتضمن الا الناحية القانونية . ولذلك اتهمه كثير من النقاد الاخلاقيين بانه وسيلة لهدم الاسرة لا لبنيانها. فقد قام مقام الاهل والابناء والاقرباء في رعاية المريض والعاجز والعامل الباهل (العاطل عن العمل) والشيخ العجوز ... لكن حرمه بذلك الحنان والحب والعطف الذي يمنحه اهله واولاده وهم يقومون بسد نفقاته ، ويرعونه برحمتهم وعطفهم جزاء ما رعاهم من قبل . وقد يبقى في دار العجزة سنين ولا يزورونه اذ استغنى هو عنهم بهذه الدار ، وهم وقد توفر لهم من يقوم مقامهم في العناية به والانفاق عليه لم تبق بينه وبينهم تلك الآصرة من الحب والذكريات والحاجة والشعور برد الجميل وهي من اجمل العواطف الانسانية ، ويتباعد الطرفان تدريجيا ويسير كل منهما في طريق عرى الاسره الحنون وتصبح العلاقة شبيهة بشركة تجارية يسعى كل طرف فيها الى الربح والاستقلال عن شريكه .

اين هذا من الحديث الشريف ... « **الجنة تحت اقدام الامهات** » وقول الله تعالى : **« وقضى ربك الا تعبد الا اياه وبالوالدين احسانا . اما يبلغن عندك الكبر احدهما او كلاهما فلا تقل لهما اف ، ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا »** (الاسراء 22 ـ 23) .

كيف يطبق التكافل :

لا شك ان جميع الادلة التي قدمناها من كتاب الله الكريم ومن الحديث الشريف حول التكافل في الاسلام تجعله لو طبق حق تطبيقه مجتمعا اسلاميا مثاليا . ولكن من يطبقه اذا كان اعداء الاسلام في الداخل والخارج متكالبين عليه يوسعونه نهشا وعضا وتمزيقا .. من يطبقه اذا كانت الصليبية والصهيونية والاستعمار الاستغلالي كلها تهاجم حصونه باستمرار ولا تترك له متنفسا للخلاص ، واكثر الحكام في الداخل من الطابور الخامس ـ على حد التعبير العسكري المعاصر ـ يتعاونون مع الاعداء لتحطيمه تكلبا بمناصبهم واحتفاظا بمكاسبهم ، يبنون امجادهم الدنيوية على جثث الضحايا من ابناء أمتهم وعلى فقر شعوبهم وتعاستها وأميتها وجهلها ؟ نظريات الاسلام في المجتمع المتكافل اسمى النظريات وشريعته من عطاء الله الخالد لا من صنع البشر الناقص . ولكنها جميعا ستبقى في حيز النظريات لافتقادها الى مؤيد مادي . الفرق بيننا وبين الغرب في موضوع التكافل والتضامن الاجتماعي اننا نقدم

نظريات وهم يقدمون تطبيقات عملية تحرسها قــوى الشرطة وتؤيدها الغرامات والحبس ومع كل ذلك فان الاجرام في مجتمعاتهم أشد وانكى لفقــدان الوازع الديني والاخلاقي . جاء في منشورات الامم المتحدة : « ان الاجرام الاقتصادي المنظم . خاصة في شكل ما يعرف بالفضائح ، يرتبط بالتكنولوجيا الجديــدة والتنمية الاقتصادية » ... وجاء في ورقة عمــل مؤتمر جنيف (1975) : « ان البلدان التي توجــد فيها معدلات (اجرامية) ثابتة تعزو ذلك عــادة الى الدين ، خاصة منها البلدان التي تدين بالاسلام او الى ضوابط اجتماعية غير رسمية قوية ، ومن السمــات البارزة الى اقصى حدود التشديد على دور الاسرة والمجتمع المحلي » .. ونحن نؤيد ذلك ونلاحظه في افريقيا مثلا ، فالصومال بلد يدين بالاسلام والاجرام فيه قليل نادر مع شدة الفقر والحــاح الحاجــة . وجارته كينيا وهي بلد خليط الا ان اكثره وثنــي ، الاجرام فيه أعلى من اي نسبة في العالم . وبينمــا يسرق اللص الصومالي وهو متستر خائف ، يسرق اللص الكيني بجراة ووقاحة وهجوم وهو ما يسمى بعرف القانون (السرقة الموصوفة) .

أعــداء منصفــون :

قال جيسكار ديستان رئيس جمهوريــة فرنسا وهو يخطب في جامعة القاهرة : « علينا ان نتذكــر بالرغم من ان القانون المصري يستمد أصوله مــن القانون الفرنسي ، فان الاسلام أخرج أول محاولــة عرفها العالم لتأسيس القانــون الدولــي » . وقال الدكتور شاخت الالماني : « ان الاسلام يعني أكثر من دين ، انه يمثل نظريات قانونية وسياسية . وجملــة القول انه نظام كامل من الحضارة يشمــل الديــن والدولة معا » .. وقال نللينو الايطالي : « لقد أسس محمد في وقت واحد دينا ودولة ، وكانت حدودهما متطابقة طوال حياته » .. هكذا يقرون لنا بالفضــل والسبق والتقدم ــ والفضل ما شهدت به الاعداء ــ واذا كنا نملك هذا التشريع العظيم الذي يجعل منا مجتمعا مثاليا حقا ، فلماذ نتخاذل ويقوم بيننا مــن ينادي بفصل الدين عن الدولة اقتداء بالدول النصرانية كمصطفى كمال والشيخ الازهري علــي عبد الرازق وسواهما ...

واذا كان الشبان الصحفيون الذيــن اتبعــوا الشيخ وايدوه معذورين بجهلهم وانعدام دراساتهم الدينية في ثقافتهم ، فما عذر الدكتور حسين هيكل باشا وعبد العزيز فهمي باشا وهما من العلماء الاعلام ، والاستاذ لطفي السيد فيلسوف الجيل ... ؟

أتمنى ان يدرس علماؤنا موضوع التكافــل في الاسلام فانه مهم جد ، تبنى عليــه كــل الدراسات الحقوقية المعاصرة ، والتكافل في الاسلام واحد منها ، وهو : كيف يمكن ان نوقظ الوعي في الامة الاسلامية لتفهم نفسها قبل ان تفهم غيرها ... ؟

الدكتور : ممدوح حقــي



حزبُ الجَوّ!

للدكتور عبد الهادي التازي

لا نقصد بالحزب هنا المفهوم الحديث الذي ينصرف الى جماعة من الناس تشاكلت مبادئهم واعمالهم ، ولكن نقصد بكلمة « الحزب » جملة مختارة من القول يتلوها المرء احتسابا ، في ظرف معين ، وهكذا فان له نفس المعنى الاصطلاحي الذي لكلمة (ورد) ، علاوة على استعمال « الحزب » بمعنى حصة معينة من القرءان الكريم تجزأ بمقتضاها ستين حزبا ... وقد عرفنا استعمال كلمة (الحزب) بمعنى (الورد) منذ القرن السادس ، عندما ظهر الشيخ عبد القادر الجيلاني ، حيث وضعت احزاب واوراد كثيرة فيما بعد ، وكان من اشهرها احزاب الشيخ ابي الحسن الشاذلي المغربي الاصل الذي ادركته وفاته عام 656 هـ وهو يجتاز صعيد مصر أو في مدينة (مخا) المعروفة ، في اليمن ، بقهوتها الرفيعة العالمية التي يروي انها « من بركات الشيخ الشاذلي ... » !

لقد كان في ابرز احزاب الامام ابي الحسن رحمه الله (حزب البر) أو الورد الكامل الذي يتلوه اصحاب الشيخ بعد صلاة الصبح من كل يوم ، قبل استقبال اعمالهم اليومية املا في توفيق الله ... كما اشتهر عندهم كذلك حزب البحر أو الحزب الكبير الذي الهم الشيخ لتاليفه وهو يعبر البحر الاحمر في طريقه لاداء مناسك الحج . ويتوسل به أصحابه ، مع مقدمته ، على متن المركب وقت العصر من كل يوم ما داموا يعيشون بين الماء والسماء ، وقد كان في اول من نقل نصوص هذا الحزب الى الجمهور الاسلامي والى المغرب بصفة خاصة ، الرحالة الشهير ابن بطوطة الطنجي بمناسبة حديثه عن معالم الاسكندرية ... ولا شك في ان الملاح العربي المعروف في ديار الخليج تحت اسم ابن ماجد كانت له صلة قوية بالشاذلية او بالاحرى بحزب البحر ، الامر الذي يفسر وجود صدى الطريقة الشاذلية في بلاد اليمن على ما اشرت ، وهكذا نجده في كتابه : « الفوائد في أصول البحر والقواعد » ينهى عن ترك حزب البحر ويزود تلامذته ومريديه بعدد من المقاطع المقتطفة من (حزب البحر) كآية الكرسي ، كما يزودهم بعدد من النصائح التي تشد الناس الى الالتجاء الى الله ... وتحملهم على الارتباط والانضباط ...

وقد عرف رجال الاسطول المغربي بأنهم يستظهرون (حزب البحر) ويقومون بتلاوته في الوقت المحدد ، بل اننا نجد في بعض الظهائر (المراسيم الملكية) التي تمنح للرؤساء البحريين المغاربة ، الاوامر الصادرة لهم بملازمة قراءة هذا (الحزب) الذي لا يخفى علينا ، انه توسل ايضا للتحصن من القراصنة والمعتدين . وقد وجدنا نموذجا من هذه التعليمات في المرسوم الملكي الذي توجه به السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام

للرؤساء البحريين : عبد الرحمن بريطل وعبد الرحمن بركاش ومن صحبهما من المجاهدين من اهل سلا والرباط وتطوان ، وذلك بتاريخ 19 ذي الحجة 1348 حيث نجد الامر بقراءة الحزب المذكور ...

ومن المفيد ان نعرف ان (حزب البحر) هذا نال من اهتمام كثير من المعلقين والمؤلفين ، وكذا عدد من المستشرقين الذين ترجموه الى لغاتهم على نحو ما فعله رين Rinn

كان هذا باختصار ما يتعلق بحزب البر ، وحزب البحر ، واذا كانت مصادر السادة الشاذلية تحدثت عن دوافع الشيخ ابي الحسن رحمه الله الى هذا التوسل في عرض البحار ... فحسبي ان اقول بالنسبة لحزب الجو هذا ، انه اقتباس او ابتكار الهمني اليه ما كان يعرض لي في بعض مراحل رحلاتي الجوية التي تجاوزت الستمائة ، من تأملات وتلاوات وقراءات ، وخاصة في حالات التوجه والتعلق والتمني والترجي . وهكذا فبعد تلك القرون الطوال من انشاء حزب البر والبحر ، ظهر لي اليوم ما دعا الى تأليف طائفة من التوسلات اطلقت عليها اسم (حزب الجو) راجيا ان يعمل اهل المدارج والمعارج على مراجعتها « فما كان من نقص كملوه ومن خطا اصلحوه » على حد تعبير خليل الفقهاء :

وهذا نص « حزب الجو » :

« بسم الله مجراها ومرساها (1) . سبحان الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا (2) . سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق (3) . ومن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء (4). ان الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم ابواب السماء (5) . ولو ان اهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض (6) . ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون (7) . الم يروا الى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن الا الله ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون (8) . الم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقبضن ، ما يمسكهن الا الرحمن ، انه بكل شيء بصير (9) . قل من يكلأكم بالليل والنهار من الرحمن (10) . يا رحمان ، يا رحمان ، يا رحمان . الر (11) — حم (12) — ن (13) . الرحمن علم القرءان خلق الانسان علمه البيان (14) . يا معشر الجن والانس ان استطعتم ان تنفذوا من اقطار السموات والارض فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان (15) ... والقلم وما

---

1 — سورة هود ، الآية رقم : 41 .
2 — سورة الاسراء ، الآية رقم : 1 .
3 — سورة فصلت ، الآية رقم : 53 .
4 — سورة الانعام ، الآية رقم : 125 .
5 — سورة الاعراف ، الآية رقم : 40 .
6 — سورة الاعراف ، الآية رقم : 96 .
7 — سورة الحجر ، الآية رقم : 14 .
8 — سورة النحل ، الآية رقم : 79 .
9 — سورة الملك ، الآية رقم : 19 .
10 — سورة الانبياء ، الآية رقم : 42 .
11 — سورة يونس ، الآية رقم : 1
المحرر الوجيز لابن عطية ، طبع وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية ، 1403 هـ — 1982 م — ج 9 ص 4 . الرموز السرية لعبد الهادي التازي ، طبع المعهد الجامعي للبحث العلمي 1403 هـ — 1983 ص 29 .
12 — سورة غافر ، الآية رقم : 1 .
13 — سورة القلم ، الآية رقم : 1 .
14 — سورة الرحمن ، الآية رقم : 1 .
15 — سورة الرحمن ، الآية رقم : 33 .

يسطرون (16) . اقرا وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم (17) .. فنسالك بحق ذلك « البيان » ونفوذ ذلك « السلطان » وتضرع اليك بسر « القلم » وسر « اقرا » ، اول صلة بين السماء والارض :

الم ـ طـه ـ يس ـ ص ـ ق ـ ن ـ راء ـ كاف ـ عين ـ حاء (18) .

سبحان الذي سخر لنا هـذا ومـا كنا لـه مقرنين (19) . اللهم هون علينا سفرنا هذا واطو عنا بعده ، اللهم انت الصاحب في السفر والخليفة فـي الاهل (20) ، اللهم سخر لنا طريقنا في سمائك ، كما سخرت لنبيك موسى طريقه في البحر ، ويسر هـذا الجهاز لعبادك ، كما يسرت الحديد لنبيـك داود ، وسخر لنا الريح كما سخرتها لنبيك سليمان ، اللهم سخر لنا كل سماء هي لك (21) من كل افق هو لك ، على كل بر او بحر هو لك ...

اللهم رب السموات السبع وما اظللـن ، ورب الاراضي السبع وما اقللـن ، ورب الريـاح ومـا ذريـن (22) .

يا حي يا قيوم لا تقدمنا للبلاء ولا تؤخرنا له (23) واجعل حجاب الستر بيننا وبين ما يكون فيه الشر لنا ... اللهم انا نضرع اليك ان تشرح صدورنا عند الصعود ، وتبارك مسيرتنا عند التحليق ، وتهون علينا امر النزول . اللهم انا نعوذ بك من عبث الفجوات ، وتغيير الاتجاهات ، وختلال الساعات . اللهم انـا نضرع اليك ان تحفنا بالطافك الخفية من تحت ومن فوق ، ومن امام وخلف ، ويمين وشمال ، فنحن كما ترى ، ريشة لا ارض لها تعتمد عليهـا ، ولا سبـب يمدها الى السماء ولا رائد لما بين يديها ولما خلفها. اسراب من سحاب تخترقها شواهق الجبال ، ومجاهل من صحرائك مقفرة ، ومحيطات من بحارك موحشة ، جزوعا على ارضك ، وهلوعا في بحرك ، فكيف بي في عنان سمائك ... هو الاول والآخر ، والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم (24) .

اللهم انا قد عجزنا عن دفع الضر عن انفسنا من حيث نعلم بما نعلم ، فكيف لا نعجز عن ذلك من حيث لا نعلم بما لا نعلم (25) .

اللهم كما قاربت بين الخطوات والمسافـات ، قارب ـ يا رب ـ بيننا وبينك ، واغننا بك ، حتى لا نشهد الا اياك ، وحل بيننا وبين غيرك بنور ذاتـك وعظيم قدرتك وجميل فضلك .

اللهم هب لنا حقيقة الايمان بك ، حتى لا نخاف غيرك ، ولا نرجو غيرك ، ولا نحب غيرك ، ولا نعبـد شيئـا سواك (26) .

---

16 ـ سورة القلـم ، الآيـة رقـم : 1

17 ـ سورة العلـق ، الآيـة رقـم : 3

18 ـ الحروف الاربعة عشر هي مجموعـة الحروف الواقعة اوائل بعض السور بحذف المكرر منها .. وقد ذهب بعض المتقدمين الى القول بأن لهذه الحروف سرا كونيا له صلة بقيمتها العددية : (903) أو (693) حسب ترتيب (الابجدية) بيـن اهل المشرق والمغرب ... ابن خلدون ، المقدمـة ، بيروت ص 200 ـ 597 ـ 605 ـ 907 ـ القلقشندي : صبح الاعشى 3 ـ 22 ـ . التازي : الرموز السرية في المراسلات المغربية عبر التاريـخ .

19 ـ سورة الزخـرف ، الآيـة رقـم : 13 .

20 ـ مختصر زاد المعاذ لابن قيم الجوزية ، تاليف الامام محمد بن عبد الوهاب ص : 58 .

21 ـ من حزب البحـر ، زكي : النفحة .

22 ـ مختصـر زاد المعـاد .

23 ـ من توسل الشيخ ماء العينين رحمه الله .

24 ـ سورة الحديـد ، الآيـة رقـم : 3 .

25 ـ من حزب البر وهو الشهير بالحزب الكبير س : 3 من النفحـة العلميـة .

26 ـ النفحـة ، حزب البـر ص : 3 ـ 4 .

اللهم انا نسألك ايمانا دائما ، ونسألك قلبــا خاشعا ، ونسألك علما نافعا ، ونسألك يقينا صادقا ، ونسألك دينا قيما ، ونسألك العافية من كل بليــة ، ونسألك تمام العافية ، ونســألــك دوام العافيــة ، ونسألك الشكر على العافية ، ونسألك الغنى عــن النـــاس (27) (ثلاثـا) .

اللهم انا نسألك التوبة ودوامها ، ونعوذ بك من المعصية وأسبابها ، فذكرنا بالخوف منك قبل هجوم خطراتها ، واحملنا على النجاة منها ومن التفكير في طرائقها ، وامح من قلوبنا حلاوة ما اجتنيناه منهــا واستبدلها بالكراهة لها والطعم لما هو بضدها .

اللهم اجعل سيئاتنا سيئات من احببــت ! ولا تجعل حسناتنا حسنات من ابغضــت ، فالاحسان لا ينفع مع البغض منك ، والاساءة لا تضر مع الحــب منـــك .

اللهم آمن خوفنا ولا تخيب رجاءنا واعطنا سؤلنا ولا تعاقبنا بالسلب بعد العطاء ولا بكفــران نعمــك وحرمان الرضى (28) .

اللهم اوزعنا شكر نعمائك وغطنا برداء عافيتك. واسفر وجوهنا بنور صفاتك ، واضحكنا وبشرنا يوم القيامة بين أوليائك ، واجعل يدك مبسوطة علينا وعلى اهلينا وأولادنا ومن معنا برحمتك .

اللهم افض علي من فضلك ، وهبني من كثيرك فان حالي لا يقوم على القليل (29) . رب اني لمــا انزلت الي من خير فقير (30) . . .

اللهم اني احمدك واشكرك (ثلاثا) ، اللهم عفوك وعافيتك (ثلاثا) ، اللهم انك عفو تحب العفــو فاعف عنا ، وكريم تحب الكرم فتجاوز عنا (ثلاثا) .

لقد تجلت حكمتك للذين عبروا خط التاريــخ حينما الهمت عبــادك الصالحيــن الى ان يبكسوا اسبوعهم اذا كانوا في اتجاه الشرق ، ويختصــروا يوما منه متى ولوا وجههم شطر الغرب ضبطا لسيرهم ورفقا بمصالحهم (31) . ان عدة الشهــور عند الله اثنا عشر شهرا من كتاب الله يوم خلق السمــوات والارض (32) . الا ان الزمان استدار يوم خلق الله الكون (33) . . . انما النسيء زيادة في الكفر (34) ، لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف (35) . سبحانك على عدد مواقع النجوم التي يسترشد بهـا رواد الجو كما يسترشد بها رواد البحر . وعلامات وبالنجم هم يهتدون (36) . وهو الــذي جعل لكــم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر (37) . . .

---

27 ــ هذا دعاء مشهور يجري على السنة المغاربة ، وهو مقتبس من حزب البر ، النفحــة العلميــة ص : 5 ــ 6 .

28 ــ النفحـــة ، ص : 6 .

29 ــ هذا من الدعاء المأثور عن المقري ، صاحب النفـــح .

30 ــ سورة القصــص ، الآيــة رقــم : 24 .

31 ــ د. التازي : حوار بين الشرق والغــرب على خط التاريخ الدولي ، العلم الثقافي ، عــدد 18 يــونيــو 1980 .

32 ــ سورة التوبــة ، الآيــة رقــم : 36 .

33 ــ من كلام الرسول الاكرم صلى الله عليه وسلم، ابن كثير عند تفسير الآية الشريفة : ان عدة الشهور عنــد اللــه .

34 ــ سورة التوبــة ، الآيــة رقــم : 37 .

35 ــ سورة قريش ، الآية رقم 2 . ونشير بهذه الآية مع ما صحبها من حديث الى التغيير الذي طرأ على السنة القمرية الشمسية التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يتبعها ــ كسائر اهل مكة ــ قبل ان يهاجــر ليثــرب .

36 ــ سورة النحــل ، الآيــة رقــم : 16 .

37 ــ سورة الانعــام ، الآيــة رقــم : 97 .

تجلت عظمتك في خلقك وفيهم من يعيش اختلاف الليل والنهار أو يمتد ليله ونهاره . قل ارايتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بضياء ، أفلا تسمعون ، قل أرايتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون (38) . ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الالباب (39). ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله لعلكم تشكرون (40) .

لقد تجلت عظمتك للذين يركبون السحب الثقال فيشهدونها من تحتهم وكأنها الياف قطن متناثرة تغطي الشعاب احيانا ، وتنساب مدى البصر حينا آخر . . . وتجلت عظمتك للذين يشهدون ملكوت الكون فيبهرون بانتظام الكواكب وترتيبها . « وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظنا (41) . افلم ينظرون الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها (42) » . تجلت عظمتك للذين شاهدوا خلقك وهم ينزلون بمركبتهم على سطح القمر ، فازدادوا ايمانا بك وبعظمتك ، لقد ذهلنا عن كل اسم الا اسمك الكريم ، وضاعت منا سائر الصفات الا صفاتك ، يا الله يا الله يا الله . يا ملهم الحائرين وملاذ القاصدين . « وما من غائبة في السماء والارض الا في كتاب مبين (43) . وما أنتم بمعجزين في الارض ولا في السماء » (44) .

اللهم اطمس على عيون أعدائنا وامسخهم على مكانتهم فلا يستطيعون المضي ولا المجيء الينا . « ولو نشاء لطمسنا على اعينهم فاستبقوا الصراط فانى يبصرون (45) . ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون (46) . وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون » (47) . شاهت الوجوه (ثلاثا) « وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما (48) . طس (49) . حمعسق (50) . مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان (51) . حم (سبع مرات) حم الامر وجاء النصر فعلينا لا ينصرون . حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ، ذي الطول، لا اله الا هو ، اليه المصير (52) . فسيكفيكم الله وهو السميع العليم (53) (ثلاثا) . والله من ورائهم محيط ، بل هو قرءان مجيد في لوح محفوظ (54) . فالله خير حفظا وهو ارحم الراحمين (55) (ثلاثا) . ان وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى

38 — سورة القصص ، الآية رقم : 71 — 72 . والاشارة للذين يسكنون القطب .
39 — سورة آل عمران ، الآية رقم : 190 .
40 — سورة القصص ، الآية رقم : 73 .
41 — سورة فصلت ، الآية رقم : 12 .
42 — سورة ق ، الآية رقم : 6 .
43 — سورة النمل ، الآية رقم : 75 .
44 — سورة العنكبوت ، الآية رقم : 22 .
45 — سورة يس ، الآية رقم : 66 .
46 — سورة يس ، الآية رقم : 67 .
47 — سورة يس ، الآية رقم : 9 .
48 — سورة طه ، الآية رقم : 111 .
49 — سورة النمل ، الآية رقم : 1 .
50 — سورة الشورى ، الآية رقم : 1
51 — سورة الرحمن ، الآية رقم : 19 .
52 — سورة غافر ، الآية رقم : 1 — 3 .
53 — سورة البقرة ، الآية رقم : 137 .
54 — سورة البروج ، الآية رقم : 20 — 22 .
55 — سورة يوسف ، الآية رقم : 64 .

الصالحين (56) . باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الارض ولا في السماء وهو السميع العليم (57) (ثلاثا) .

اللهم كما توجه اليك من غياهب السجن نبيك يوسف فافرجت عنه بفضلك .

اللهم كما ترجاك من اعماق البحر نبيك يونس فنجيته بمعجزتك .

اللهم كما كنت اللطيف الرؤوف باوليائك واصفيائك في عنان السماء . هذا ذكر وان للمتقين لحسن مئاب (58) .

اللهم كما لطفت بهم على أرضك وبين بحرك وسمائك ببركة الفاتحة فالطف بي « الله لا اله الا هو الحي القيوم لا تاخذه سنة ولا نوم ، له ما في السماوات وما في الارض ، من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء وسع كرسيه السماوات والارض ، ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم » (59) .

اللهم اني اتوسل اليك ، بسور مكة ويثرب : « تنزيلا ممن خلق الارض والسموات العلا ، الرحمن على العرش استوى ، له ما في السموات وما في الارض وما بينهما وما تحت الثرى (60) . ولذكر الله اكبر » (61) (ثلاثا) .

اللهم انا نجد في ذكرك لدى كل حركة راحة للقلب واللسان ، ونشعر في كل وقت وحين بما يستحثنا على الوقوف ببابك ، لا ملجأ منك الا اليك ... ففي كل لحظة نجد انفسنا مع عوالم ومعالم غير التي عرفناها في اللحظة السابقة . « وما نريهم من آية الا هي أكبر من أختها » (62) .

لقد شرعت المعارج في الفضاء ، كما شرعت المناهج في البحر والمدارج في الارض لتهدي الغادين والرائحين الى الصراط المستقيم ، وفي كل يوم يكتشف عبادك المزيد من فيضك فيطمعون في حلمك ، وعفوك وعطائك . « لخلق السموات والارض اكبر من خلق الناس » (63) .

اللهم اننا ضيوفك على متن هذه الاجواء فنعوذ بك مما يغضبك في هذا المقام ...

اللهم اجنبني في سفري رفيق طريق لا يؤتمن ، وصاحب جنب لا يرحم ، فانت تعلم ان الاسفار أمن وأمان وروح وريحان ، وعلم وعرفان .

اللهم انت اعلم بحالة العابر والغريب فيسر اللهم لنا احسن ظروف الارسال والاستقبال ، واجعل مركبنا ومثوانا مريحا ، ومطعمنا ومشربنا طيبا .

اللهم اني اسالك بفضلك ان تثقل ميزاني وتتجاوز عن حسابي . هذا عطاؤنا فامنن او امسك بغير حساب (64) . ياقيوم فلا يفوت شيء من علمه ولا يؤوده يا قيوم (65) .

اللهم كما احسنت الي في المراحل السابقة فاحسن بي فيما تهبه لي من المراحل اللاحقة .

---

56 ـ سورة الاعراف ، الآية رقم : 196 .
57 ـ عن حزب البحر (النفحة) ص : 11 ـ 12 .
58 ـ عن حزب البحر (النفحة) ص : 25 ـ 49 .
59 ـ سورة البقرة ، الآية رقم : 255 .
60 ـ سورة طه ، الآية رقم : 6 .
61 ـ سورة العنكبوت ، الآية رقم : 45 .
62 ـ سورة الزخرف ، الآية رقم : 48 .
63 ـ سورة غافر ، الآية رقم : 10 .
64 ـ توسل مأثور لسلامة المتاع ص 39 .
65 ـ توسل مأثور لسلامة المتاع .

«وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والارض(66). ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر (67). اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفا وما انا من المشركين (68). وهو الذي جعل لكم الارض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه » (69) . يا نعم المجيب ، يا نعم المجيب ، يا نعم المجيب ، يا نعم المجيب ، يا من هو هو هو ... سبحانك عند كل مشرق : وسبحانك عند كل مغرب ! « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها (70). فالق الاصباح وجاعل الليل سكنا»(71).

اللهم صل صلاة كاملة وسلم سلاما تاما على نبي تنحل به العقد وتنفرج به الكرب ، وتقضي به الحوائج ، وتنال به الرغائب وحسن الخواتم ، ويستسقى الغمام بوجهه الكريم ، وعلى آله وصحبه (72) . ان الذي فرض عليك القرءان لرادك الى معاد (73) . آئبون لربنا حامدون ، آئبون لربنا حامدون ، آئبون لربنا حامدون ...

---

66 ــ سورة الانعام ، الآية رقم : 75 .
67 ــ سورة الاسراء ، الآية رقم : 70 .
68 ــ سورة الانعام ، الآية رقم : 79 .
69 ــ سورة لملك ، الآية رقم : 15 .
70 ــ سورة طه ، الآية رقم : 130 .
71 ــ سورة الانعام ، الآية رقم : 96 .
72 ــ هذه صلاة منسوبة للصالح العارف الرحالة ابراهيم التازي دفين وهران ، ولذلك فانها تحمل اسم الصلاة التازية : القادري : نشر المثاني 1 ــ 127 .
73 ــ الفاتحة ... سورة القصص 85 .



عالمية الإسلام

للدكتور محمد كمال شبانة

يلاحظ انه كثيراً ما تردد ويتردد على السنة الباحثين من المستشرقين ـ لا سيما منهم من ساهموا بدراسات حول الاديان السماوية ـ هذا التساؤل :

هل كانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم انسانية عالمية ؟ وبمعنى أكثر وضوحا :

هل كانت دعوته الى البشرية كافة ، لا فرق بين من كانوا يدينون بدين ويؤمنون بكتاب من قبل ، وبين من كانوا لا يزالون عبدة للاوثان او بعض مظاهر قوى الطبيعة ؟

ان هذه التساؤلات من كافة جوانبها ، وبما ترمي اليه من معنى لم تكن لتلقي امام هؤلاء الباحثين شرقا أو غربا الا جوابا واحداً واكيداً ، هذا الجواب عليه أكثر من دليل ، بل يفرضه وضوح الواقعية .. وهو « ان الاسلام دين انساني عالمي ، يخاطب كافة الامم دون تفرقة بين جنس أو لون ، يستطيع ان يأوى الى ظله كل انسان من اهل البسيطة تحت راية الاخوة الانسانية » .

حقا ، لقد بشر القرءان الكريم بهذه الدعوة ، واعلن المبدا العام منذ أكثر من الف واربعمائة عام ، حين قال :

« وما ارسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً »، وفي موطن آخر « وارسلناك للناس رسولا ، وكفى بالله شهيدا » ، يضاف الى هاتين الآيتين وغيرهما حديث المصطفى صلوات الله وسلامه عليه « ... وكان النبي يبعث الى قومه خاصة ، وبعث الى الناس عامة » (1) .

وهكذا جهر الرسول بهذه الدعوة امتثالا لامر ربه : « فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين (2) » . واقتفى أثره من بعده خلفاؤه الراشدون والاسلام ما يزال حديث العهد ، غض الاهاب ، حتى تجلت « البينة الواقعية » خلال فترة جد وجيزة ، بحيث لم تتجاوز ربع قرن على ماهية هذه الدعوة العالمية الاسلامية ، فانتظم في دين الله خلق من كافة السلالات ، ولم تنقض على الهجرة النبوية ثلاثة قرون حتى احتوى الاسلام ساميين وحاميين وآرميين ، عربا وفرسا وتركا ، بل وهنديين وصينيين وافريقيين ، على اختلاف في المشارب ، وتمايز بين الالسنة والالوان .

---

(1) رواه الشيخان .

(2) الحجر : 94 .

فهل يمكن القول ـ والحال هكذا ـ ان هـــذه « البينة الواقعية » دليل دامغ على عمومية الاسلام ؟ وان هذا الدين قد تميز من بين الاديان الاخرى ذات الكتاب وغير ذات الكتاب بهذه المزيـــة العالميـــة الانسانيـــة ؟ .

انه ما من شك ـ اذا ما وضعنا نصب اعيننـــا الحقيقة العلمية المجردة تجاه هذه القضية ـ في ان نرى كافة الدعوات الدينية السابقة كانت تختـــص بالعصبية القومية ، او على استقطاب ذوي الاوثـــان والمولعين بمظاهر قوى الطبيعة ، من عبـــدة الشمس او النار او ما الى ذلك .. فالدعـــوة المسيحيـــة اجتذبت اليها الرومان وغيرهم ، وكان هؤلاء كافة من عبدة الاصنام ، ولم يقيض لهذه الدعوة ان تجـــاوز هؤلاء الى سواهم من ذوي العقائد الكتابيـــة ، وان الموسوية كانت دعوتها محصورة في اليهود ، وكذلك الامر يقاس عند النظر الى البرهمية التي ما فتئـــت ديانة عنصرية حتى انبثق عنها ما عـــرف بالنحلـــة البوذية ، والتي كان نجاحها قاصرا على اجتـــذاب الوثنيين اليها في الصين واليابان ، بيد انها لم تفلح في ان تستقطب اليها امة كتابية .

اما الاسلام فقد كان النجاح حليفه ، في هـــذا المجال الى ابعد الحدود ، « فقد استقطب اليه امما عريقة في المجد والحضارة تدين وتؤمن بكتـــاب ، نلحظ هذا جليا حين وسعت قاعـــدة الاسلام ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ بلاد فارس ومصر ، وهما امتان عريقتا الحضارة يومئذ . ومن الناحية الدينية كان الفرس يؤمنون بالله واليوم الآخر ، كما يعتقدون بأن الروح خالدة ، وبأن الثواب والعقـــاب واقـــع لا محالة يوم النشر ، وكانت مصر بدورها آنئذ على دين المسيح ، تحمل لواء الريادة .. يومئـــذ بيـــن معتنقي هذا الدين من بين الامم الاخرى .

وبناء على تلك الحقائق ... نلمس في الاسلام انفراده من بين الاديان الاخرى بمزيـــة « العالميـــة والانسانية » وصلاحيته للامم جمعاء ، لا نفـــرق في تقرير هذه الحقيقة بين امم قطعت اشواطا في مضمار الحضارة والدين ، وبين امم لم يكتب لها حظ عظيم فى مجالي الحضارة والدين .

لكننا نرى في القرن العشرين عصر التبشيـــر والمبشرين ان هؤلاء يعزون انتصار الدعوة الاسلامية فيما لم ينتصروا فيه ـ بعد اقرارهم بغلبـــة الاسلام في افريقيا ـ الى ان بساطة الدين الاسلامي قد لاءمت طبيعة القبائل المتأخرة ، كما ان هذا الدين سهـــل التنـــاول لـــدى البدائييـــن من سلالات القـــارة السوداء (3) .

بيد ان هذه الادعاءات واشباهها رخيصة ؛ فمن يلقي نظرة عابرة على واقع هذا الحال يـــرى ان هؤلاء المبشرين ـ بدل ان ياتوا بجديد من حجج حول هذه القضايا ـ يريدون بمقالتهم تلك ان يعتذروا لانفسهم عما اخفق سعيهم نحوه كمبشرين ـ هربامن الدفـــاع عن موقفهم الناطق بفشلهم الذريـــع في مهمتهـــم ، فالادلة الدامغة التي شهدت بصلاحية الدين الاسلامي لكافة الامم شرقا وغربا كافية للرد على هؤلاء الذيـــن اشبهوا بمن فقدوا صوابهم ، فاخـــذوا يلتمســـون لانفسهم الاعذار الواهية .

« ان الوقائع العلمية هـــي الشهـــادة للاسلام بالصبغة الانسانية العالمية ، ولا حاجـــة بالدين الى شهادة اخرى متى ثبت له من تاريخه الاول انه يضم اليه شعوبا من جميع السلالات والعقائد ، ومن جميع الاطوار في الحضارة والمعيشة البدائية ، وان كتابه يخاطب الناس كافة ، ويوجـــه الرسالة الى كـــل سامـــع » (4) .

يضاف الى كل ما ذكرنا من الحقائق حيال هذه القضية اننا لو تصفحنا تاريخ الدعوة الاسلاميـــة في ربوع دول آسيا لالفينا انها لم ترتكز في ذيوعهـــا بين هذه الاجناس بالتبشير ، وانما بانتشار المبـــادىء الاسلامية من عدالة اجتماعية ، وحرية عقائدية ، وقد تدعم مثل هذا بالقدوة العمليـــة ، وليس للغـــزوات والحروب التاثير الواقعي للانتشار الاسلامي ، ولـــو اخذنا المسالة بنظرية القياس والنسبية لما وجدنـــا للوقائع الحربية التي خاضها المسلمون وزنا بالنسبة

(3) عباس محمود العقاد ، في : الاسلام والحضارة الانسانية ، ص : 30 .
(4) نـــفس المصـــدر : ص 32 .

للجموع الهائلة من البشر من كافة الاجناس التي دخلت في دين الله افواجا متتابعة ... » وكل ما يرويه التاريخ من القتال بين المسلمين وغيرهم عن تلك الارجاء – فانما حدث بعد ان اصبح المسلمون .. معدودين بالملايين ، وانما هو في جميع الاحوال قتال سياسة ، وليس هو بقتال اكراه على الدين (5) » مصداقا لقوله تعالى : « لا اكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي » .

المستشرقون وانتشار الاسلام

هذا ، ولا مناص من أن نفيض في الحديث قليلا حول هذه الدعوى ، تلك التي يرددها كثيرون من المستشرقين الذين أعماهم التعصب ، والتي يرون من خلالها ان الدعوة الاسلامية في عمومها مدينة في ذيوعها وانتشارها الى الزحف البشري المدعم بالسلاح ..

لقد ذهب الباحثون حيال هذه المسالة وعلاجها في ضوء الحقائق مذاهب شتى ؛ فبينما نرى البعض يستند في الدفاع عن موقف الاسلام بالادلة النقلية ، من ادلة قرآنية ، واحاديث نبوية ، قاصرا الحجة على هذا ، مع التشريح والتفسير لما تضمنته تلك البراهين ، نقول : بينما نرى هذا الفريق من المدافعين على هذا النحو من الاسلوب .. اذ بنا نرى فريقا آخر قد اعتمد على الاسلوب المنطقي ، محتكما الى الواقع التاريخ .. قبل ان يسوق دليلا من الكتاب او السنة .

لكن ماذا يضيرنا في مجال البحث وتقصي الحقائق – ليكون اسلوب الاقناع انسب – من ان نفرق بين الاسلام والقتال داخل الجزيرة العربية ، وبين الاسلام والقتال خارج الجزيرة ؟

فالنسبة للجهاد الاسلامي داخل الجزيرة العربية .. نرى المسلمين قد اضطروا الى الدفاع عن الدعوة المحمدية بدوافع دينية صرفة لا تشوبها ادنى دوافع اقتصادية تكون للمسلمين مصدر غنى او اثراء ، وقد كان عدد من اسلموا عند بدء الدعوة اسيادا في قومهم قبل ان يسلموا ، ولو كان هؤلاء – وعلى راسهم الرسول الكريم – يقصدون الجاه او المال او ... السلطان لنزلوا عند رغبة قريش التي وعدتهم ان هم تخلوا عن دعوتهم بمثل ذلك ، وباجل واشرف نساء العرب .

اما فيما يتعلق بحروب الردة في عهد الخليفة الاول ابي بكر الصديق .. فاننا نرى بعض الباحثين مثل « فيليب حتى » مع آخرين من مؤرخي الغرب ، يقولون : بان الاسلام – يومئذ – لم يكن قد انتشر في كافة انحاء الجزيرة العربية ، وان ما حدث من اسلام بعض القبائل انما كان يعني اسلام زعماء هذه القبائل لا افرادها ...

والحقيقة من جانبنا واقعيا انه لم يكن في هذه الفترة بالذات الضمان لاسلام القبائل قاطبة اسلام المؤمن الحق ، بمعنى حداثة عهد الجميع بالاسلام ، ثم لو حدث مثل هذا فعلا فان الرسول صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع كان قد ضمن خطبته الآية الكريمة : « اليوم اكملت لكم دينكم ، واتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الاسلام دينا » (6) .

فاعلان الرسول هذا ، واستشهاده بهذه الآية وقتئذ يوحي بشكل قاطع ان الاسلام حتى هذه اللحظة قد بلغ مرحلة اصبح فيها قادرا على ان يسيطر على أي جزء من الجزيرة العربية . فاذا كان من حق القبائل القدرة على الاسلام بعد وفاة الرسول – بحجة انها لم تسلم ، او لم يكن اسلامها وايمانها عميقين – فان الاسلام من حقه ايضا ان يعلم هذه القبائل – ولو بالقوة – كيف تكون مسلمة بعمق ، وعليه فان للخليفة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – العذر كل العذر في اجلاء كل من لم يسلم عن الجزيرة العربية .

يضاف الى هذا ان حركة الردة – على ما حقق المسلمون فيها من توحيد للجزيرة العربية ، كتمهيد لنشر الدعوة خارجها وترسم لخطى الرسول ، واكتساب الخبرات الحربية – قد ادت الى ظهور عبقريات عسكرية اسلامية ، كما انه لا تعدو ان تكون

(5) نفس المصدر : ص 33 .

حركة التمرد هذه ثورة فئة ضالة مضلة ضد حكومة شرعية . فاذا ادركنا ان الاسلام هو « الحكومة الشرعية » التي اعترفت بها كل الجزيرة العربية ، فمن البديهي ان تبذل هذه الحكومة ما في وسعها لاستعادة هيبتها ، وارساء قواعدها ، حتى لو اضطرت الى استعمال القوة ، من اجل اخماد هذه الثورة الفاسدة المفاجئة قبل ان تشب وتطغى ..

اما عن الاسلام والقتال خارج الجزيرة العربية ... فقد يتساءل البعض ، فيقول : الم يكن في الامكان للاسلام ان يعايش ... ويجاور الروم والفرس — وهم يقتطعون بلاد الشام والعراق — سلما ومحبة ووفاقا ؟ .

ان بلاد الشام والعراق بلاد عربية ومن حق عرب الجزيرة العربية ان يعملوا على استعادة ما نهب من ارضهم ، فان ما اخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة ، وبمجيء الاسلام آن الاوان لان يفعلوا ... هذا من جهة ومن جهة أخرى فان القرءان الكريم آيات تحدد بصراحة « عالمية » هذا الدين ، فعلى كل مسلم ان يبلغ هذه الرسالة الى الامم انى كانت ... وعليه فاني ارى — مع كل باحث منصف — ان ايمان المسلمين بهذه العقيدة هو الدافع الاساسي الذي دفعهم الى الجهاد ، وان ... المكاسب الاقتصادية الناجمة بالضرورة عن هذه الفتوحات انما هي فروع عن الدافع الاساسي ، وليست الدافع نفسه ، وان الذي يعتقد بان المسلمين هم الذين بداوا الصدام يكون على خطأ كبير ، ذلك ان الدعوة الاسلامية — كما هو معلوم — قد واجهت عداء الفرس والروم ، فهذا كسرى انوشروان يبعث الى عامله في اليمن عند ظهور الدعوة يحثه على ان يبعث من رجاله من يأتيه بمحمد بن عبد الله هذا ...

ثم ان واجب الرسول — كصاحب دعوة ورائد رسالة اقتضاه ان ينفذ اوامر ربه في نشر رسالته هذه ، وهكذا بعث صلى الله عليه وسلم برسالة الى ملوك واباطرة الدول المجاورة ، فنرى كسرى لم يحسن استقبال الرسول الموفد اليه ، معبرا بذلك عن كراهيته للدعوة ، وكذلك فعل الروم ، وان عرب غسان بدورهم قد قتلوا الرسول .

فالذي اتصوره — في خضم تلك الاحداث — ان قيصر الروم لو امتثل للدعوة فاسلم ، فان الرسول كان سيبعث الى بلاد الشام رجالا دعاة للاسلام يعلمونه للناس ، وبالتالي هذا ستصبح بلاد الشام مسلمة دون لجوء الى الحرب ، ولكن الدعوة — كما قلنا — قد قوبلت منذ بدايتها من هؤلاء وامثالهم بالرفض الشديد والاستنكار ، بل وفوق هذا فقد اتفق قيصر الروم وامبراطور الفرس على تحريض القبائل — لا سيما المجاورة منها — على اثارة الفتن والاضطرابات ضد المسلمين !! فهل مثل هذه النظم الحاكمة تقابل بالحسنى ، وتجدي معها الكلمة الطيبة ؟ لقد كان — والحق يقال — لا مناص للمسلمين من ان يعاملوا الروم والفرس وغيرهم ممن على شاكلتهم — والحالة هذه — باللغة التي يفهمونها ...

ان الاسلام لم يحدد السيف كوسيلة أولية لنشره وحمله الى الامم والشعوب ، بل كان السيف الاداة الاخيرة لعلاج تلك الاوضاع التي كانت تحتاج الى الاقتلاع من الجذور لفسادها في ذاتها وافسادها لشعوبها .

ونحن نرى في العصر الحاضر الصراع العنيف والقائم بين المعسكرين الدوليين الشرقي والغربي ، كل منهما يدعي المعاذير ويلتمس المبررات لتدخله في السياسات العالمية ، حتى ليصل التدخل الى اشعال حرب عسكرية مقنعة ، ليس لها أساس الا الصراع الفكري العقائدي . فلو اعتبرنا الاسلام — مع فارق السمو في الاعتبار — انه عقيدة فكرية واجتماعية غيرت المجتمع العربي ، الم يكن من الممكن ان يدخل العرب مع الروم والفرس في حرب ضروس دفاعا عن عقيدتهم الفكرية هذه ؟ .

لقد اخذ بعض المؤرخين الغربيين — لا سيما منهم المتحاملون على الاسلام — على هذا الدين تخييره للشعوب الاخرى بين الاسلام او الجزية ، وفي هذا المأخذ دلالة على الدوافع الاقتصادية التي حدت بالمسلمين الى الحرب ... بيد ان هذا التخيير الذي يتشدق به هؤلاء المؤرخون انما يدل تماما على ان الاسلام لم يستعمل السيف وسيلة لنشره ، وانه لو قصد هذا لما قبل منهم غير الاسلام او القتال . ثم ان الجزية اذا ما اخذناها على القياس الفردي فانها كانت على درجة من الضآلة بحيث لا يمكن ان تعتبر مغنما ماديا ذا بال ؛ اذ لم تكن في الواقع اكثر من ضريبة تدفع مقابل حماية المسلمين لهم ، وليس في

هذا ما يضير الاسلام ، فانه في عصرنا الحاضر تدفع كل الامم والشعوب لحكوماتها الضرائب العديـدة ، والتي احيانا ما تكون باهظة ، وذلك مقابل ان توفـر هذه الحكومات لشعوبها الحماية والحقوق الاجتماعية، وهذا بالضبط ما كان يحدث في العصر الاسلامـي الاول ، فقد كان المسلم يدفع الزكاة ولم يكن يدفـع الجزية ، لانه كان يقدم دمه وحياتـه زكاة وجزيـة وخراجا اذا ما تطلب الامر ذلك ، وهكذا سار الامر في ربوع ... الاقطار التي دخلها الاسلام حاملا اليها نور الهداية والايمان ، ورافعا مشعل العدالة الاجتماعية التي سارت بذكرها الركبان ، واضحت مثلا يحتـذى شرقـا وغربـا .

معالـم الاسـلام ومبـادؤه

لقد كان ظهور الاسلام انقاذا للمجتمعات عامة ، واعداد للمسؤولية التي القاها على عاتـق العـرب خاصة ، فقد كفل هذا الدين السعادة لكل الامم التي استظلت بظلاله الوارفة ، سواء في ذلك سعادتهـا الدينية ام الدنيوية ؛ ففي امور الدين يعلو التوحيـد كل مبادئه ، فليس في الاسلام اية شبهة من شبهات تعدد الآلهة « قل هو الله احد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفؤا احد » . وفي الحديـث الشريف بيان لمظهر التوحيد وما يستتبع ذلك مـن علامات الايمان ، حين اعلن الرسول صلى الله عليـه وسلم انه : « بني الاسلام على خمس : شهادة الا اله الا الله ، وان محمدا رسول الله ... » الى آخر هذا الحديث المشهور . فالامور التي تلي الشهادتيـن تعرف في الاسلام باسم « العبادات » ، ولهـا في الدين فلسفة عميقة ، من شانهـا ان تنعـم الروح والجسد كلاهما بالنعيم في الدنيا والآخره ، وهناك المؤلفات الدينية العديدة التي تتحدث عن فلسفة كل عبادة من هذه الاربع على حـدة ..

اما سعادة المجتمعات الدنيوية في ظل الاسلام فتتجلى في المبادىء التي اعلنها هذا الدين قانونـا **تنتظم به الدول ، وهـي : المسـاواة ، والعدالـة ،** والمثل الصالح من احاكـم .

لقد نادى الاسلام بالمساواة حين كان النظـام الطبقي سائدا اقطار العالم جميعه ، حتى لقد عانـى **السواد الاعظم** لتلك الشعوب ما عانى من السيـادة المطلقة ، والمؤسف ان من كانوا يسمون انفسهـم « رجال الكنيسـة والدين » هم الذين امتازوا من دون شعوبهم ، ورعوا الى جانبهم طبقة الاشراف والنبلاء ، ليقتسم كلاهما النفوذ والسلطان ، ولا معقب من بعد لامرهمـا .

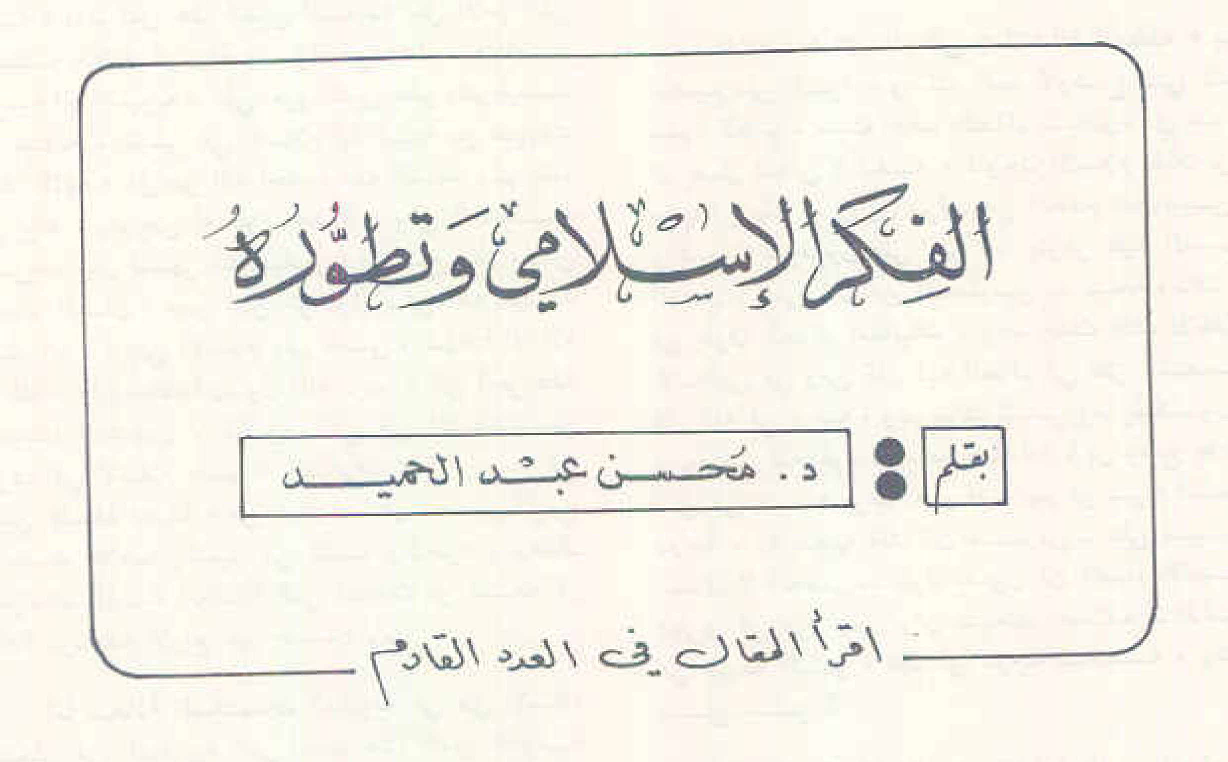
اما الاسلام فقد ارسى قاعدة « سيادة القانون» وهذا يعني ان الناس ــ أمام القانون ــ سواء ، لا فرق بين كبير وصغير ، ولا امتياز لقوي على ضعيف ، فلا يصح ان نغمض عيوننا على جرائم وجنايات كبير من الكبراء ، ونمسك بتلابيب صغيـر من الضعفـاء ، فالشواهد والوقائع تثبت ان ميكروبات السخـط لا تنتشر الا في مجتمعات المحسوبية والاستثنـاء وعدم المسـاواة . ويوم يعلم المواطن ان حقه سيصل اليه بغير وساطة ولا خطاب توصية ، ولا وقوف على الابواب يوم يعلم المواطن ويتأكد من كل هذا سوف يشعر بانه يعيش في بلد سعيد .

كذلك دعا الاسلام الى « العدالة المطلقة » بين الجميع على السواء ، وبذلك قلب الاوضاع التي كانت تسود العالم ، حيث اهاب بالحاكم ــ باديء ذي بدء ــ ان يعمل للناس لا لنفسه ، فأوجد الاسلام بذلك نوعا جديدا يومئذ ــ ولاول مرة ــ من الحكام المثاليين ، والذين لا يتوفرون على اكثر مما يتوفر عليه الفـرد العادي ، حتى كان من المحكومين ــ نتيجة ، ذلك ــ من يفوق الحاكم امكانيات ، وقد حدث ذلك الانقلاب الاسلامي في زمن كان فيه الحاكم في نظر الشعـب ظل الله في ارضه ، وهو مالك للناس وما يملكـون ، يسخرهم ليحققوا له متعه وملذاته ، بل ومتع بطانته ممن قربتهم منه مرتبة ، او علت بهم عن سواد الشعب درجة . ولا عجب فقد كان بفـارس ــ على سبيـل المثال لا الحصر ــ ملوك يدعون ان الدماء الالهيـة تجري في عروقهم ، وان طبيعتهم تختلف ــ لذلك ــ عن طبيعة البشر ، فهم في درجة ساميـة ، وشأن عـزيـز !!

لقد أشرق الاسلام على هذا العالـم ليحقـق المسـاواة ــ أولا وقبل كل شيء ــ بيـن محمد نفسه وبين أي فرد من الرعية ، ولننظر في هذا الى قصة زيد بن سعنة اليهودي صاحب الدين عند الرسول ، حيث تاخر النبي عن الاداء عسرا ، فحضر الرجـل وجذب الرسول من ثوبه بقسوة قائلا : « انكم يا بني

عبد المطلب قوم مطل ، اما آن لك يا محمد ان تسدد الدين ؟ فذهل عمر بن الخطاب ـ وكان حاضرا ـ من قسوة اليهودي على الرسول ، وانتضى سيفه وهم بقطع رقبته ، ولكن الرسول المعلم والقدوة يحول بين عمر وبين ما يريده ، ويصيح فيه صيحة الحق : « ضع يا عمر سيفك في جرابه ، لقد كان من الخير لك ان تنصحني بحسن الاداء ، وتنصحه بحسن الاقتضاء » فيسري هذا الكلام من نفس اليهودي مسرى السحر ، فيسلم بين يدي الرسول ، مؤمنا بدين هذه مبادؤه . والامثلة في الشأن في جانب الرسول كما في جانب خلفائه الراشدين تجل عن الحصر .. مساواة ، وعدالة ، مما يستحيل حدوثه في اي مجتمع آخر .

وقد عقد الزميل الدكتور عبد المنعم ماجد ، أستاذ التاريخ الاسلامي بجامعة عين شمس بالقاهرة سابقا ـ فصلا خاصا عن اسلام الشعوب المفتوحة ، وتحدث فيه عن الاعداد الضخمة من البشر الذين دخلوا في دين الله زرافات ووحدانا على عهد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ، بعد ان سارت الركبان بعدالته حتى اضحى الاسلام دين السواد الاعظم من الفرس واهل مصر وخراسان والشمال الافريقي ، « وهكذا ... نرى ان موجات انتشار الاسلام قد ارتبطت في التاريخ بالعهود التي ساد فيها العدل والمساواة ، وليس الامر ـ كما زعم المغرضون ـ وليد سل السيوف ونشر الارهاب » (7) .



(7) د. عبد المنعم ماجد : « التاريخ السياسي للدولة العربية » ج 2 ص : 260 ـ 266 .

العرش المغربي أقدم العروش

للأستاذ عبد العزيز بنعبد الله

(2)

وانطلقت محاولات جريئة أشرف عليها ملوك المغرب العلويون أنفسهم في خضم الدسائس الاستعمارية فصدر في 15 رمضان 1326 هـ / 11 أكتوبر 1908 مشروع دستور في عهد السلطان مولاي عبد الحفيظ. يتركب من أربعة فصول وثلاث وتسعين مادة كانت مرآة لما تلجلج إذ ذاك في صدر الجماهير الشعبية من توقان إلى حياة نيابية تضمن للأمة سيادتها وللبلاد نظاما قويما تتوازن فيه المقومات في جميع مرافق حياة الدولة والقطاعات الثقافية والاقتصادية والاجتماعية. وقد تحدث هذا الدستور عن :

1) المميزات العامة للدولة وهي وحدة التراب واستقلال البلاد وإسلامية دين المغرب وإمامة رئيس الدولة للمسلمين وحمايته للدين وطاعة الأمة لإمامها واحترامها لذاته وشمولية المواطنة للجميع وطابع المركزية.

2) حقوق وواجبات المواطنين للجميع كالحرية الدينية وحرية النشر والسكن في كل بقعة من المغرب والحريات الفردية وحق المساواة أمام الوظائف العمومية وحق التعليم وإجباريته في الابتدائي للفتيان وجعله اختياريا للفتيات، ووجوب نشره بالمدن والبوادي وحقوق الشعب في التعليم الثانوي والعالي ومجانية التعليم وحرية انشاء المؤسسات التعليمية، وواجبات المواطنين إزاء الدولة (طاعة السلطة واحترام العائلة وقبول الضرائب المشروعة وأداؤها).

3) تنظيم مؤسسات الدولة المكونة من :

- الملك الذي يختار بالبيعة وهو إمام المسلمين غير مسؤول جنائيا

- مجلس الوزراء (الوزير الأول يعينه الملك والوزراء يختارهم الوزير الأول وفقا لفصول الدستور.

- المجلس الاستشاري : يتكون من مجلسين.

ويختار أعضاء مجلس الأمة من السكان لأربع سنوات (لكل عشرين ألفا نائب واحد) وأدنى العمر 28 سنة للترشيح وشرط الكفاءة : الإلمام بمبادىء القراءة والكتابة باللغة العربية مع عدم العمل لفائدة شخص آخر أو دولة أجنبية واحترام التقاليد والأعراف الحسنة وعدم التلبس بما يخل بكرامة الفرد (كافلاس أو عقوبة جنائية).

ويتركب (مجلس الأعيان) من 25 عضوا من المسلمين العارفين بالقراءة والكتابة والبالغين 45 سنة.

ويتم تعيين بعض أعضاء (مجلس الأعيان) من طرف الملك والباقي من طرف (مجلس الأمة) و(مجلس الوزراء) و(مجلس العلماء).

وجميع أعضاء المجلس الاستشاري يؤدون القسم ويتمتعون بالحصانة البرلمانية بحيث لا يسألون عما يدلون به من تصريحات أثناء المناقشة.

وهناك وثيقة تشير إلى وجود فكرة مجلس للأعيان في العهد العزيزي أناط به السلطان دراسة قرارات (مؤتمر الجزيرة الخضراء)، وكان الاتجاه هو البحث عن وسيلة للخلاص من الضغط الأجنبي على شكل يرضي الأمة والدولة معا والوثيقة صادرة عن مجهول رفعها إلى المولى عبد العزيز كرد فعل لنتائج مؤتمر الجزيرة وهي توضح رفض الأمة المغربية لها للأسباب الآتية :

1) التخوف من التدخل الأجنبي في شؤونها الداخلية.

2) ما تؤدي إليه من توظيف ضباط أجانب باسم الخبرة الفنية.

3) نظرا لعدم كفاية ميزانية الدولة للانفاق على إنجاز الإصلاحات فإن ذلك يستلزم الاقتراض من الدولة المتدخلة وفرض رقابتها على وارادات المخزن وتقترح الوثيقة أن لا يبقى الملك وحده وجها لوجه مع الدول الأجنبية وأن يرد الأمر إلى الشعب عن طريق إعلان قانون أساسي وتنظيم مجالس نيابية بانتخاب الشعب لممثليه وقد ضرب المثل باليابان وتركيا.

وقد أشارت الوثيقة إلى ثلاثة أمور :

1) تشكيل مجلس الأمة.

2) الشروع في تشكيل عسكر جرار على وجه منتظم

3) تمويل داخلي لإنجاز الإصلاحات المقترحة من أوربا دون حاجة إلى مساعداتها بالاعتماد على دخل الأوقاف نظرا لقلة الماجد (5000) بالنسبة للمداخيل أو استغلال أجنبي عند عدم كفاية مال الأوقاف مع تكوين مجلس للأوقاف يضم خمسة علماء يكلف كل واحد بإدارة فئة خاصة من فئات الأمة (المعاهد العلمية والزوايا وعموم الأحباس) وتكون له فروع في الأقاليم وللأعضاء حق اقتراح القوانين وحق التقرير فيها بالأغلبية وعدم مخالفة الكتاب والسنة فيما يقررون والنظر في الميزانية وضبط الوظيفة العمومية والبحث عن موارد الدولة ومراقبة النفقات وتنظيم الجيش والشرطة وطريقة التربية العسكرية ومراقبة أعمال العمال ومحاكمتهم ومحاسبة الأمناء بالإشراف على (ديوان المحاسبة) الذي يشكله واختيار علماء لتدوين قانون مستجد في الشريعة الإسلامية على مقتضى مذهب مالك يصبح نافذا بموافقة مجلس الأمة عليه مع تذييله بخاتمة الملك ليمكن تطبيقه والنص على استقلال القضاء وإلزامه تطبيق المدونة واستيناف أحكام القضاء لدى مجلس الأمة وعزل كل قاض يحكم بغير الشريعة وفصله عن الوظيفة ومعاقبته بسنة إلى خمس.

ومجلس الأمة كان المطلوب تركيبه من مجلسين : (مجلس الشورى أو الملة) و(مجلس الأعيان) (أو المجلس الأعلى) ونوابه منتخبون من القبائل والمدن واحد عن كل قبيلة أو بلد لمدة خمس سنوات بشرط معرفة القراءة والكتابة والحساب والشيخ خليل والكفاءة المالية وحسن السلوك وشرط السن (من 30 إلى 60 سنة).

راجع شذرات من رسالة عن مسائل مجلس الأعيان أيام السلطان المولى عبد العزيز (عدد 5503) (الخزانة الحسنية بالرباط).

وكانت أول انطلاقة بعد الحماية للثورة ضد أجهزتها ومواصلة تطوير دواليب الحكم في إطار ملكي دستوري هو ما تجلى من تصريحات الزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي الذي كان يستهدف دعم العرش المغربي عندما قام بتأسيس نظام مؤقت يستقل فيه عن الحمايتين الأسبانية والفرنسية نظرا لسيطرة فرنسا على الشؤون العامة آنذاك ثم تسليم المنطقة بعد اكتمال تحررها إلى الجالس على العرش، وكان تطبيق نظام دستوري من وسائل التجربة التي استهدفها الخطابي لأن الحماية حالت دون تطبيق الدستور الحفيظي.

الإسلام أس الدولة : دخل الإسلام إلى المغرب مع عقبة بن نافع غير أن البرابرة ارتدوا - كما قال ابن خلدون نقلا عن أبي زيد القيرواني - اثنتي عشرة مرة ولم تستقر كلمة الإسلام فيهم إلا لعهد ولاية (موسى بن نصير) فما بعده. وهذا معنى ما ينقل عن عمر من أن افريقية مفرقة لقلوب أهلها إشارة إلى ما فيها من كثرة العصائب والقبائل الحاملة لهم على عدم الإذعان والانقياد (م 1 ق 2 ص 293). وفي عام 85 هـ / 704 م تم إسلام المغرب الأقصى وحولت المساجد التي بناها المشركون إلى القبلة وجعلت المنابر

في مساجد الجماعات وأسس مسجد أغمات غيلانة (البيان لابن عذاري ط. بيروت 1950 ج 1 ص 37).

وذلك في أيام موسى بن نصير في خلافة الوليد بن عبد الملك. وقد وسع المولى إدريس نطاق مملكته الإسلامية الأولى واستكمل الإسلام انتشاره جنوبا فاستقر في كافة الأنحاء وتغلغل عن طريق المغرب في أقصى الجنوب إلى ما وراء السنغال.

وعرف المغرب إسلاما سنيا خلوا من كل الفرق، ولعل (الخوارج) كان أثرهم قد تقلص،ولذلك اتجه المولى إدريس خاصة إلى غزو تامسنا ومنها شالة فأسلم من كان بها من يهود ونصارى ووثنيين ثم خرج (173 هـ) لاستكمال دعوته في (تازة) وجنوبي فاس (وفازاز) ثم تلمسان فاستسلم له زعيم مغراوة (محمد بن خزر) الذي جعل حدا قبل بضع سنوات لإمارة (أبي قرة) الصفرية وكان سليمان أخو المولى إدريس قد سبقه إلى تلمسان حسب ابن خلدون وبذلك امتدت منطقة نفوذ المولى إدريس إلى شمال المغرب (عدا مملكة نكور) في سواحل (الريف) وناحية تازة وسهول المحيط الأطلسي إلى مصب (أبي رقراق) وجنوبي مكناس وفاس إلى تادلة وسبو علاوة على تلمسان.

ولما بلغ المولى إدريس الثاني نحوا من إحدى عشرة سنة بايعه البربر عام (188 هـ) في جامع (مدينة وليلي) بعد أن توالت بيعتهم في مراحل صباه وورد على الأمير الفتي خمسمائة فارس عربي من إفريقية والأندلس فجعل منهم حرسه الرسمي واستوزر (عمير بن مصعب الأزدي) كما استقضى عامرا القيسي وهو من تلاميذ الإمام مالك واستكتب عبد الله الخزرجي فكانت هذه المجموعة هي النواة الأولى لتعريب المغرب بعد توطيد إسلامه.

وقد تكاثرت الوفود المنضوية تحت لواء المملكة الجديدة فضاقت عاصمة وليلي واختط الأمير مدينة فاس قرب العيون النابعة من الوادي المعروف اليوم بوادي فاس في غيضة كان يسكنها زواغة وزناتة فاشتراها المولى إدريس وأتم بناء (عدوة الأندلس) عام 192 هـ بعد أن اختطها والده ثم أقام (عدوة القرويين) وبنى في الأولى (جامع الأشياخ) وفي الثانية (جامع الشرفاء) ثم أسس مسكنه في «دار القيطون» ثم القيسارية والأسواق وسميت عدوة القيروان باسم العرب الوافدين عليها من القيروان وهم ثلاثمائة كما سميت الأندلس بمن هاجر إليها من (الربضيين) الذين أجلاهم الحكم بن هشام عن الأندلس وهم بضعة آلاف عائلة.

وكانت الناحية خصبة لأن بلاد (السايس) تعتبر من أجود الأراضي الفلاحية المغربية على أن وجود فاس بين الريف والأطلس جعل منها مركزا اقتصاديا ممتازا يزداد أهمية بإشرافه على (ممر تازة) الواصل الشرق بالغرب ففاس هي مفترق الطرق الكبرى بين الجزائر وسهول الأطلنطيق وسواحل الريف وصحراء الجنوب فلهذا كانت فاس ـ كما يقول كَوتيي ـ gautier «آية في الاقتباس من الشرق» لأنها ظلت طوال قرون مهبط الرواد من الشرق والأندلس ومركزا انبثقت منه **أول جامعة إسلامية في العالم** عام 245 هـ.

وقد توفي المولى إدريس في سن مبكرة عام 213 هـ تاركا عدة أولاد عهد من بينهم لمحمد الذي قسم المغرب بين إخوته استجابة لجدته (كنزة).

وكان من بين القيروانيين والأندلسيين الذين نزحوا إلى فاس أدباء وعلماء وتجار ومزارعون مهرة مالبثوا أن نشروا أفكارا اقتصادية جديدة تمخضت عنها تدريجيا حركة تطورية حضارية طبعت مختلف مظاهر الحياة المغربية بطابع طريف لم يكن للقبائل عهد به في مجتمعاتهم واقتصادياتهم لاسيما وأن المغرب عرف لأول مرة بعد الفتح الإسلامي عملة وطنية موحدة سكت بفاس منذ عام 185 هـ.

وقد عرف المغرب بين انهيار حكم الأدارسة بفاس وقيام المرابطين فترة استمرت نحوا من مائة وأربعين سنة اتسمت بشيء غير قليل من اللبس والغموض إذا قورنت بالعصور التاريخية الأخرى نظرا لتوالي التقلبات تحت تأثير الغارات المتلاحقة من طرف الفاطميين والأمويين وانجذاب هؤلاء للأدارسة والعافيين والزناتيين في خضم من الفوضى العارمة التي جعلت المغرب أحوج ما يكون إلى زعيم صالح يوحد البلاد وينشر الأمن والرخاء مثل (ابن تاشفين).

مرت أربعة قرون على الفتح العربي ظل المغرب موسوما خلالها علاوة على الطابع الإسلامي الجديد ـ بتقسيمات قبلية تجاذبت أقاليمه المترامية على نسق موصول

لم يطرأ عليه تعديل محسوس وبالرغم عن غموض المؤرخين يمكن أن نستخلص من مقارنة النصوص أن القبائل الكبرى التي عرفها المغرب قبل الإسلام مازالت تحتفظ بأعصاب جاهلية تلقي أضواء كشافة على الانقلابات السياسية التي سيعرفها المغرب أزيد من ثلاثة قرون تداولت فيها تلك الفصائل السلالية حكم البلاد ضمن نعرة قبلية واضحة فالمصامدة شكلوا أغلبية سكان الأطلس الكبير مع قسم من الغرب في حين استوطن الصنهاجيون الأطلس الصغير وجنوبي السوس إلى (درعة) والواحات الصحراوية على أن التزاوج نمى مع الزمن تداخل العنصرين المصمودي والصنهاجي لاسيما في التخوم الفاصلة بين الأطلس والصحراء أما (الزناتيون) الذين قام اليفرنيون والمغراويون منهم بدور سياسي قبل ذلك فقد انتشروا في السهول مع (بني فاتن) في الجبال الشمالية ومكناسة بالملوية وتارة في حين انتشرت فلول العرب القليلة في الريف والصحراء وبعض الحواضر مثل سبتة وفاس وسجلماسة، والملاحظ أن المناطق التي كانت منذ تسرب الخوارج العرب إلى صحراء (تافيلالت) أصبحت نواة للامتزاج السلالي بين القبائل البربرية الثلاث من جهة، والشرقيين من جهة أخرى، والمرابطون ينتسبون إلى صنهاجة البرنسية التي تشكل نحو ثلث البربر والتي يندرج فيها نحو سبعين قبيلة منبثة في جميع أنحاء إفريقيا الشمالية لاسيما الجنوب الأقصى للسودان، وقد سبق للصنهاجيين أن أسسوا دولة (بني زيري) في إفريقية كما قام في الصحراء المغربية من اللمتونيين أمراء توارثوا الرياسة بعد الفتح الإسلامي ونشروا الدين الجديد إلى تخوم السودان.

ولم يكد المرابطي الأول (يوسف بن تاشفين) يستقل بالأمر حتى رتب جيوشه في فرق أربع جعل منها طلائع لتمهيد البلاد وما لبث أن نقل حاضرة ملكه إلى مدينة جديدة أشرف على تخطيطها هي مراكش (454 هـ) واختيار هذا الموقع ينم عن روح صحراوية وعن حاسة إستراتيجية لأنه مفترق طرق الأطلس والصحراء وقد حل المرابطون مشكل الماء بالخطارات التي ساعدتهم على غرس النخيل وكانت في البداية معسكرا بسيطا ولكنها استحالت تدريجيا إلى حاضرة بمساجدها وقصرها (دار الحجر) وقد عزز الزعيم الصحراوي هذا الجهاز الحضاري بعمال نصبهم في الأقاليم ومظاهر جديدة كالأعلام والطبول العسكرية.

وتركز نفوذ المرابطين بالمغرب الأقصى على دعامتين هما تأسيس مراكش واحتلال فاس ومن هاتين القاعدتين سينطلق الزحف بعد إعادة إرضاخ غمارة نحو المغرب الأوسط والأندلس في حركة ظافرة مالبثت أن وحدت العدوتين من السودان إلى قشتالة إلى طرابلس.

وفي (عام 470 هـ) اعتزم ابن تاشفين الجواز إلى الأندلس استجابة لصرخة (المعتمد بن عباد) فكان الاستنجاد إجماعيا من طرف الأمراء والعلماء والشعب بالبطل المرابطي الذي هب لإنقاذ الإسلام من هذا الخطر الداهم، ومات يوسف أوائل (500 هـ) فقام علي بعهد من والده وعمره ثلاث وعشرون سنة وبايعه أخوه (تميم) وتوافدت القبائل لتهنئته بمراكش من مجموع أنحاء الأمبراطورية، وكان الأمير الجديد أندلسي التكوين ربي في (سبتة) وعاش معظم حياته في اسبانيا.

كان الموحدون قد بدأوا يقضون مضاجع الدولة المرابطية فاصطدم الأمير الجديد بأكبر خطر داهم العدوتين منذ ثلاثة أرباع قرن على أن هجمات المسيحيين لم تفتر لأن «الفونس لوباطايور» طفق يقتطع من الأندلس باتساق مع ملك (أركون) الذي احتل سرقسطة وزحف عبر البلاد خلال خمسة عشر شهرا فكان ذلك المظهر الأول لتضعضع الكيان المرابطي أمام الجبهتين بانبثاق نوع جديد من (ملوك الطوائف). ومع ذلك استطاع المرابطون في عقود من السنين توحيد الأندلس تحت راية الإسلام رغم احتفاظ الأسبان بممالك الشمال.

وقد عرف المغرب في هذا العهد الوفرة والثراء وانتشرت (ضيع فلاحية) في البادية بفضل الأمن النسبي، وكان للتبادل المغربي الأندلسي أثره القوي في تكييف الاقتصاد وتنمية الموارد وأمست الحاضرة الجديدة (مراكش) مركزا تجاريا هاما بين الصحراء والشمال، ومهبطا لرواد الثقافة من أعلام الفكر بالأندلس، وقد سك (الدينار اليوسفي) باسم الأمير المرابطي والخليفة العباسي وبلغ وزنه 3,960 غرامات في مقابل أربعة غرامات ذهبا إلى 4,729 غرامات في عهد عمر بن الخطاب وقد ألقى المرابطون

المغارم والمكوس واقتصروا على الزكوات والأعشار والمغانم والجزية لتحقيق التوازن في (بيت المال).

وفي هذا العهد ظهر جيش نظامي جديد تعزز بالاغزاز المشارقة علاوة على فرسان القبائل البربرية وقد درب على الحياة العسكرية غير أن أغلبيته كانت من القبائل المستنفرة عند الحاجة وقد استعرض يوسف جيشه العتيد في (حصن لرقة) خلال جوازه الأول للأندلس كما استعرض حفيده (تاشفين) قواته في تلمسان (عام 538 هـ).

وقد أدخل المرابطون عنصرا جديدا في الفن البربري فتركز المزيج المغربي الأندلسي واستمرت عملية الانصهار منذ ذلك العهد نحوا من ثلاثة قرون، واتجه المرابطون خاصة، نحو (هندسة المساجد) التي لم يخل منها ربض ولا زقاق في كُبْريات الحواضر وعززوا الحصون والقلاع التي استمدت من الهندسة الأطلسية، كما أسفر التبادل بين العدوتين عن ازدهار الصناعة التقليدية والأساليب المعمارية وقد ورد على المغرب مهندسون وصناع قرطبيون منذ عهد (يوسف بن تاشفين) ساهموا في بناء العمارات والمساجد بطابع جديد.

وخلافا لما زعمه (دوزي) يمكن القول مع (طيراس) بأن المرابطين طعموا الحضارة الأندلسية وقد أبرز المؤرخون الأسبان الدور الذي قام أمراء (لمتونة) في تشجيع الأدب والعلم والفن.

وقد دارت معركة (عام 516 هـ) مني فيها اللمتونيون بأول هزيمة فاتسع نفوذ (ابن تومرت) الذي أقام (عام 519 هـ) بتينمل دارا ومسجدا على وادي نفيس في شعبة الأطلس الكبير وكانت مناعة الجبل خير حمى من سطوة اللمتونيين وهنا **دعم ابن تومرت كتلته الأطلسية على فكرة دينية** أذكت أوراها عداوة تقليدية ضد صنهاجة الملثمين وظل يتنقل من شرق الأطلسي إلى غربه بالغا سواحل المحيط بأكادير حيث أقر أتباعه بإمامته وأمسى بصفته (المهدي المنتظر) رئيس دويلة حاضرتها المحصنة (تينمل) **وهدفها إقرار الإسلام الصحيح على هدى القرآن.**

وقد توفي المهدي (بين 13 و29 رمضان عام 524 هـ) بعد أن بشر أتباعه بالنصر وقدم عبد المومن للصلاة عليه ثم انبرى في غزوة استمرت سبع سنين (534 ـ 541 هـ) لفتح (المغرب الأوسط) بعد تمهيد (المغرب الأقصى) وكانت انطلاقاته الأولى من تينمل.

وما إن انتهى (عبد المومن) من تمهيد (المغرب الأقصى) حتى اتجه نحو الأندلس وكان عهد جديد لملوك الطوائف قد انبثق باستقلال إمارات قديمة وبروز رؤساء جدد وزحزح المرابطون عن قلاع ومدن كاشبيلية وغرناطة ثم (الجزر الشرقية) حيث صمد (بنو غانية) بينما ثار في يابورة والأميرال المرابطي (علي بن ميمون) في قادس.

كان عبد المومن يظهر رغبته في استكمال احتلال إفريقية لتخليص البلاد من خطر (الغزو النورماندي) وقد استصرخت به وفود إفريقية حين نكبتها الجنود الصقلية فهب (عام 554 هـ) يغذ السير نحو المغرب الأدنى في حركة متئدة تصون المحاصيل ضاربا المثال الصالح في إقامة شعائر الدين واحتذاء سنن السلف فوصل إلى تونس معززا بسبعين قطعة بحرية فانصاع أهلها مستأمنين.

وفي سنة الأخماس (555 هـ) اكتملت وحدة القسم الشرقي في الأمبراطورية الموحدية من برقة إلى تلمسان حيث أقرت الحاميات ونصب الولاة والقضاة ورفرفت راية الإسلام من جديد في هذا الصقع المترامي كما مسحت الأرض إلى السوس الأقصى فراسخ وأميالا ففرض الخراج على ثلثيها زرعا وفضة التزمت القبائل بأدائها كما أنضم الأعراب الهلاليون إلى الدولة لاسيما بعد (معركة القرن) التي نكبت فيها فلولهم المتخاذلة عن الجهاد في الأندلس ونقل نسائهم وصبيانهم إلى مراكش وهكذا انشغل الخليفة طوال خمس عشرة سنة في توطيد الشق الإفريقي من الأمبراطورية فزحف في نفس العام نحو العدوة الشمالية بعد أن اصدر الأمر وهو في غمرة الجهاد بتحصين جبل الفتح (جبل طارق). وكان الأسطول قد نما جهازه عام 557 هـ بأربعمائة قطعة رابطت في الثغور الكبرى منها مائة وعشرون في المعمورة (وهي المهدية بمصب نهر سبو) ومائة موزعة على طنجة وسبتة وبادس وموانيء الريف ومائة أخرى في مراسي إفريقية والجزائر وثمانون بسواحل الأندلس كما تعزز العتاد والسلاح وديوان الجيش بأربعين ألف فارس كومي وانتظم الحشد (558 هـ) فتوافد الجنود من

كل الأنحاء استعدادا للجواز الثاني إلى الأندلس وكان العرب الهلاليون في صف واحد مع زناتة والموحدين وباقي البربر في ثلاثمائة ألف فارس انتشروا بين مصبي سبو وأبي رقراق إلا أن المنية عاجلت الخليفة بسلا (18 جمادى الثانية (558 هـ) فنقل جثمانه حيث دفن قرب المهدي.

وعرفت الدولة الموحدية خلال نصف قرن عنفوان مجدها وتعاقب عليها ملوك برزوا في مدارج الحضارة وركزوا عوامل الاستقرار والانبعاث في الأندلس وإفريقيا الشمالية فكانوا بحق زهرة هذا العصر لم تتجدد إلى الآن في الأمبراطورية العربية الإسلامية معالمها الوضاءة وقد امتاز المغرب في هذه الفترة بسياسته الأصلية وسيادته الرصينة بإفريقية والبحر المتوسط.

وكان القرنان الخامس والسادس أبرز العصور العلمية في المغرب حيث أصبح بلاط مراكش ملتقى الفلاسفة والأطباء والشعراء وتحرر الفكر بصورة لم يسبق لها مثيل وحفلت أندية الفكر بالعدوة الجنوبية برجالات أفذاذ أمثال ابن طفيل وابن باجة وابن رشد وبني زهر علاوة على كبار الصوفية مثل أبي يعزى وأبي غالب القصري والسهيلي وابن حرزهم وأبي شعيب السارية وأبي شعيب الأنصاري كما ازدهر العمران وأينع الفن والاقتصاد وتعزز بتنظيمات جديدة.

وقد استطاع الموحدون بفضل ما أبدعوه من روائع تبوؤ المقام السامي في تاريخ الفن لا سيما في عهد يوسف الذي عاش باشبيلية وتشبع بالثقافة الأندلسية وجمع خزانة تضاهي مكتبة الحكم الثاني.

وقد عمت الرفاهية مجموع البلاد ـ كما يقول طيراس الذي أكد أن مدن المغرب بلغت من الازدهار مبلغا لم تعرفه من قبل أما في الأندلس فإن النظام الذي أقره الموحدون قد جعل حدا ـ حسب أندري جوليان ـ للفوضى المالية التي كان يتخبط فيها ملوك الطوائف وأسست ضيع تجريبية بمراكش ومكناسة وفاس وتازة واشتهرت بحيراتها شرائها في غراسة الزيتون كما ازدهرت الصناعة بالحواضر والبوادي فأصبحت سبتة في طليعة مراكز إنتاج الورق الذي لم يكن يضاهيه جودة سوى ورق شاطبة (الورق الشطبي) وقد أحصيت بفاس وحدها أيام المنصور والناصر 3.094 من أطرزة النسيج و47 معملا للصابون و85 معملا للدباغة و12 معملا لتسبيك الحديد والنحاس و11 معملا للزجاج و400 معمل لصنع الكاغد علاوة على المطاحن والمخابز وأفران الجير أما العملة فقد وطد الموحدون قيمتها الذهبية حيث رفعوا وزن الدينار من 3.960 غراما ذهبيا في العهد المرابطي إلى 4.729 غراما ذهبيا كما كان في عهد عمر بن الخطاب وبقي الدينار مربعا إلى عهد المرينيين حيث استدار مع احتفاظه بوزنه.

وكان للموحدين جيش عتيد اقتلع جذور (النورمانديين) من إفريقية بفضل أسطول قوي ساد البحار فكان أول أسطول في المتوسط (حسب أندري جوليان) وأسست في هذا العهد كتابة لديوان الجيش النظامي الذي كانت نواته الأولى هي ثلاثة آلاف الطلبة الذين تم تدريبهم بالإضافة إلى العلوم التقليدية على ركوب الخيل والسباحة والرماية والتجديف في بحيرة المرة (المنارة) وتضخم هذا الجيش بانضمام الأغزاز والأكراد والعرب إلى أن بلغ نصف مليون.

ويمكن القول بأن الموحدين أقاموا أقوى دولة عرفتها إفريقيا الشمالية والأندلس فكان عصرهم فترة ذهبية في تاريخ الإسلام.

وبعد وقعة العقاب : (609 هـ 1212 م) بدأت الدولة الموحدية تنهار.

وفي النصف الثاني من القرن السابع الهجري استكملت وحدة البلاد في حدودها الإفريقية ووجد المرينيون في المغرب الجديد ثروة في الرجال والسكان واستقر العمران وانتشر الرغد وازدهر الاقتصاد في الحواضر إلا أن القبائل العربية أصبح لها ضلع في تركيز الحياة السياسية والاجتماعية والسيطرة على الكتل البربرية ثم التسرب إلى جهاز الدولة بالمصاهرة والإقطاعات التي استدروا بها جبايات الحاضرة والبادية وتمخض استيطان البدو والأعراب في السهول والواحات عن اتجاه اجتماعي جديد في المجتمعات البربرية عدا الأطلس الذي احتفظ بأصالته واستقلاله الذاتي بالرغم عن بربرية الدولة في حين ظهرت الحياة الظاعنة حتى في المراكز الفلاحية التي كان يغلب عليها الاستقرار وتوطدت اللغة العربية في أصقاع متنائية، وبذلك تعززت الوحدة السياسية رغم ظهور العناصر

العربية الجديدة التي ملأت أزيد من نصف البلاد والتف معظمها حول يعقوب الذي أمسى أقوى ملك في الغرب الإسلامي حيث ارتكز على العرب وزناتة معا في قيادة جيوشه وتوطيدها.

وكانت مطامح (الفونس العاشر) في غزو الثغور الإفريقية لم تتبلور بعد لأن غاراته لم تكن تعدو جولات لنهب السواحل المغربية مع تضييق الخناق على (المملكة النصرية) وحصرها في إقليم جبلي تحت حماية (قشتالة) وقد اتخذ محمد الفقيه ابن الأحمر في هذا الساحل الوعر مدينة غرناطة حاضرة لإمارته وشيد بها (قصر الحمراء) واستعان أول الأمر بالأمراء المرينيين اللاجئين إليه ولكن تكالب القشتاليين وانبثاق (الروح الصليبية) حدته - استجابة لوصية والده - إلى إيفاد مشيخة الأندلس للاستنجاد بيعقوب.

غير أن انهماك الأمراء المرينيين في تمهيد وحدة البلاد واستئصال الأدعياء والثوار شغلهم عن الأندلس نحوا من ربع قرن اضطلعت خلالها ثلة من الأمراء المهاجرين بوصل حلقات الجهاد ضد الجلالقة.

ولعل أعظم ملوك بني مرين وأوسعهم نفوذا هو أبو الحسن الذي عقد له والده أبو سعيد ولاية العهد وأسند إليه مراسيم الإمارة منذ استقل أخوه أبو علي بالحكم واتخذ لنفسه شارة الملك بالصحراء. وقد ذاع صيته في العالم الإسلامي وتواردت عليه برد سلطان مصر والشام والحجاز الملك الناصر محمد بن قلاوون وتبودلت (738 هـ) الخطابات والهدايا الثمينة من الأحجار الكريمة والحلل المذهبة والمرصعات والدرق اللمطية والخيول والصحف واستوثقت العلائق بعد وفاة الناصر (741 هـ) مع نجله أبي الفداء إسماعيل حيث وصل الوفد المغربي إلى مصر بعد أربع سنوات (745 هـ) وقد وصلت كذلك تهاني السودان عن طريق سفارة وجهها سلطان مالي منسي موسى إلى أبي الحسن فبعث سلطان المغرب وفد الرد على التهنئة مع هدايا فاخرة وهكذا حقق أبو الحسن ما طمح إليه أسلافه فرضخ له ملوك عصره واكتمل بعقدهم انصياع ملك غرناطة محمد الرابع (نجل السلطان أبي الوليد بن أبي سعيد فرج بن الأحمر) الذي وفد على أبي الحسن بفاس عام 732هـ للاستنجاد به ضد القشتاليين حيث كانوا قد احتلوا جبل الفتح (جبل طارق) منذ ربع قرن (709 هـ) فاسترد الأمير أبو مالك نجل السلطان المريني هذا الحصن (733 هـ) بخمسة آلاف من الأجناد البواسل، غير أن هذه الأمبراطورية الجديدة كانت منهارة من أساسها فمنذ 738 هـ تقاعس السلطان عن القدوم إلى تلمسان لتهنئة صهره أبي الحسن الذي طال انتظاره فكانت النكسة الأولى التي أكدت هلهلة الصلة بين المملكتين رغم محاولة الخليفة لتعزيز الروابط بالمصاهرة مرتين وضعفت الروح العائلية لدى الأسر المالكة إذ ما كاد أبو الحسن يعتل وهو في أرباض تلمسان حتى سعى كل من ولديه أبي عبد الرحمن وأبي مالك إلى التسابق للحكم، وقد سبق لأبي الحسن أن أشركهما في ألقاب الإمارة والتناوب على أريكة الخلافة فانبثقت كتلتان وانقسم المخزن شطرين وتجلى ضعف قاعدة الدولة والسلطان لا يزال حيا فلم يسعه إلا التماسك للظهور من جديد من أجل استئصال هذه الدسائس وفر أبو عبد الرحمن الذي كان أحرص على استعجال الحكم من أخيه فأرجعه عرب بني زغبة الهلاليون إلى والده فاعتقله بوجدة حتى قتل عام 742 هـ. ولكن أبا الحسن مات سنة (752 هـ)، وبذلك انقضى عهد رجل جمع إلى العفة والتقوى والحزم حنكة واسعة حدته إلى بذل أكبر مجهود اضطلعت به الدولة المرينية فجدد بذلك عصور الخلفاء الموحدين وكتل قبائل زناتة التي عرفت لأول مرة في تاريخها مظاهر الوحدة والمجد غير أن مقومات الدولة كانت قد تهلهلت وداخل الطمع جانبا من المخزن والأسرة المالكة وتنافس العرب والزناتيون في اقتسام النفوذ في المغارب الثلاثة علاوة على تكالب القوات الصليبية في الأندلس ومن أجل ذلك حيث في شخصه إفريقيا والشرق الأدنى وقشتالة أكبر أمير من بني مرين.

وبالرغم عن الانتصار الخاطف الذي مهد في الظاهر المغربين تحت لواء أبي عنان فإن دواعي الانهيار كانت تنخر كيان الدولة المرينية وتجددت تلك الظاهرة المستديمة في تاريخ المغرب منذ عهد (ماسينيسة) وهي الصراع الموصول بين القبائل الرحالة والأفواج القارة أو القرى والحواضر وكان البدو العرب هم الذين تزعموا هذا

العبث فكانوا حربا على أبي الحسن وولده لقطعهما الإتاوة (الخفارات) التي كان الذواودة ورياح يتقاضونها وقد استنفد أبو عنان مثل أبيه موارده العسكرية في تعقب المشغبين الذين كانوا يلوذون بالفيافي للكر من جديد متى بعدت جيوش السلطان عن الأمصار.

وإذا كان المغرب قد اقفر من جراء العواقب الوخيمة التي توالت كنتيجة لوقعة (العقاب) فإن البلاد ظلت مع ذلك جذابة «بخصبها ونقاء هوائها وسعة مسارحها ومراعيها وعذوبة مياهها وكثرة أنهارها والتفاف أشجارها وبركات ثمارها» ولم تكن لتقضي عليها أزمة عابرة وإن كان المرينيون قد استغلوا هذا الوضع الشاذ للانقضاض على الموحدين ومع ذلك فقد وجدوا مغربا وفير السكان غنيا برجاله وموارده تذكيه حركة اقتصادية قوية وتطبعه حضارة يانعة بميسمها الرقيق ولعل من أبرز مظاهر الازدهار الاقتصادي قوة النقود الاقتنائية لأن العملة معيار ثراء الدولة وقد لاحظ ابن بطوطة أن القوة الشرائية بالمغرب كانت تعدل ثلاثة أضعافها بمصر وقد اتجهت حركة البناء اتجاها اجتماعيا حيث تزايد عدد المارستانات وأسست المدارس ورصدت الأوقاف الوافرة لتجهيزها وتسييرها ولكن عصر أبي الحسن كان نهاية عهد الازدهار حيث كان على حد تعبير (أندري جوليان) أقوى ملك في القرن الرابع عشر وما كاد أبو الحسن يندحر في (طريف) حتى بدأت الضربات تترى على المغرب من المسيحيين وازداد العبء تضخما بسبب الزحف العسكري نحو إفريقية فتقلص المجهود الاقتصادي والعمراني بطغيان عوامل الفتنة ومقتضيات التسلح لمواجهة الخطر الداهم وقد عرف المغرب أيام أبي عنان أزمة اقتصادية كادت تؤدي بحياة الأسرة المالكة وتفاحش الغلاء نظرا لتضاؤل مواد العيش وتضخم العملة فارتفعت قيمة منزل السكنى بفاس إلى ألف دينار وهو مبلغ باهظ في ذلك العصر وحاول السلطان مقاومة الأزمة بإسعاف الفلاحين الذين هم قوام الحياة الاقتصادية في بلد زراعي، فوزع عليهم الحقول والأراضي وأزواج البقر لحرثها.

أما في الحقل الصناعي، فإن التطور قد تبلور في الصناعة التقليدية التي بدأت ترث مقومات الفن الصناعي الأندلسي فانتشرت صناعة الجلود والمعادن والنقوش الجبسية والخشبية والزليج والفسيفساء فهذا أبو عنان يصنع على يد موقته علي التلمساني عام 758 هـ منجانة بطيسان من نحاس فوق مدرسته بفاس جعل شعار كل ساعة أن تسقط صنجة في طاس وتنفتح طاق.

وقد خلف بنو مرين الموحدين فوجهوا الفن اتجاها جديدا تبلورت فيه الازدواجية المغربية - الأندلسية بصورة أعمق وأدق، وقد ظهرت في نفس العصر حركة فنية عند بني عبد الواد في تلمسان والحفصيين في تونس بينما واصل بنو نصر في غرناطة نشاطهم ضمن تقاليد الفن الأندلسي الأصيلة إلا أن الطابع العام كان واحدا لم تختلف فيه سوى الأطر وبعض التصميمات والمظاهر الزخرفية.

أما القوة العسكرية فإنها لم تقل مناعة عنها في عهد الموحدين وقد شاركت قبائل زناتة والعرب المستقرون في المغرب فكون هؤلاء كتائب الفرسان بينما اختص الأندلسيون في حمل الأقواس والمرتزقة كنبالين ورماة واستعملت الجيوش المرينية لأول مرة البارود في محاصرة سجلماسة عام 671 هـ.

وبذلك يمكن القول بأن تجربة أبي الحسن وولده أبي عنان لم تخل من روعة وسمو رغم ما أحيطت به من مظاهر الارتجال.

وقد امتاز عصر الازدهار المريني بمظاهر الفخفخة والعز فاتخذ أبو الحسن ألقاب الخلافة وأعلاما بيضاء زخرفت بآيات قرآنية مذهبة وطبولا وأريكة العرش في ردهة بثت فيها الزرابي مع (برج الذهب) للاستعراض في الساحة العمومية بفاس الجديد ومدينة متنقلة محاطة بسياج من القطائف (أفراك) قد تفتحت في جوانبها أربعة أبواب وكذلك شارة الملك أو العلامة كما تعزز الجيش بمرتزقة من الأغزاز هم من بقايا العهد الموحدي وانتظمت أجور المشيخة المرينية (60 مثقال إلى ستة مثاقيل ذهبية في الشهر) ووحدة الزي عند زناتة والعرب والمسيحيين (عمائم مسدلة على الأكتاف ومناطق مبهرجة ورماح) وفي الحقل الديني تزعم المرينيون حركة السنة رغم تشجيعهم للصوفية وانبثقت طريقة امتدت فروعها في الشرق نتيجة للروابط المستوثقة مع الكنانة والشام والحرمين فتتلمذ البوصيري لأبي محمد صالح كما نشر أبو الحسن الشاذلي الغماري في الشرق طريقة شيخه مولاي عبد السلام بن مشيش وقد

اعتنى المرينيون بالصوفية فجعلوا منهم روادا في طلائع الجهاد بالأندلس وأسسوا مدارس للطلبة والنساك تركيزا لهذا الجهاز المزدوج من علماء السنة والتصوف.

غير أن هذا الإطار الفخم مالبث أن تهلهل بانبثاق معسكرات داخل البلاط واستبداد الوزراء والحجاب وتسابق الأدعياء واضطراب السلطة وتدخل المرتزقة والمليشية المسيحية وأمراء بني نصر وبني عبد الواد بل وحتى ملوك الجلالقة في أزمات العرش الذي توالى على أريكته زهاء العشرين ملكا بعد أبي الحسن قتل أو خلع أغلبهم.

وظهرت في الجنوب والصحراء إمارات إقطاعية مافتئت أن استقلت عن فاس بثورة المصامدة والعرب المعاقلة والأطلسيين.

وهكذا بدأت مظاهر أزمة عصيبة تلوح في أفق قاتم بسبب تطاحن بني وطاس وبني مرين ثم السعديين وزحف الصليب على ثغور الأندلس وسواحل المغرب ضمن حركة استعمارية عارمة في نطاق ما يسمى (Reconquista) (ارتداد الغزو الايبيري) وبرزت مراكز الهند الاقتصادية وانتقلت أوروبا من العصور الوسطى إلى فترة ما قبل النهضة وامحت معالم (الفردوس المفقود) وزحف الإسلام من الشرق على أوربا تحت راية العثمانيين وأصبح المغرب نظرا لوضعه الجغرافي موزعا بين مطامع الأتراك في حدوده الشرقية والأسبان شمالا والعالم الجديد غربا وكانت سواحله بالبحر الأبيض المتوسط مسرحا لعراك عنيف بين الهلال والصليب تبلور في سقوط الأستانة (858 هـ / 1453 م).

وأبرز سمة طبعت الثورة الشعبية في هذا العصر الذهبي هي ثورة العلماء والصوفية ضد تدخل الصليب في شؤون الإسلام واحتلال المسيحية لثغور المسلمين وبدأت نقطة هذا الانطلاق في حركة الجهاد المنبثقة في ربض سبتة التي كانت أول معقل مغربي اقتحمته الكاثوليكية ولمس المسلمون خطرا داهما لم تنزجر قبائل العرب من جرائه عن عبثها ولا الملوك الحفصيون والزيانيون والوطاسيون عن تناحرهم.

وكان رجال التصوف يؤسسون المعاقل لدعم حركة الجهاد فاختط المجاهد أبو جمعة العلمي ثم ابن عمه علي بن موسى بن راشد في نفس السنة مدينة شفشاون في نقطة إستراتيجية سيرتكز عليها آل الخطابي في حرب الريف 1920 ـ 1926 ثم شيد المهاجرون الأندلسيون المنحدرون إلى المغرب قبيل استيلاء الأسبان على غرناطة عام 897 هـ مدينة تطوان بمساعدة بني راشد فأصبحت قاعدة للهجمات التي والاها المجاهدون بقيادة علي المنظري ضد الوجود الأجنبي في المغرب وكان البرتغاليون قد اكتسحوا معظم ثغور الشمال وبدأوا يزحفون نحو المراكز الساحلية بالجنوب (أنفا عام 874 هـ والبريجة عام 907 هـ وأكادير عام 910 هـ) فمات في غضون ذلك محمد الوطاسي (910 هـ) وخلفه ولده محمد البرتغالي الذي كان يخوض غمرة الجهاد في الشمال بينما انبثق السعديون لمواجهة الاحتلال الأجنبي في الجنوب وقد قاوم الشعب في هذه الغضون مقاومة عنيفة رغم قلة الحاميات النظامية فكبدت الجماهير العدو خسارات فادحة في آسفي وأزمور طوال سنوات عديدة وزحف الجيش البرتغالي (912 ـ 914 هـ) نحو أصيلا المحتلة منذ عام 876 هـ للاقتصاص من الذين أذاقوه مرارة الأسر سنوات، فالتحم الفريقان داخل المدينة ولكن النصر حالف الأسطول البرتغالي والأسباني الذي عزز مراكزه في المتوسط والأطلنطقي بتأسيس بادس واحتلال وهران (914 هـ) ثم المعمورة أي المهدية (920 هـ) وفي نفس الفترة (922 ـ 923 هـ ـ 1515 1517 م) بدأ العملاق التركي يغزو الجناح الشرقي من البحر المتوسط فكانت بداية عصر التحجر والانحطاط في العالم العربي إذ انقلبت العصور الوسطى (395 م ـ 1453 م) التي ازدهرت في فترة منها معالم الحضارة الإسلامية إلى عهد صراع بين مدنية إسلامية متحجرة وحضارة أوربية نامية وساوق هذا الصراع في الصعيد العالمي صراع إقليمي بين السعديين والوطاسيين.

وكان لسقوط الأندلس وغزو البرتغاليين والأسبان لسواحل إفريقيا الشمالية رد فعل قوي في نفوس الجماهير التي انتفضت في الحواضر والبوادي للجهاد في معركة صليبية عنيفة اتخذت المغرب مسرحا لها وقد أذكى هذا الاعتداء الروح العسكرية وبغض الأجنبي المغير وتبطنت هذه الوجهة الساذجة باتجاه صوفي جديد نما وترعرع ضمن وحدة شعبية شاملة قاد ثورتها العلماء والصوفية والأشراف وقد أصبح أقطاب التصوف في هذه الفترة جهابذة العلوم

والفنون وستتبلور الزعامة العلمية خلال القرن الحادي عشر في ثلاثة من قادة الصوفية وانضاف إلى ازدهار الثقافة الإسلامية إشعاع روحي جعل من الأمة الواعية كتلة متراصة في وجه العدو.

وفي هذا الخضم العارم انبرى السعديون لقيادة الثورة تحت شارة الانتساب لآل البيت وكان البرتغاليون قد نفذوا إلى السوس حيث انتشرت الفوضى لانشغال الوطاسيين بالجهاد في الشمال.

كان الأتراك مشتغلين باحتلال البلقان وأوربا الوسطى فكان للقراصنة الفضل الأول في طرد الأسبان من ثغور الجزائر وتونس وإخضاع الإيالتين للحكم العثماني ضد بني عبد الواد والحفصيين وكان القراصنة قد استقلوا ببعض المراسي وأسسوا جمهوريات حرة وتزعموا حركة الجهاد في البحر المتوسط. وقد واجه عبد الله الغالب منذ اعتلائه العرش مشكلة خطيرة هي وجود عميه عبد الملك وأحمد في القسطنطينية لاجئين عند السلطان سليم يستحثانه لإمدادهما بالجيش والعتاد لاعتلاء أريكة المغرب الأقصى وامتاز مولاي عبد الملك (983 ـ 986 هـ) (1576 ـ 1578 م) بأصالة في الرأي نتجت عن تقلباته في الخارج واحتكاكه بشتى الحضارات التي كانت تتفاعل إذ ذاك في الأمبراطورية العثمانية حيث أجاد الأسبانية والإيطالية والتركية.

وبعد مبايعته بفاس وبذل المال والهدايا للجند التركي مع عشرة مدافع والتظاهر بالدعوة للسلطان (مراد) على المنابر رحل العثمانيون عن المغرب واتجه نحو مراكش في جيش جديد تعزز قوامه الفاسي والأندلسي بأتراك وجزائريين (زواوة) وعرب واصطدم الأميران في (وادي شراط) فانهزم المتوكل واتجه إلى (إشبونة) فتطارح على ملكها الشاب (الدون سبستيان) الذي كانت نفسه الطموح تحدثه بغزو المغرب في حملات صليبية وحسب الأمير المغرور الفرصة سانحة فاهتبلها رغم نصح رجال الدولة بالعدول عن هذه المغامرة الزائفة، وبرر (المتوكل) هذه الحملة الصليبية على المغرب وفتح أبواب أصيلا للمسيحيين ـ وكانوا قد جلوا عنها أيام محمد الشيخ ـ بتقاعس المسلمين عن نصرته فأجابه العلماء والأجناد برسالة حملوه فيها تبعة الفرار من المسؤولية والنزو على العرش الذي عهد محمد الشيخ به للأكبر فالأكبر وسار الأجناد البرتغاليون في حركة بطيئة بعرباتهم ومعداتهم الثقيلة فوصلوا إلى أرباض (القصر الكبير) في ظرف زهاء عشرة أيام واستنفر أبو مروان في هذه الأثناء جيش فاس بقيادة أخيه لمواجهة هذا الزحف الأجنبي، ولكن أبا مروان استعجل سبستيان بالتحدي فعبر وادي المخازن وعسكر قبالته وبادر أبو مروان غب وصوله بنسف قنطرته فانحبس البرتغاليون بين نهرين وتعذر عليهم كل تراجع إلى الخلف لانعدام المشارع في الوادي وانتظم الرجالة المسيحيون ضمن مربع قبعت في قلبه قوافل عربات المؤن والذخيرة ووقف الرماة في الطليعة والفرسان ميمنة وميسرة وواجههم المسلمون في نفس النسق في شكل هلال مسرح الأجنحة للانقضاض من الجوانب عند الاقتضاء وبدأت المعركة في الهجيرة (متم جمادى الأولى عام 986 هـ ـ 4 غشت 1578) وأشعة الشمس تبهر عيون العدو ولهيبها يلفح وجوههم وأسنة الرماح وقذائف الأنقاض تهددهم من أمام والمياه الزاخرة من خلف وسارع جيش أبي العباس إلى الهجوم فانقضت ميمنته على مؤخرة العدو بينما اتجهت الميسرة ضد الرماة فتهالك المسيحيون صرعى من جراء هذه الصدمة العارمة وانحازت الفلول الفارة فغرقت في اليم وفي ضمنها سبستيان والمتوكل ولفظ أبو مروان نفسه الأخير بعد استعصاء مرضه فسلخت جثة المتوكل وحشيت تبنا وطيف بها في المدن وسلمت أشلاء الأمير البرتغالي من طرف الأمير أبي العباس إلى ذويه ونقل رفات أبي مروان الشهيد إلى مقبرة الأسرة بمراكش وبويع أحمد خليفة فخف للقبض على زمام الأمر بعد استتباب النصر وإعلان موت السلطان بينما تسارعت الفلول المهزومة لاجئة لأصيلا حيث بقي الأسطول رابضا.

وإذا كانت هذه المعركة الفاصلة فترة عارضة في تاريخ الصراع بين المسيحيين والإسلام ـ كما يزعم طيراس ـ فإنها كانت انتفاضة شعبية ضد الصليبية المعتدية أنزلت الضربة الأخيرة بالطموح البرتغالي وفككت أوصال دولة البرتغال لأن (الدون سبستيان) مات بدون وارث فخلفه (فيليب الثاني) ملك اسبانيا التي اندمجت فيها البرتغال أزيد من ستين سنة فكانت معركة قضت على الوجود البرتغالي بالمغرب كما قضت وقعة طريف البسيطة العادية

على الوجود المريني في الأندلس ولكن صدمتها كانت من مظاهر عناية الله بالدولة الناشئة التي خطبت ودها الدول العظمى لأن هزيمة دولة استعمارية كالدولة البرتغالية لم يكن بالشيء الهين ولا بالشيء الذي يمر دون أن يثير إعجاب العالم مهما تكن حقيقة الأوضاع والملابسات وأشع هذا الانتصار ففتح عهدا جديدا في علائق النصرانية والإسلام.

وقد بويع أبو العباس أحمد المنصور غداة انتصاره في معركة وادي المخازن من طرف الجند الذين أغدق عليهم هداياه وتنازل لهم عن خمس المغانم مقابل الأعطيات العادية ثم تجددت البيعة بفاس (جمادى الثانية 986 هـ) وكان المنصور عالما شاعرا رقيق الحاشية له ولوع بالمعارف الطريفة قد أكسبه مقامه في الأستانة اطلاعا على شؤون أوربا ودول البحر المتوسط فأظهر مهارة ودهاء في توجيه سياسة المغرب الخارجية وقد بادر باستغلال النصر فأبرق إلى السلطان (مراد) ببشارة انهزام قوات الصليب وتوالت عليه وفود التهنئة من تركيا والجزائر وقشتالة وفرنسا وحتى البرتغال بالهدايا والتحف الثمينة استعرضت في حفل شعبي بفاس.

وكان شغوفا بمظاهر الحضارة الأندلسية المغربية وبالطابع القومي في الفكر والتقاليد وكان المرض العصيب الذي ألم به في السنة التالية (987 هـ) قد ضاعف من اتزانه وانكبابه الجدي على دعم مقومات الدولة التي حاول أن يضفي عليها طابعا إفريقيا بتوسيع رقعتها في أقصى فيافي الجنوب ولعل اندحار البرتغال هو الذي حداه إلى أن يخلفه في اكتساح الصحراء والسودان.

واستشعر المنصور من مقامه في دار الخلافة العثمانية بما للمظاهر والشكليات من أثر عميق فوسم بلاطه بمعالم الفخفخة وشيد (قصر البديع) وشكل جيشا جديدا عزز فيه العنصرين العربي والبربري بالمرتزقة الأتراك والأندلسيين وأحاط مراسم الملك بهالة من القداسة تبلورت في الألقاب الرنانة والحفلات الدينية الرائعة وإبراز الشرف السلالي في الجمع والأعياد والمواسم الطارئة.

وبدأ المنصور بتنصيب ولي عهده محمد المامون (987 هـ) وهو بفاس وتجددت الحفلات بعد سنتين فخرج الخليفة إلى الأرباض لاقتبال ولده وتجلت التراتيب الطريفة في الجهاز العسكري بتنافس فاس ومراكش وأشاد الشعراء بالأمير الشاب الجالس على (السرادق) بحضرة (أهل الحل والعقد) من العلماء والقادة والأجناد.

ولم يغب عن ذهن المنصور في هذا الخضم من المناورات الداخلية ماكان يهدد كيان المملكة من الخارج لولا النزاعات الأروبية التي وجد فيها الخليفة حاجزا مؤقتا وكان الصراع قائما آنذاك بين بلاد النمسا وانجلترا وفرنسا وهولندا مما قلص سياسة التوسع الإفريقي الأسبانية ومعلوم أن (شارل الخامس) ملك إسبانيا كان أمبراطورا للنمسا وألمانيا وحارب ملك فرنسا (فرانسوا الأول) طوال ثلاثين سنة وكذلك الأتراك وخلفه ولده (فيليب الثاني) الذي ملك إلى جانب إسبانيا هولندا ثم البرتغال بعد مرور ثلاث سنوات على معركة وادي المخازن (1580 م) وعاش بعد ذلك زهاء العشرين سنة (إلى 1598 م) لم تمكنه الظروف خلالها من استفزاز المغرب الذي كانت ذكرى انتصاره الباهر مازالت عالقة بالأذهان كما انغمرت تركيا في الحروب الأوربية فلم تعد تهدد المغرب وكان بذخ المغرب وقصوره الفخمة وعملته القوية تحذو الدول إلى خطب وده تقديرا لعسكره وإبريزه وبعد أن كان (فيليب الثاني) يطمح إلى احتلال العرائش اضطر إلى التنازل عن أصيلا (1592 م) لحمل السلطان على عدم تأييد (الدون انطونيو) الطامع في عرش البرتغال.

وكان المنصور قد اقتبل ببرود وفد (مراد العثماني) الذي ورد على مراكش للتهنئة بالنصر فحنق (الباب العالي) وأنصت للطامعين في غزو المغرب أمثال (الباشا علي علوج) الذي تمكن من إقناع السلطان بتوجيه حملة ضد مراكش وطرق الخبر سمع المنصور فاستعد للنزال بينما وجه إلى القسطنطينية سفارة فيها(الأحمدان ابن ودة والهوزالي) لقيت أسطول علوج في طريقه إلى المغرب فتم التهادن وتبادل الوفادات والهدايا وعززت أسبانيا حلفها للمغرب خوفا من وجود علوج بالقرب من مركزها بوهران ولكن علوج أقصي إلى الشرق الأدنى ومات بعد خمس عشرة سنة فتقاربت اسبانيا وتركيا بالاعتراف بالوضع القائم غربي البحر المتوسط وكان في ذلك تعزيز غير مباشر للسعديين.

أما مع انجلترا فإن المبادلات التجارية ظلت نشيطة وعرف المغرب كيف يستغل قضية (انطونيو) الذي كانت أنجلترا تحذوه إلى مساعدته فاحتفظ المغرب بنجل هذا الدعي واضطرت البرتغال للتنازل عن أصيلا لحمل المغرب على عدم الإعانة فحاول الأسطول الأنجليزي وحده عبثا إمداد الأمير لاحتلال البرتغال ومع ذلك بقيت أنجلترا تطمع في إقناع المنصور بالتحالف ضد أسبانيا والاشتراك في غزو الهند وبدأت الدبلوماسية الفرنسية منذ ذلك العهد توجه قناصلها للمغرب كما توطدت علائق طيبة مع هولندا.

وكانت تقع على مصب النيجر شمالي السودان أقطار مثل (كاغو) يملكها (آل سكية) الصنهاجيون وقد حج (محمد سكية) أواخر القرن التاسع فحظي من الخليفة العباسي بلقب الإمارة بالسودان حيث نشر معالم السنة واحتذى بمراسم الملك العباسية وتوالى على العرش بعد وفاته ولده (داود) ثم (إسحاق) وقد سبق للمنصور أن تلقى هدايا أبي العلاء أمير برنو الذي استعان بالسعديين على نشر الدعوة الإسلامية وكان المنصور قد استولى عام 990 هـ على بعض منافذ الصحراء كتوات وكورارة فاستغل وجود الوفد السوداني لدعوته إلى البيعة وأوفد رسولا إلى الأمير إسحاق للمطالبة بترتيب خراج على معدن الملح بتغازي مثقالا ذهبيا لكل حمل لتمويل الجهاد المشترك في سبيل نشر الإسلام بالسودان وكان (آل سكية) يستدرون من هذا المنجم أموالا طائلة طمح المنصور إلى استغلالها باسم الخلافة فكان رفض الأمير إسحاق مطية لغزو السودان الذي بادر المنصور بامتطاء أوعاره رغم معارضة حاشيته متعللا بوجوب الجهاد جنوبا إن تعذر بالأندلس شمالا وتحرك الجيش المغربي بأجهزة جديدة قوامها آلاف الجمال والافراس وعدد من المدافع المحمولة على العجلات بقيادة (الباشا جوذر) فوصلت القافلة العسكرية عن طريق درعة إلى (تنبكتو) ومنها إلى (كاغو) بعد ستة أشهر (16 ذي الحجة 998 هـ / جمادى الأولى 999 هـ) فانبرى الجيش السوداني والتحم الفريقان في (توندييى) فانهزم الزنوج لضعف عتادهم فاحتل جؤذر مدينة كاغو واقترح إسحاق الصلح مقابل إتاوة سنوية وهدايا نفيسة من الذهب الرقيق فقبل مبدئيا بشرط موافقة المنصور فانحاز الجيش إلى تنبكتو بعد أن أرهقته وخامة الجو فغضب الخليفة وبعث جيشا جديدا بإمرة (محمود باشا) أخي جؤذر فاستحث القائد الجديد ركائبه ووصل أوائل السنة التالية (1000 هـ) بقواربه المفككة لشحن الجند بمياه (النيجر) وساوقه أغلب الجند برا فالتحم الفريقان وطورد إسحاق وأخوه فقتلا وعاث الجند المغربي سبيا وفتكا في طريقه نحو الجنوب حيث عسر الوصول إلى مناجم الذهب وارتاب المنصور في (آل أقيت) وهم من ذوي السؤدد والوجاهة بتنبكتو فنفاهم إلى مراكش (1002 هـ) وفي ضمنهم (أحمد بابا) الذي لم يرجع إلى بلاده إلا بعد وفاة المنصور وظلت السودان خاضعة للقائد محمود ثم لسلسلة من الباشوات المستقلين والكاهيات الذين حكموا البلاد ودعي لهم على المنابر إلى آخر عهد الحسن الأول والاحتلال الفرنسي (1893 م / 1311 هـ).

وتوفي المنصور بفاس بالوباء الذي عم المغرب وذلك إثر أعباء القمع لثورة ولده المامون (11 ربيع النبوي 1012 هـ).

(يتبع)



أخطاء مصحف مصر

3

للدكتور التهامي الراجي الهاشمي

15 – سورة طه :

لم يقف على قوله : « لا نسالك رزقا (119) » وهي موقوفة عندنا بالاجماع .

16 – سورة الانبياء :

لم يقف على قوله: «وهذا مبارك انزلناه» (120)، وهو ، في نظري قطع كاف ، والله اعلم ، وان كان التمام لا يكون الا آخر الآية : « افانتم له منكرون » . ومعلوم أن « المبارك » رفع من صفة الذكر . ولو كان نصبا على قولك : « انزلناه مباركا » كان صوابا (121).

كما لم يقف على قوله : « وسخرنا مع داوود الجبال يسبحن والطير » (122) وهو وقف كاف عند الجم الغفير من المهتمين بالقطع والابتداء (123) . لكنه وقف على قوله : « وهم من كل حدب ينسلون » (124) الذي لا نقف عليه لانه ليس بوقف ، ذ لم يات جواب « اذا » الموجوده في قوله : « حتى اذا فتحت ياجوج وماجوج وهم من كل حدب ينسلون». يناقش ابن الانباري هذا فيقول : (125) فلما قال : « فاذا هي شاخصة ابصار الذين كفروا » كان في ذا ما يغني عن الجواب . قال ابو بكر : وليس كما قال لانه قوله : « و قترب الوعد الحق » (126) هو الجواب . كانه قال : « حتى اذا فتحت ياجوج وماجوج اقترب » والواو مقحمة (127) لمعنى التعجب ، كما يقول في الكلام : « واي رجل زيد » .

---

119 – الآية : 161 من سورة طه .
120 – الآية : 50 من سورة الانبياء .
121 – هذا رأي ابي زكرياء يحيى بن زياد الفراء . انظر معاني القرءان ، الجزء الثاني ، ص : 206 .
122 – الآية : 78 من سوره الانبياء .
123 – منهم طبعا ابن الانباري ، انظر ايضاحه ج 2/ 776 وكذا القطع صفحة 477 .
124 – تمام الآية : 95 واولها : « حتى اذا فتحت يا جوج وماجوج وهم من كل حدب ينسلون » .
125 – الايضاح ، لجزء الثاني ، صفحة : 779 .
126 – الآية : 97 من سورة الانبياء .
127 – تزاد هذه الواو في « حتى اذا » وفي « فلما ان » سواء ذكرت « ان » بعد « لما » او لم تذكر ، اي ان تكون هذه الـ « لما » جازمة وان لا تكون بمعنى « الا » . ومن الامثلة على هذا في القرءان الكريم هذه الآية التي نتحدث عنها . وكذا « حتى اذا جاءوها وفتحت ابوابها » (الآية : 73 من سورة الزمر) و « حتى اذا فشلتم وتنازعتم في الاسر » (الآية : 153 من آل عمران) ، ومثال « فلما » « فلما اسلما وتله للجبين وناديناه ان يا ابراهيم » (الآيتان : 103 و 104 من الصافات). وللبصريين اعتراض وجيه على كل هذا ينظر في مظانه .

17 ـ سـورة الحـج :

لم يقف على قوله : « يا أيها الذيـن آمنـوا ضرب مثل فاستمعوا له » (128) ، مع انه تمام كما نص عليه كثير من الائمـة (129) .

18 ـ سـورة المؤمنيـن :

لم يقف على قوله: «عالم الغيب والشهاده» (130) التي يقف عليها المغاربة اقتداء بالامام الهبطـي . واعتقد ان الذي انساه الوقف هنا تأثيـره بقـراءة الكسر في قوله تعالى : « عالم الغيـب » . لكـن المصحف على طريق الازرق برواية ورش عن نافـع وهم يقرأون برفع « عالم » مثل ما يقراها معهم ابـو بكر وحمزة والكسائي وخلف وابو جعفر ، يقـراون بالرفع على الاستئناف . حملهم على هذه القـراءة دخول الفاء في قوله تعالى : « فتعالى عما يشركون».

ويعجبني هنا ما قاله الامام ابن الجزري عـن القراءة بالخفض وأثرها في الوقف ؛ قال : « وروى باقي أصحاب رويس الخفض في الحالين من غيـر اعتبار وقف ولا ابتداء » (131 . وقريب منه ما ذكره الامام أبو محمد مكي بن ابي طالب القيسي عن قراءة الخفض في « عالم » قال : « وخفضه الباقـون ، جعله نعتا لله في قوله : « سبحـان الله » وهـو الاختيار ، ليتصل بعض الكلام ببعض ويكون كله جملة واحدة (132) . اما قراءة الرفع التي تهمنا نحن هنا فانها تجوز الوقف على قوله تعالى : « والشهادة » .

19 ـ سـورة النـور :

لم يقف على قوله عز وجل : « وامائكـم » في لآية : « وانكحوا الايامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم » (133) وهو وقف تام عند عالـم القراءات الكبير يعقوب بن اسحاق الحضرمي . ولقد فهمت من الفراء انه وقف تام عنـده كذلـك حيـن قـال : « والصالحين من عبادكم وامائكم » يقول من عبيدكم وامائكم ، ولو كانت (واماءكم) ترده على الصالحيـن لجـاز (134) .

ولم يقف على قوله : « قل لا تقسموا » التـي قبل : « معروفة أن الله خبير بما تعملون » (135) ، مع ان كل المهتمين بالوقف جعلوا القطع هنا تامـا . نص على ذلك كل من الاخفش ويعقوب وابو حاتـم وعبد الله بن مسلم بن قتيبة واحمد بن جعفر .

قال ابن الانباري : « وقف تـام ثم تبتدىء : « طاعة » على معنى : « يقولون منا طاعة » (136) . وقال الكسـائي : (137) « ان المعنى انهم حلفوا فقيل لهم : لا تحلفوا ، قال : والتاويـل : هـي « مناطاعة معروفة » (138) .

20 ـ سـورة القصـص :

لم يقف على قول عز من قائل : « ويستحيـي نساءهم » التي بعد : « ان فرعون عـلا في الارض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح ابناءهم

---

128 ـ الآيـة : 71 مـن سورة الحـج .
129 ـ منهم : الاخفش واحمد بن موسى وابن الانباري وابو جعفر النحـاس .
130 ـ الآيـة : 93 مـن سورة المؤمنـون .
131 ـ النشر في القراءات العشر ، الجـزء الثاني ، صفحة : 329 .
132 ـ كتاب الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها ، الجزء الثاني ، صفحة : 131 .
133 ـ لآيـة : 132 مـن سورة النـور .
134 ـ معاني القرءان للفراء ، الجزء الثاني ، صفحة : 259 .
135 ـ لآيـة : 51 مـن سورة النـور .
136 ـ الايضاح ، الجزء الثاني ، صفحة : 801 .
137 ـ القطـع والائتنـاف ، صفحـة : 515 .
138 ـ وانظر كذلك معاني القرءان للفراء ، الجزء الاول ، صفحة : 39 وكذا صفحة 278 من نفس الجزء .

ويستحيي نساءهم » (139) مع ان الوقف على « نسائهم قطع كاف (140) ليس تماما طبعا لان التمام في هذه الآية هو : « انه كان من المفسدين » وهو آخر الآية .

كما لم يقف على قوله : « ما كان لهم الخيرة » (141) رغم انه وقف تام .

لو تدبر السيد الساهر على طبع هذا المصحف هذه الآية لرأى ، (لانه وقف على « يشاء ويختار ») ان « ما » التي بعد هذه الوقفة جحدا . يريد : ليس لهم الخيرة لان الخيرة لله تعالى . ولم يترك احتمالا آخر يمكن تقديمه اذ لو كانت « ما » في موضوع نصب بـ « يختار » لما قرر الوقف على « يختار » كما نقف عليها نحن المغاربة .

ففي هذه الحالة ، اي في حالة اعتبار « ما » في محل نصب فان « ويختار » تكون بمعنى : « ويختار الذي لهم الخيرة » .

وفيه احتمال آخر لا نتوقف عليه كذلك ولا حاجة الى ذكره ما دمنا قررنا الوقف على « يختار » .

ومن هنا يسهل ان نفهم ان قوله : « ما كان لهم الخيرة » تام هو كذلك ، مع التنبيه الى ان « الخيرة » مرفوعة بالابتداء والخبر « لهم » والجملة خبر كان » (142) . ولا نعرف احدا قراها بالنصب .

كما لم يقف على قوله : « واحسن كما احسن الله اليك » (143) التي نقف عليها نحن هنا في المغرب .

كما لم يقف على قوله : « له الحكم » التي قبل قوله : « واليه ترجعون » (144) التي هي آخر الآية وآخر سورة القصص . واعتقد ، والله اعلم ، ان « له الحكم » كاف ومعناه : له الحكم في الاولى والآخرة .

21 ـ سورة العنكبوت :

لم يقف على قوله عز وجل : « الا ان قالوا اقتلوه او حرقوه » (145) الذي هو وقف تام عند ابي حاتم وأتم منه طبعا : « فانجاه الله من النار » كما لم يقف على قوله : « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فاحيا به الارض من بعد موتها ليقولن الله » (146) رغم انه وقف تام عند امامنا نافع وورش الذي كتب هذ المصحف على روايته هو رأوي نافع فكان لزاما على الساهر على طبعه ان يقف هنا ولا يمكن الاعتراض بأن التمام عند غير نافع هو قوله : « قل الحمد لله بل اكثرهم لا يعقلون » ما دامت الرواة معقودة على رواية ورش رضي الله عنه .

كما لم يقف على قوله : « او لم يروا انا جعلنا حرما ءامنا ويتخطف الناس من حولهم » (147) .

22 ـ سورة الروم :

ووقفا خطا على قوله : « فهذا يوم البعث » الذي قبل قوله : « ولكنكم كنتم لا تعلمون » (148) وهو وقف غير معروف عند المغاربة ، لم يقف عليه منهم واحد ، فيما اعلم .

---

139 ـ الآية : 3 من سورة القصص .
140 ـ القطع والائتناف ، صفحة : 542 .
141 ـ الآية : 68 من سورة القصص .
142 ـ انظر تفصيل ذلك في الجامع لاحكام القرءان للقرطبي ، الجزء 13 صفحة : 306 .
143 ـ الآية : 77 من سورة القصص .
144 ـ الآية : 88 من نفس السورة .
145 ـ الآية : 23 من سورة العنكبوت .
146 ـ الآية : 63 من نفس السورة .
147 ـ الآية : 67 من سورة العنكبوت .
148 ـ الآية : 55 من سورة الروم .

لكنه لم يقف على قوله : « ولقد ضربنا للناس فى هذا القرءان من كل مثل » (149) وهو وقف تام عند الامام نافع (150) رضي الله عنه .

23 ـ سورة السجدة :

لم يقف على قوله : « افمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا » (151) لتي يقف عليها المغاربة . وكنت اوافقه على عدم الوقف هنا لان التمام هو « فاسقا لا يستوون » كما نص على ذلك كل من احمد ابن موسى ابو بكر بن مجاهد ومحمد بن عيسى بن ابراهيم ابن رزين ابو عبد الله التيمر لو ان المصحف لم يطبع على طريقة المغاربة في الوقف (152) .

24 ـ سورة الاحزاب :

لم يقف على قوله : « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا» (153) وهو تمام عند الاخفش، ونحن نقف عنده عملا بذلك ، والله اعلم .

كما لم يقف على قوله : « اعد الله لهم مغفرة واجرا عظيما » (154) وهي زيادة على كونها راس آية فهي تمام حسب ما اخبرنا به ابو جعفر النحاس (155) .

25 ـ سورة فاطر (156) :

لم يقف على قوله : « ولو كان ذا قربى » (157) وهو وقف تام باتفاق الجميع (158) .

26 ـ سورة الصافات :

وقف على قوله : « ان كدت لترديني » ونحن لا نقف عليها . وبما انها تكتب في المصحف الشريف بما يسمى عند المغاربة بـ « الحمرة » فاننا ان وقفنا عليها ، لسبب من الاسباب ، وقفنا عليها بنون ساكنة سكونا عارضا ونمد الدال مدا مشبعا ولكن المغاربة لا يقفون عليها خلافا لما فعله القائمون على طبع هذا المصحف .

27 ـ سورة ص :

لم يقف على قوله : « ذلك ظن الذين كفروا » (159) وهو وقف حسن ، نص عليه النسفي (160) وهو حسن ايضا عند ابن الانباري(161) لكنه كاف عند ابي جعفر النحاس نقلا عن ابي حاتم (162) . لكنه وقف على قوله : « فويل للذين كفروا » التي لا نقف عليها .

---

149 ـ لآية : 57 من نفس السورة .
150 ـ انظر القطع والائتناف صفحة : 564 وانظر كذلك ايضاح الوقف والابتداء لابن الانباري ج835/2.
151 ـ الآية : 18 من سورة السجدة .
152 ـ انظر ترجمة هذا القارىء في غاية النهاية ج 2 ، الترجمة رقم 3340 .
153 ـ الآية : 25 من سورة الاحزاب .
154 ـ الآية : 35 من نفس السورة .
155 ـ القطع والائتناف صفحة : 576 .
156 ـ وتسمى سورة الملائكة كذلك .
157 ـ الآية : 18 من سورة فاطر .
158 ـ انظر الايضاح ، الجزء الثاني ، صفحة : 849.
159 ـ لآية : 26 من سورة ص .
160 ـ انظر تفسير النسفي ، دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاؤه ، الجزء 4 صفحة : 39 .
161 ـ الايضاح ، الجزء الثاني صفحة : 862 .
162 ـ القطع والائتناف ، صفحة : 613 .

28 ــ سـورة فصلـت :

وقف خطأ على قوله تعالى : « ومن احسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا » (163) وهو مكان لا يقف عليه الامام الهبطي واذن لا يقف عنده المغاربـة بطبيعـة الحـال .

29 ــ سـورة المجادلـة :

لم يقف على قوله : « اعد الله لهـم عذابـا شديدا» (164) مع انه وقف حسن عند البعض (165) وكاف عند البعض الاخر (166) ولا على قولـه : « ويدخلهم جنات تجري من تحتها الانهار خالديـن فيهـا » (167) .

30 ــ سـورة النازعـات :

لم يقف على قوله : « وبرزت الجحيـم لمـن يرى » (168) رغم انه وقف حسن عند بعض العلماء وكاف عند آخرين ولكن التمام على راس الآية الثانية بعد هذه وهي : « فان الجحيم هي المـأوى » نسال الله تعالى بجاه اسمه الاعظم وقرءانه الكريم ونبيـه العظيـم السلامة والعافية .

4 ــ عدم اكتراثه بالوقف في السور الزهر :

احب ان انبه الى ان هذا المصحف ــ وأرجـو ان يعلم هذا ايضا الساهرون على طبعه ــ هو برواية ورش عن طريق الازرق ، اذ اننا نحن في المغـرب نقرا برواية هذا الامام من طريق الازرق رضـي الله عنـه .

ومعلوم أن في طريق الازرق في قضية البسملة التي تهمنا الآن ثلاثة اشياء لا بد من اعتبارها اذا اردنا ان نستوعب هذه النقطة . اريد قبل ان اتحدث عـن قضية البسملة ان اوضح امرا كـي لا يعتقـد هؤلاء الناس الذين سهروا على طبع هذا المصحـف ان تشعب هذه القضية والخلاف الكبير ، لكـن المعقول القائم بين ائمة القراء يمكن استغلاله ، بوجـه من الوجوه ، للرد على .

ارجو ان يعلم هؤلاء الناس ان الخلاف واقع بين قراءة وقراءة اخرى وبين رواية ورواية غيرها وبين طريق وطريق ثان وبين وجـه ووجه سواه . وليس الخلاف قائم في داخل القراءة او في ذات الروايـة او في الطريق نفسها . بمعنى انه لا يجوز لـك ان تخرج وانت تقرا او تكتب من قراءة الى رقاءة تخالفها في النطق بلفظ قرآني كريم الا طبعا اذا احترمـت الشروط المعتبرة في هذا الفن عند من يقول بالقراءة بالارداف .

فالقراءة كالرواية وكالطريق منسجمة ، موحدة لا تقبل خروجا عن ناموسها .

لذا يجب الاقتصار على ما شهدت به اللجنـة على نفسها من ان هذا المصـف مطبـوع بالرسم العمثاني على رواية ورش بالخط المغربي التونسي الجزائري الافريقي الموحد . وبما انه مطبـوع على رواية ورش وبما ان المغاربة لا يقراون في روايـة ورش الا عن طريق الازرق فلا بد ان يكون محترمـا لهذه الرواية من هذه الطريق .

فليس بعد ذلك ، الاحتجاج بطريق آخر غيـر طريق الازرق ولا طبعا برواية عن نافع غير روايـة ورش فبالاحرى بقراءة غير قراءة نافع .

---

163 ــ الآية : 32 من سورة فصلت ، تمامها : « و قال انني من المسلمين » .
164 ــ الآيـة : 15 مـن سورة المجادلـة .
165 ــ ابن الانباري ، انظر كتابه الايضاح في الصفحة : 929 من الجزء الثاني .
166 ــ عند ابي جعفر النحاس انظر القطع والائتناف صفحة : 715 .
167 ــ الآية : 21 من سورة المجادلة وهي الآية الاخيرة في هذه السورة وتمامها : « رضي الله عنهم ورضوا عنه اولئك حزب الله الا ان حزب الله هـم المفلحـون » .
168 ــ الآيـة : 26 مـن سورة النازعـات .

بل ليس لي ولا لهم الركون الى وجه ضعيف في طريق الازرق وترك الوجه الاصح فيها .

فان احترمنا هذا المنهج السليم المعتبر عند اهل هذا الفن سهل الاتفاق فيما بيننا والتقينا في هذا الامر ، بيسر ، على المحجة البيضاء .

قلت ان للازرق في هذه القضية ثلاثة اقوال :

1 – الوصـــــل ، (169) .
2 – السكـــــت ، (170) .
3 – البسملـــــة ، (171) .

وبما أن الاخذين بالسكت هم في معظمهـم من المغاربة كابن غلبون والداني وغيرهما فقد فصلـوا بالبسملة للساكت (والساكت عندهم هنا هو الازرق)، لذا وجب ان نبسمل ؛ والاحسن ان نقف عليها تفاديا « لقبح اللفظ في الوصل من دون بسملة ؛ ووجـه القبح ، كما قالوا ، ان التالي اذا وصل « المغفـرة » بـ « لا » فكأنه نفى « المغفرة » الثابتة لله بـ « لا » لاتصالها بـ « المغفرة » في لفظـه . واذا قـال : « وادخلي جنتي » ، « لا » ، فكأنه نفى ما ثبت مـن دخول الجنة . واذا قال : « والامر يومئـذ لله » ، « ويل » ، « وتواصوا بالصبر » « ويل » قرن الويل المذموم باسم الله وبالصبر الممدوحين ... » (172) .

الرباط : الدكتور التهامي الراجي الهاشمي

---

169 – قطع له به صاحب الهداية – انظر النشر ، الجزء 1 صفحة :261 ، س : 3 .

170 – كما في التسير ، وانظر كذلك « التعريف في اختلاف الرواة عن نافـع » صفحـة : 199 من تحقيقنا ، طبعة المغـرب 1982 .

171 – انظر النشر الجزء الاول ، صفحة : 261 . س . 7 .

172 – انظر النجوم الطوالع على الدرر اللوامع الشارح ابراهيم المرغني ، الناظم ابن بري ص : 28 .

استدراك

تسربت لمقال « اخطاء مصحف مصر » الحلقة الاولى بالعدد 232 اخطاء مطبعية جعلت قراءته عسيرة ؛ وهذه الاخطاء هي :

الخطأ	الصواب	الصفحة – السطر	الخطأ	الصواب	الصفحة – السطر
غيرهـا . . .	غيرهما . . .	ص. 48 ، س. 12	مطبوع . . .	مطبوعا . . .	ص. 50 ، س. 20
أشيـره . . .	أليسره . . .	ص. 48 ، س. 20	يرى انه تمام . .	أنه التمام . . .	ص. 50 ، س. 25
خطـاء . . .	خطـا . . .	ص. 48 ، س. 4	مـع أن . . .	مـع انـه . . .	ص. 50 ، س. 29
موافقـه . . .	موافقـة . . .	ص. 48 ، س. 8 ع. 2	اللسائي . . .	الكسائي . . .	ص. 50 ، س. 8 ع. 2
ذالـك . . .	ذلـك . . .	ص. 49 ، س. 12	الوقـت . . .	الوقـف . . .	ص. 50 ، س. 50 ع. 2
متشابهـة . . .	متشابهـا . . .	ص. 49 ، س. 14	واحدة فلما . .	فلهـا . . .	ص. 51 ، س. 4 ع. 1
القطيـع . . .	القطـع . . .	ص. 49 ، س. 26	حسنيـة . . .	حسنـة . . .	ص. 51 ، س. 11 ع.1
هـاهـن . . .	هـاهنـا . . .	ص. 49 ، س. 31	طـابعـا . . .	طبعـا . . .	ص. 51 ، س. 12 ع.1
ثـام . . .	تـام . . .	ص. 49 ، س. 8 ع. 2	تمـدث . . .	تحـدث . . .	ص. 51 ، س. 12 ع.1
بالضيـم . . .	بالضـم . . .	ص. 49 ، س. 13 ع. 2	واصلـى . . .	واصلحـا . . .	ص. 51 ، س. 18 ع.1
ليـس . . .	انهـا ليست . .	ص. 49 ، س. 20 ع. 2	الاعمـر . . .	الأعمـى . . .	ص. 51 ، س. 11 ع.2
يدل علـغ . . .	يـدل على . . .	ص. 49 ، س. 21 ع. 2	تبينـا . . .	تبيينـا . . .	ص. 51 ، س. 23 ع.2
الا تقاتلوا . . .	الا تقاتلوا . . .	ص. 49 ، س. 26 ع. 2	واظـر . . .	وانظـر . . .	ص. 51 ، س. 27 ع.2

كما سقط ما ياتي بعد : « لكن الامام الهبطي » : (يقف عليها)، يضاف ما بين الهلالين بعد السطر 19 من الصفحة 50 في العمود الاول وقبل بداية السطر 20 من نفس الصفحة .

مُصطفى صَادق الرّافعي

في سيرته وأدبه

للأستاذ عيسى فتوح (دمشق)

ولد مصطفى بن الشيخ عبد الرزاق الرافعي ف احدى قرى محافظة « القليوبية » بمصر ، تدعى « بهتيم » عام 1880 ، من اب اصله من طرابلس في لبنان ، وام من حلب في سوريا ، وقد قدم اهله الى مصر في القرن التاسع عشر ، وتولى فريق منهم قضاء الحنفية ، وأسرته كلها اسرة قضاء وعلم وورع، فورث عنها الصلابة في الدين ، والشك في الحق .

اخذ علوم القرءان عن أبيه ، ثم دخل المدرسة الابتدائية وهو في الثانية عشرة من عمره ، ونال شهادتها في السابعة عشرة ، ولما بلغ الثلاثين أصيب بالصمم التام ، على اثر مرض لازمه مبكرا ، وامتد الداء الى حلقه ، حتى كاد يذهب بقدرته على الكلام ، مما جعل في صوته رنينا اشبه بصوت الطفل وصراخه ، فانقطع الى الدين والانتاج الادبي .

كان الرافعي يقرا ثماني ساعات كل يوم بلا توقف دون أن يمل ، ولا يرى الا وفي يده كتاب يقلب صفحاته ، ويقال انه حفظ كتاب « نهج البلاغة » للامام علي بن ابي طالب وهو في القطار من طنطا الى طلخا مقر عمله ، ولم يبلغ العشرين من عمره .

عين كاتبا في محكمة « طلخا » الابتدائية عام 1899 ، ثم نقل الى محكمة « ايتاى البارود » الشرعية ، وبعدها الى المحكمة الاهلية في طنطا ، وظل فيها حتى توفي عام 1937 .

كان الرافعي معتزا بنفسه وادبه واسرته ، يقوم بعمله خير قيام ، وقد عرف الحب في حياته فتغنى ونظم الشعر .

تأثر بالجاحظ والاصفهاني وهوغو عندما سمع بكتاب مترجم له جولات مع طه حسين وعباس محمود العقاد وغيرهما في النقد ، وكتب في مجلة الرسالة.

— للرافعي ديوان يقع في ثلاثة اجزاء ، وله ايضا النظرات ، وتاريخ آداب العرب ، واعجاز القرءان ، وحديث القمر ، والمساكين ، ورسائل الاحزان ، والسحاب الاحمر ، وأوراق الورد ، وتحت راية لقرءان ، وهو المعركة التي جرت بينه وبين طه حسين حول الشعر الجاهلي ، وعلى السفود وهو المعركة التي جرت بينه وبين العقاد ، ثم وحي القلم الذي يقع في جزئين ، وهو مجموعة مقالات في مجلة الرسالة كتبها بين عامي 1934 و 1937 .

كانت كتابة الرافعي مزيجا من نزعة اسلامية شديدة ، وفكر متدين صادق الدين ، وعاطفة قوية مشبوبة ، تخضع في فترات الكتابة الى ما يمليه العقل ، وميل الى الاخذ من الحياة الحديثة بما لا

يخالف الشرع والاخلاق ، وسمو روحي يدفع صاحبه الى التقيد بالاخلاق الكريمة وقواعد الوفاء والشعور بالمسؤولية نحو المجتمع ، والرغبة في اصلاحه والنهوض فيه .

مال في آخر حياته الى الكتابة وخاصة كتابة القصة التي تتضمن الحكمة او الموعظة ، ولم تكن قصته الا مقالا يسكبه في قالب قصصي ، ويستمد مادتها من تراجم علماء الاسلام وعظمائه ، وقد تحدث في بعض قصصه بلغة العصر ، فصور روح أهله تصويرا صادقا دعمه بالعلوم والآداب الاسلامية ، غير انه لم يوفق في تصوير الالوان المحلية في القصة الا قليلا .

اخذ في آخر حياته يفسر بعض الآيات القرآنية فينهج فيها نهجا قصصيا يبين فيه سمو القرآن الكريم وروعته ونبل غايته وسمو تعبيره ، وهو عميق المعاني ، كثير الاستقصاء لها ، يستمدها من ثقافته الاسلامية ، ومما قرأ من الكتب المترجمة .

يكثر الرافعي من المحسنات اللفظية والصور البيانية ولا سيما الكنايات والتشابيه ، وهو متين العبارة ، عربي الديباجة ، يعرف الفروق في مترادف الكلام ، ويعني باختيار الالفاظ ، ومواقعها ، ويهتم بموسيقى الجملة ، لكن اخذ عليه الغموض بعض الاحيان ، لحشره المعاني الكثيرة في اللفظ القليل ، وتلاعبه بالالفاظ ، وتبديل مواقعها ، لتؤدي معاني جديدة ، فالنساء أنوار ، والانوار نساء ، والازهار انوار ونساء . كما يجنح الى غرابة الاستعارة وبعدها كقوله : « أذ يأتي لك وحدك ، ويأتي وأنت وحدك » ، والى التعابير المبهمة كقوله : « وكانت ثمانية أرطال من الحياة في ثمانية اعوام من العمر » ، واستعمال الالفاظ الفلسفية .

وهو من الكتاب الذين يقومون بجهد فني في كتاباتهم ، فيصنعون جملهم ، وينقحون عباراتهم ، ونستطيع ان نقول في مقالاته ما قاله فيها تلميذه محمد سعيد العريان : « هي عمل الفكر وكد الذهن ، وجهد الاعصاب ، ومديد النفس في اسبوع كامل ، ولكنها اخيرا مقالات » .

وكان غزير الفكر ، يملي عليه تدينه كثيرا من الحكم والمواعظ الخلقية ، ويوجهه في كتابته توجيها اجتماعيا ، الا ان فكره لا يخلو ــ كما قلنا ــ من غموض ، وانطلاقه لا يخلو من كثافة وجمود .

خص القسم الاكبر من مقالاته للدفاع عن الاسلام ومصر والشرق ، ونزع فيها نزعة اسلامية شديدة ، فيها من التدين والاندفاع الشيء الكثير .

ولكي نوضح ما قلناه عن اسلوبه في الكتابة ، نثبت هذا المقطع الذي اقتطفناه من مقال له بعنوان : « موت ام » جاء فيه :

« همد الحي ، وانطفأت عيناه ، ولكنه تحرك في تاريخه ، مما ضيق على نفسه او وسع ، واصبح ينظر بعين من عمله ، اما مبصرة او كالعمياء ، فلو تكلم يصف الحياة الدنيا لقال : ان هذه النجوم على الارض مصابيح مأتم أقيم بليل ، وما اعجب ان يجلس اهل المأتم ليضحكوا ويلعبوا . ولو نطق الموتى لقالوا : ايها الاحياء ان هذا الحاضر يمر ، فيكون ماضيكم في الدنيا هو بعينه الذي يكون مستقبلكم في الآخرة ، لا تزيدون فيه ولا تنقصون ، وان الدنيا تبدأ عندكم من الاعلى الى الادنى : من العظماء الى الفقراء ، ولكنها تنقلب في الآخرة ، فتبدأ من الفقراء الى العظماء » .

* * *

لا شك ان شهرة الرافعي قامت بالدرجة الاولى على كتابه : « أوراق الورد » الذي كان يعتز به اعتزازه بأنفس ما كتب في أدب الانشاء ويباهي ويفتخر . وكما تجد الام سلواها في ولدها العزيز عن الزوج الحبيب الذي طواه الموت ، وجد الرافعي العزاء في أطفال معانيه عن حبيبته العنيدة التي هجرته ، ولم تترك له غير الالام المبرحة والاوجاع المضنية ، وقد صب في هذا الكتاب النفيس فكر المفكر وعقل الاديب ، وخيلة الفنان ، فصور نفسه وخواطره في الحب ، كما صور فنه وبيانه في لغة الحب ... انه رسائل لم يحملها البريد ، ضمنها لهفته وحنينه وشوقه وتذلله واستعطافه ... فكل رسالة فيه تتواثب المنى الحالمة بين سطورها في خفة الفراشة الطائرة ــ كما يقول محمد سعيد العريان في مقدمة الكتاب ــ وكل رسالة تصف ما كان في خلوة نفس الى نفس ، وتقص في لغة الماضي حديث قلب الى قلب ، وتكشف عن سر الابتسامة ومعنى

النظرة ، وتتحدث عن جمال الطبيعة وفلسفة الكون ، فهي ذكرى من الماضي البعيد : كان حبا في الــدم فصار حديثا في الفكر ، ثم استتبع شيء فشيئا .

كان الرافعي في أوراق الورد كالمنجم الــذي يمتد في الارض ، ويتغلغل بعروق الذهب ، ولكن لا بد من الصبر عليه لاستخراج هذا الذهب ، ولذلك قل من تحملوا المشقة لاستخلاصــه من بين الصخــور المتراكبة عليه وحواليه من طبقات الارض ... انه منجم من المعاني الذهبية البكر ، لو عرفه المتأدبون من شبابنا لوضعوا ايديهم على اثمن كنز في العربيــة في معاني الحب والجمال يكون لهم غذاء ومــادة في الشعــر والبيــان .

رحم الله الرافعي الاديب والمفكــر والعاشق ، فقد كان قمة شامخة من قمم الادب العربي ، لكنه لم يتمتع بالشهرة التي تمتع بها معاصروه كطه حسين والعقاد والمازني وشوقي والزيات واحمد امين وعبد العزيز البشري وغيرهم ، ربما بسبب وعورة الفاظه ، وغرابة معانيه ، وصعوبة ادراكها ، وعاهة الصمم التي جعلته ينطوي على نفسه ، ويبتعــد عن المجتمــع والناس ، لكنه كان على كل حال صاحب مبدأ ثابــت وعقيدة دينيــة راسخــة .

عَبَرَاتٌ

على سمو الأمير مولاي عبد الله رحمه الله

للشاعر الاستاذ قدور الورطاسي

صاحب النبل ، والسمو ، وداعا   لحياة بين الكرام العظام
لم تمت صاحب السمو ولكن   شاقك الخلد ، للهنا والسلام
فاصطفيت الخلود كيما تلقى   جدك المصطفى ، وخير الانام
وتلقى من كان « ملكا » عظيما :   والدا عاش معقل الاسلام
وتلقى الجدود جدا فجدا   من امام ، منعم لامام
في ظلال بين النعيم صراحا   وبعيدا عن صولة ! لا لا م
انت - والبيت - هكذا ، غيرانا   في حداد يموج بالاسقام
قد فقدناك رؤية العين لكن   انت بين القلوب لهب الضرام
كم بكتك القلوب - حقا - دماء   وبكتك الاجفان مثل الغمام
فكان الحشود ملقى لبعث   يتباكون حول نعش الهمام
يتباكون فاقدين عقولا   طالما كانت شعلة في الظلام
يتباكون ، والقلوب هواء   خانها الصبر في مصاب قتام
ها لهم ان يروك من فوق نعش   بعد ما عشت غرة الاعلام
تتباهى بك الكرام وتسمو   وتحلى بعزمك المقدام
تندب الحظ في امير نبيل   بدموع عبر القلوب دوامي
بينما الشعب كالخضم هياجا   في انتحاب ينساب دون نظام
وعويل بين الفضاء رهيب   كان يدمي الصدور مثل السهام
كم تخيلت اثناء آخر الدهر   وكل الورى لدار مقام
اذ رايت (الامام) يلثم نعشا   كنت من بينه اريج العظام
يذرف الدمع في هيام بصنو   طالما كان روعة في الوئام
طالما كان يبذر الانس زهرا   وورودا في عزة وابتسام
مشهد مفزع يظل مدى الدهـ   ـر كطيف يريعنا بانتظام
قلنا الله في مصاب اليم   كان والله مثل وقع الحسام
ولعز الملوك خير عزاء   في وفاة الرسول خير الانام
ولنا فيه سلوة واقتداء   صانه الله للعلا والذمام



للأستاذ محمد بن تاويت

العلـم والمعرفـة :

لكلا الاسمين تعلق خـاص ، فالاول يتعلـق بالتصديق ، والثاني يتعلق بالتصور ، وقد احتـار العلماء انفسهم في تعريف العلم ، فاضطر بعضهم الى كونه « معرفة المعلوم » .

وهذا التعريف يمزج بين المدلولين ، اذا العلم معرفة ، والمعرفة قد تتسلط على المفردات ، بل هذا هو الاصل فيها ، لكن المعرفة في التعريف ، خاصة بالمعلوم ، والمعلوم لا يكون الا مركبـا من الموضوع والمحمـول .

سوى هذا فان الدور يلوح في هذا التعريف ؛ فالمعلوم لا يتصور الا بعد العلم . وقد أجيب عن هذا بأن المقصود من « المعلوم » جوهره المجـرد عـن عرضه ، الذي هو الصفـة .

هكذا قيل ، وهو غير وجيه ، وفيه تداخل ، ان اردنا التفريق بينهما ، وهو واجب ، وان واجهنا في القرءان ما يحل محل الآخر ، عند النظرة الاولـى ، ولكن عند التفحص نجد الفرق بينهما ، وعلى هـذا فالله يوصف بالعلم ولا يوصف بالمعرفة لارتباطهـا بالشم ؛ أصل معناها من الاشتقاق . ولهذا فتعليـم آدم الاسماء ليس من البساطة التي نفهمها من ذلك ، حتى يكون التعليم تعريفا (1) .

ومما قاله الفلاسفة فيه ، نظريـة افلاطـون ، الذي قال بعالم المثل في الجميع . فالعلم عنده تفكر وتذكر . واليه يشير ابن سينا في قصيدته التي تدعي ان الروح كانت عالمة وهي طليقة ، فلمـا حلـت بالجسد ، حبست وحجبها عن معلومها ، في عالمهـا العلوي ، كما يقول افلاطون . وبالرياضات الروحانية تتلخص شيئا فشيئا ، فتتذكر كذلك ، الى ان تعود الى عالمها ، فيقول :

هبطت اليك من المحل الارفع
ورقاء ذات تعزز وتمنـع

محجوبة عن كل مقلة عـارف
وهي التي سفرت ولم تتبرقع

وصلت على كره اليك وربمـا
كرهت فراقك وهي ذات تفجع

انفت وما انست فلما واصلت
الفت مجاورة الخراب البلقع

واظنها نسيت عهودا بالحمى
ومنازلا بفراقها لم تقنـع

حتى اذا اتصلت بهاء هبوطها
من ميم مركزها بذات الاجرع

علقت بها ثاء الثقيل فاصبحت
بين المعالم والطلول الخضع

(1) بالمعنى المحدد في المنطق ، ويكون ما ورد في هذا ، من قبيل اللفظي ؛ أحد المعرفات الثلاث .

تبكي اذا ذكرت عهودا بالحمى
بمدامع تهمي ولما تقلـــــع

وتظل ساجعة على الدمن التي
درست بتكرار الرياح الاربع

اذ عاقها الشرك الكثيف وصدها
نقص عن الاوج الفسيح المربع

حتى اذا قرب المسير من الحمى
ودنا الرحيل الى الفضاء الاوسع

وغدت مفارقة لكـل مخلـــف
عنها حليف الترب غير مشيع

هجعت وقد كشف الغطاء فابصرت
ما ليس يدرك بالعيون الهجـــع

وغدت تغرد فوق ذروة شاهق
والعلم يرفع كل من لم يرفع

فلأي شيء اهبطت من شامخ
عال الى قعر الحضيض الاوضع

ان كان اهبطها الاله لحكمـــة
طويت عن الفذ اللبيب الاروع

فهبوطها ان كان ضربة لازب
لتكون سامعة بما لم تـسـمـع

وتعود عالمة بكـل خفيـــة
في العالمين فخرقها لم يرقع

وهي التي قطع الزمان طريقها
حتى لقد غربت بغير المطلع

فكانها برق تألـق بالحمـــى
ثم انطوى فكأنه لم يلمـــــع

انعم برد جواب ما أنا فاحص
عنها فنار العلم ذات تشعشع

المفتـــــاح :

في بعض اللغات ، كالفارسيـــــة والتركيـــة ، يستعملون فيه الكلمة اليونانية « كليـــد » بمعنـــى « المغلاق » ، والحقيقة ان مهمة المفتاح في الاساس، هي التغليق . فالاصل في الباب مثلا ، الفتح ، فاذا اريد تغليقها احتيج الى هذا « المغــلاق » ، الذي تسميه العربية « المفتاح » . ذلك ان الآلة لها مهمتان، التفتيح والتغليق ، والثاني يأتي بعـــد الاول اساسا ولا يأتي ذلك الاول بعد هذا الثاني ، الا من باب رجع القهقرى ، واعادة الحال الى ما كانت عليه . لقـــد « غلقت الابواب » بعد ان كانـــت مفتحـــة ، والله « يمسك السماء أن تقع » ثم « ان يوم الفصـــل كان ميقاتا يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا وفتحـــت السماء » . مرة اخرى ، بعد ان امسكت مع الارض « ان الله يمسك السماوات والارض ان تزولا ، ولئن زالتا ان امسكهما من احد من بعده » . وواضح هنا ان اداة « ان » نافية ، وفي حيز هذا النفي ، جاءت « من » زائدة كما قالت :

وزيد في نفي وشبهه فجـــر
نكرة كما لباغ مـــن مفـــــر

ولعل الكلمة اليونانية « كليد » هي الموجودة في الانجليزية Key « كيي » (1) وفي الفرنسية « كلي» ويستغرب في الاسبانية وجود كلمة « يابي » . ولكن اذا نظر الى التطور الذي حدث في هذه الكلمة ، فانه يدرك انها مثل الانجليزية والفرنسية في هذا الاخذ ، ذلك ان هذه الكلمة تطورت عن « كلافـــي » هكـــذا Clave (وهي في الايطالية Chiavi) وفي هـــذه الاسبانية نطق حرف V بالباء . وقد كنا نسمع في الثلاثينيات ، المعلمين الاسبان ، بالمدرسة التـــي تسمى الآن مدرسة سيدي السعيدي بتطوان ، أن هذا الحرف لا ينطق في الاسبانية الا باء مثل B تماما . وكانت ملكة اسبانيا لذلك العهد ينطـــق اسمهـــا « بيكتوريا » BICTORIA . اما الآن فقد صاروا لا يجدن غضاضة ، بل يوجبون نطق هذا الحرف V كما ينطق في غيرها من اللغات الاوربية ، عدا الالمانية، التي تنطقها فاء . وهذا عجيب في نطق حرف V فالاسبانية كانت توجب نطقه باء والالمانية توجـــب نطقـــه فـــاء .

واغرب منه ان حرف الفاء F في اداة الاضافة خاصة ، بالانجليزية OF ، ينطـــق V وهـــذه

(1) وان قالوا انها مأخوذة من CAÈY في الانجليزية القديمة ، وانها تساوي KEI الفريزية ، نسبـــة الى قبيلة طيطونية ، كانت بهولانـــدا .

الكلمة كانت اول كلمة فهمتها في صباي ، وكانت مكتوبة في اعلان ملصق باحد ابواب الدكاكين اليهودية . ولما حكيت هذا في السبعينيات ، لاستاذي المرحوم الدكتور حسن ابراهيم حسن ، وكان استاذ بكلية الرباط ، لم يفهم المقصود من هذه الكلمة ، وقد نطقت حسب القاعدة التي اتبعت منا تماما ، مما اضطرني الى النطق بها قاء ، ففهم المقصود، معترضا على النطق السالف المذكور .

هذا وان الغالب في الاقليد او المقليد العربي ، كونه معربا عن اليونانية ، ولهذا فقول الله : « له مقاليد السماوات والارض » معناه « مفاتيح السموات » او مغاليقها — كما سلف — وليس معناه كما قال المفسرون « كنوزها » او خزائنها ، استيناسا بقوله : « وان من شيء الا عندنا خزائنه » ، فان كان القصد الكنوز ، كما قالوا ، فانما هو من قبيل اللزوم.

وعلى كل حال ، فما استروحنا اليه ، على سبيل الاستطراد ، لا يعد فضولا ، ونحن نتنقل في رياض القول ، ونقطف من أزهاره ووروده ، اذ المعرفة على بساطتها ، فاكهة لا تمل ، ويستحسن ان ينال منها في اصنافها والوانها ، ومختلف أطايبها ، لانه سبيل العلم ، ودرج لمعراجه ، ومرقاة لاوجه ، وما العلم الا انتقال من البسيط الى المركب ، ومن المطلق الى المعقد او المقيد .

ضمائر النصب المنفصلة :

الواقع ان هذه الضمائر مؤلفة من اسمين : ايا + الضمير .

والدليل على هذا اننا نجدها داخلة على الظاهر، في بعض النصوص العبرية ، كما يقول تادرس يوحنا لبيب الميري في دروسه ، وحتى العربية فاننا نجد فيها قول عمر : اذا بلغ الرجل الستين فاياه وايا الشواب ، قال ابن هشام في اضحه : أقام الضمير وهو ايا مقام الظاهر ، وهو الانفس ، اي وانفس الشواب .

اذن ، فما اصل « ايا » هذه ؟

يرى ابن هشام ايضا ، انها الضمير ، اما اللواحق بها فانما هي حروف تكلم وخطاب وغيبة ، وليست من الضمائر في شيء ، وذلك مثل كاف الخطاب في الاشارة .

ضمائر الرفع المنفصلة :

فان هذه تستعمل كذلك في غير الرفع ، حيث يؤكد بها الضمير المتصل ، وهو فى محل جر او نصب ، قال الشاعر : « ... اني انا الميت » وهذا مطرد في التوكيد .

ومن وقوعها موقع الجر ، في غير التوكيد ، حديث نعيم بن مسعود : « ان قريشا وغطفان ليسوا كانتم » لان الاصل في كاف التشبيه دخولها على الظاهر أو ما يقوم مقامه في الاستقلال بنفسه . ويتمثل في الضمائر المنفصلة غير المختصة بالنصب، ولهذا فلا يمكن ان يقال « ككم » مثلا متصلا به كاف التشبيه. (بالظاهر أخصص منذ مذ وحتى والكاف)

الحضارة :

تستعمل الالمانية الكلمة Kultur التي معناها الاصلي الحرث ، وهي من اللاتينية « كوليري » colere مساوية للكلمة civilisation الانجليزية وغيرها ، متوسعة كلها في مدلولها لتشمل الحضارة في أوسع معانيها ، كما استعيرت كلمة culture للتهذيب .

وهذا بالضبط ما حصل في هذه الالفاظ بالعربية : الحضارة ، العمران ، التمدن ، اذ الحضارة فى أصلها سكنى المدن ، وفى الاثر « من بدا جفا » (1)لان الغلظة والجفاوة ، مما يجانف الحضارة ، التي هي حضور بالمكان ، واستقرار فيه ولا تتحقق الحضارة بدون ذلك ، وعليه فالحضارة هي سكنى المدن ، التي جاء منها المتدن ، وهي تشمل ، كما يوخذ من مقدمة ابن خلدون « التفنن في الترف واحكام الصنائع المستعملة في وجوهها ومذاهبها ، من المطابخ والملابس والفرش وغيرها » .

---

(1) ورحم الله والدي ومعلمي ، الذي نبهني الى نكتة الحضارة والبداوة ، في الآية الكريمة : « وقد احسن بي اذ اخرجني من السجن وجاء بكم من البدو » . كما افادني بأن الانبياء والرسل لا تبعث الا من المدن وما يقاربها .

اما العمران فأصله من عمر الرجل في المكان سكن فيه ثم دل على ما دلت عليه المدنية والحضارة ، ونعود الى التمدن ، فهو تشبه بأهل المدن ، من تمدن الرجل اذا تخلق بأخلاق سكان المدن ، ويصح ان لا يكون هناك تشبيه ، بل اتصاف بهذه السكنى مباشرة ، وهو على كل حال دال على ما تدل عليه كلمات الحضارة والمدنية والعمران ، التي تقابل البداوة من البدو ان الظهور والانكشاف خارجا .

ومهما يكن فان العربية سلكت مسلك غيرها في هذه الدلالة ، وقد انتهت الى ان منشأ الحضارة الاستقرار اولا وهي قضية لا شك في صحتها ، وبها ندرك قدم الحضارة عند اصحابها من سكان النيل ودجلة ، وغيرهما من الانهار الهامة والعاملة في الانسان بمياهها ، التي لا تتأتى الاقامة بدونها او بعيدا عنها بعدا شاسعا .

والكلمة الالمانية كما اشرنا معناها الاصلي الفلاحة ، فهي من الكلمة المذكورة في اللاتينية . وهل يمكن لغير المستقر ان يفلح الارض ؟ اذن فالاقامة من لوازمها ، فهي مظهر من مظاهر الاستقرار .

اما الكلمة الانجليزية وغيرها بباقي اللغات الاوربية ، فتساوي العربية تماما فيما تقدم .

جهوي :

لقد ورد علينا هذا الضيف ، فتلقيناه بالتأهيل والترحاب ، وفتحنا له في كل البيوت الابواب ، وكان بحق خفيف الظل ، لطيف المعاشرة ، فلم يدر بخلدنا البتة ، ان نسأله : ممن ، ولا من اين ولا الى اين ؟

ولكن الايام تطول ، والطول لا يرحم احدا ، حتى ولو لم يكن يشعر به ، او يحس بسام منه ، فيأتي السؤال لا محالة ، ويأتي الجواب لا بد ، وان كان يسوء احيانا ، فيكون السؤال من تلك التي تتعلق بالاشياء التي تسوء ان تبد لنا ...

وكذلك نقول في هذا « الجهوي » فقد طالت اقامته معززا مكرما ، وخالطت محبته القلوب منا ، ومع هذا لم نستطع ان نعفيه من « من » ولا « من اين » او « كيف » ؛ تلك الاسئلة ، التي كانت وما تزال ، مفاتيح العلوم ، ومكاشيف الحقائق والفنون..

لا شك ان « الجهة » التي نسبنا اليها ، قد اقتطعت منها بدايتها ؛ فهي من الوجهة التي قال فيها الله « ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات » ، فهذه الوجهة من الوجه الذي قال فيه « قد نرى تقلب وجهك في السماء » فهي في زنتها اخت « القبلة » التي قال فيها كذلك « فلنولينك قبلة ترضاها » . وهذه من القبل ضد الدبر ، في صريح الحقيقة ولا كناية بها .

اذن فالنسبة الى « الجهة » التي حذف فاؤها . والصنيع في هذا بعد الحذف ، ان ينسب الى ما تبقى في الكلمة على حاله ، بدون زيادة ولا نقصان ، لان المحذوف منه ، ليس معتل اللام ، كما في « شية » فنقول « وشوى » ، بل هو صحيحها ، كعدة من الوعد ، فنقول « عدي » . وبهذه القاعدة ، نقول ، ونحن نودع « الجهوي » آسفين ولهين : « الجهي » ؛ لا « الجهوي » ؛ لان الخلاصة تقول في الثنائي (الذي يوخذ بمفهومه من الشرط) :

وان يكن كشية ما الفا عدم
فجبره وفتح عينه التزم

ولهذا فلا نقول « وجهي » كما قلنا « وشوي » وبالاحرى لا نقول « جهوي » كما نقول « ملهوي » ، نقول حسب القاعدة المتبعة « جهي » بالرغم من كوننا – لاول وهلة – ضائقين بهذا الضيف ، القلق الحركة ، المتلعثم اللسان . ولكنه على كل حال ضيف كريم صادق كليم .

اما « الحنوى » او الحانوى الوارد في قول الشاعر :

فكيف لنا بالشرب ان لم يكن لنا
دراهيم عند الحانوي ولا نقد

فان الكلمة أساسا ليست عربية ، بل هي « حانه » التي استبدلت الخاء حاء من « خانه »

الفارسية والتي أصلها يدل على البيت مطلقا . ثم صار يطلق كناية على البيت المضاف الى الدعارة . وما زالت كلمة « كارخانه » في الشرق ، تطلق على هذا البيت المضاف الى العمل « كار » الفارسية ، فكان التركيب فيه « بيت العمل » ؛ مكنى في البيت، ومكنى في العمل وهو الذي نستعمل فيه نفس الاستعمال في عاميتنا ، وفي الشلحة كذلك ؛ التي ما زال اهل الجبال ، من غير قومها ، يستعملون الكلمة في اطلاقها على العمل مجردا فيسأل بعضهم بعضا : « اش كتقي » ؟ بمعنى : ما ذا تعمل ؟ او ما تصنع ؟ او تفعل ؟

ومهما يكن ، فقد عاملوا « حانه » معاملة ذات التاء للتانيث ، وأجروا عليها قاعدة :

« وان تكن تربع ذا ثان سكن
فقلبها واوا وحذفها حسن »

وان لم تكن في الاصل كذلك تانيثا . وهذا يعني التعريب الذي يخضع الاجنبي لاوامره ، ويلبسه ملابسه ، ويهندمه هندامه ، بلا تسامح معه .

محمد بن تاويت

تنبيه

وقعت في القصيدة التي نشرناها للشاعر الاستاذ عبد العلي الودغيري بالعدد 233 (دجنبر 1983) اخطاء مطبعية ناسف لوجودها ونرجو من القارىء الكريم ان يتنبه لذلك :

1) فمن جهة يقرأ العنوان بفتح الراء من (ربابة) لا بالضم كما هو وارد .

2) ومن جهة ثانية ينبغي ان يقرأ البيت الثاني على النحو التالي :

شهدية ، وعسل لماها — يزيدك البعد بها صبابة

كتاب الدرر الفرائد المنظمة

في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة

تأليف : عبد القادر بن محمد بن عبد القادر الانصاري الجزيري
عرض : الأستاذ محمد بن عبد العزيز الدباغ

من المخطوطات التي تحتوي عليها خزانة القرويين بفاس كتاب : (الدرر الفرائد المنظمة في اخبار الحاج وطريق مكة المعظمة) : تاليف الفقيه عبد القادر بن محمد بن عبد القادر الانصاري الجزيري نسبة الى منشا جدوده بالجزيرة من عراق العرب بالقرب من بغداد حسب ما دونه بنفسه في الجزء الثاني من كتابه صفحة : 890 ، لا الى جزيرة الفيل بمصر كما هو مذكور في كتاب الاعلام للزركلي رحمه الله .

ينقسم هذا الكتاب الى جزئين ، وتبلغ صفحاته ازيد من تسعمائة صفحة ، في كل صفحة خمسة وعشرون سطرا ، وهو مسجل في الخزانة تحت عدد : 554 ، ومحبس عليها من لدن احمد المنصور السعدي رحمه الله سنة احدى والف هجرية ، ومقاسه : 27 × 23 .

وهو كتاب زاخر بالاخبار ، مدون لمختلف الاسفار ، مبين لاصول الحج ، موضح لمناسكه ، مفصح عن قواعده ، مصور لكثير من الاحوال الاجتماعية والاقتصادية ، مستدل بكثير من النصوص الادبية والدينية . كتبه مؤلفه عن خبرة وتجربة ، واستمد عناصره من كتب التاريخ والفقه والتفسير ، واقتبس كثيرا من موضوعاته من ممارسته التي اكتسبها عن طريق معاشرته لوالده حينما كان كاتبا لديوان امرة الحاج ، وعن طريق مباشرته هو نفسه لهاته الكتابة حينما اصبح مكلفا بها (ج 1 ص : 108) .

كان والده فقيها من فقاء مصر ، واختير في عهد الجراكسة ليكون كاتبا لهذا الديوان ، واستمر في وظيفته رغم تقلب الاحوال وتغلب السلطة العثمانية على مصر فقد استولى السلطان سليم العثماني على هاته البلاد سنة 923 هـ ، ولم يؤثر ذلك في وضعية بعض الموظفين الاكفاء مثل والد المؤلف المذكور .

لقد اطل الجزيري على الحياة باعبائها ومارس مشاق الاسفار باتعابها ، واكثر من الرحلات الحجازية منذ صغره ، وصاحب والده في حجاته ، وكانت الحجة الاولى سنة ست وعشرين وتسعمائة وهو في الخامسة عشرة من عمره ، وقد تحدث عنها في كتابه ووصف نفسه حينئذ بانه كان شابا في أول البلوغ وانه كان كثير الرغبة في ركوب النياق السريعة والولوع بالمغامرات (ج 1 ص : 347) .

ولما توالت حجاته وتعددت آثار انتباه امير الحاج دوادار سليمان باشا فالحقه بديوانه ثم جعله مساعدا له خصوصا بعد أن مرض والده المؤلف ، واخيرا أصبح كاتبه الخاص بعد موت الوالد سنة اربع واربعين وتسعمائة ، رحمه الله (ج 2 ص 890).

كان المؤلف معجبا أكبر الاعجاب بالعثمانيين وبما يبذلونه من جهد في اصلاح امور المسلمين وما يقومون به من أعمال جليلة في اصلاح معالم الحج ، لذلك كان يثني عليهم ويذكر اخبارهم بكل اجلال ، ولقد حرص في بعض نقوله على ان يذكر اسماء ملوكهم منذ تاسيس دولتهم سنة تسع وتسعين وستمائة هجرية الى زمن تاليف الكتاب على الترتيب الآتي : (ج 1 ص 361) عثمان بن اغور ثم ابنه ارخا ثم مراد ثم بايزيد المعروف بيلدرم ، ومعناه الصاعقة حسب ما ذكره المرحوم شكيب ارسلان في ملحقه على تاريخ ابن خلدون ، ثم ولده الفاتح ثم بايزيد الثاني ، ثم سليم الاول ، ثم سليم القانوني ، ثم ذكر فيما بعد بعض الاخبار عن سليم الثاني الذي تم تنقيح الكتاب في عهده .

وانما اشرنا الى هذا التلقيح لان الكتاب مر في تاليفه على مرحلتين :

المرحلة الاولى : مرحلة تسويده ، وكان ذلك ما بين سنة ستين وتسعمائة وسنة احدى وستين وتسعمائة (ج 1 ص : 158) وظل في مسودته الى ان كانت المرحلة الثانية وهي مرحلة تنقيحه واخراجه ، وهذه المرحلة لم تتم الا في رابع رمضان سنة تسع وسبعين وتسعمائة هجرية (ج 2 ص 911) ولا شك ان المؤلف اضاف اليه بعض الجزئيات واشار الى بعض الوقائع التي كانت بين زمن التاليف وزمن الاخراج والتنقيح .

وبناء على ما تقدم نتيقن ان المؤلف كان حيا في ذلك التاريخ الذي نقح فيه الكتاب ، وعلى اساس ذلك اعتمد المرحوم سيدي العابد الفاسي في كتابة فهرست مخطوطات القرويين في ابراز خطإ الاستاذ الزركلي حينما ذكر ان المؤلف توفي سنة سبع وسبعين وتسعمائة هجرية . والزركلي رحمه الله لم يخطىء في تاريخ الوفاة فقط ، بل اخطأ في تاريخ الميلاد ايضا ، فهو ذكر انه ولد سنة ثمانين وثمانمائة هجرية ، مع ان المؤلف ولد سنة احدى عشرة وتسعمائة حسب ما اشار اليه في كتابه بنفسه (ج 1 ص : 377) ، اما السنة التي ذكرها الزركلي فهي سنة ولادة والده رحمه الله ، ويتضح ذلك من الاطلاع على ترجمته في الصفحة التسعين بعد الثمانمائة من الجزء الثاني من هذا الكتاب الذي يعد من الكتب ذات الاهتمام بالتاريخ والفقه .

ومن محاسنه ان مؤلفه كان يكثر من الحديث عن نفسه واسرته واصدقائه وشيوخه بحيث يمكننا ان ندمجه في اطار الكتب المهتمة بالتراجم الذاتية التي تصور حياة الكاتب بكل ابعادها .

وبناء على خطته هاته يمكننا ان نشير الى بعض شيوخه الذين اخذ عنهم الفقه واللغة والحديث والتفسير ، ونذكر من بينهم على سبيل المثال (ج 1 ص : 106) .

اولا : شهاب الدين أحمد بن عبد العزيز الحنبلي الفتوحي الشهير بابن النجار ، فقد اخذ عنه الكتب الستة ومسند الامام احمد ابن حنبل والشفا للقاضي عياض ، والبيان في آداب حملة القرءان للنووي .

ثانيا : موسى بن احمد بن عبد الرحمن الحسني الارميوني المالكي الشهير بالخطابي ، اخذ عنه المكودي من شروح الالفية وابن عقيل وابن المصنف والتوضيح ، وروى عنه صحيح البخاري وكتاب الشفا .

ثالثا : احمد بن اسماعيل بن صدقة بن داود ، اخذ عنه كتاب قانون شاه في الطب .

ومن المعلوم ان المؤلف كان يعتني بكتب الطب كعنايته بكتب الفقه والادب والتاريخ . والسبب في ذلك راجع الى استمداده كثيرا من هواياه واهتماماته من والده الذي كان مشهورا بخبرته في طب العيون .

وحيث ان المؤلف اشتهر بذكائه وخبرته ومعرفته بشؤون الحج وباطلاعه على احوال الطرق وبمهارته في علم التاريخ والجغرافيا ، فقد التمس منه بعض من يعلم ذلك ان يؤلف لهم كتابا جامعا لامور الحاج والمنازل وكيفية الرحيل والنزول والاقامات والمناهل ، وان يتحدث فيه عن امرة الحاج منذ ابتداء فرض الحج الى زمانه ، فلبى رغبتهم والف هذا الكتاب الذي تحدث فيه عن امرة الحاج منذ ابتداء فرض الحج الى زمانه فلبى رغبتهم والف هذا الكتاب الجامع لكل ذلك ورتبه على سبعة ابواب متضمنة لواحد وثلاثين فصلا .

وفيما ياتي ذكر لهاته الابـــواب والفصـــول (ج 1 ص : 3) .

الباب الاول : ابتداء بناء الكعبة وفضلها وشرفها ومعنى الحج والعمرة وما يتعلق بالشروع في ذلـــك وفيـــه فصـــول :

الفصل الاول : في ابتداء بناء البيت وشرفـــه وفضله ، وذكر من حج من الانبياء والملائكة وغيرهم .

الفصل الثاني فيما ورد في فضل لحج والعمرة من الاحاديث الصحيحة والاسانيد الفصيحة .

الفصل الثالث : في معنى الحج والعمرة وبيان ذلك وتفصيل ما هنالك لغة وشرعا .

الفصل الرابع : في شرائط وجوبها والكلام على ذلك تفصيلا وجمعـــا .

الفصل الخامس : فيما يجب ويستحب على من قصد الحج والعمرة وبيان ذلك .

الفصل السادس : في أخبار مكة المشرفـــة ـ زادها الله شرفا وتعظيما ـ ومن كان بها من قبائل العرب الى أن جاء الاسلام .

الفصل السابع : فيمن كان يلي الاجازة بالناس قبل النبوه في تلك المشاعر العظام والاماكن الكرام .

الباب الثانـــي : في امـــرة الحـــاج وفيـــه فصـــول :

الفصل الاول : كيف حج رسول الله صلى الله عليه وسلـــم .

الفصل الثاني : الحال الذي يجب ان يكـــون عليه امير الحاج من الصفات والاخلاق والافعال وذكر الراعـــي والرعيـــة .

الفصل الثالث : في ذكر اربـــاب المناصـــب التابعة لامرة الحاج وما يتعلق بذلك .

الفصل الرابع في فوائد ختم بها هذا الباب ، وان كانت ليست من نمط هذا الكتاب .

الباب الثالث : فيمن ولى امره الحاج من زمن النبي صلى الله عليه وسلم بعد وجوب الفرض والى تاريخ الشروع في هذا الباب وفيه فصلان :

الفصل الاول : ذكر فتح مكة المشرفة وتاريخ ذلك ملخصـــا .

الفصل الثاني : من ولي امرة الحـــاج وايراد بعض الوقائع بمكة والطرقات في بعض السنين على سبيل الاختصار مما لا يستغنى عن ذكره .

الباب الرابع : فيما يشتمل عليه ديـــوان امرة الحاج من بعض أصناف المهم والاسباب ، وفيـــه فصـــول :

الفصل الاول : في تجهيز الحمول وذكر مـــا جرت العادة بحمله من ذلك من طريق الطور اولا ثـــم من السويس بحـــرا ، والى العقبة والازلم بـــرا ، وتفصيل العربان الحاملين لذلك ببدنات وأسماء .

الفصل الثاني : في ذكر الجمـــال وتفصيـــل محملها وعددها على اختلاف الازمان والسنين وذكر بعض ما وقع في اثمانها وما معها من التعين عنـــد انتقال الامرة وما يتعلق بذلك .

الفصل الثالث : ذكر ما كانت عليه ولاية امـــر الحاج من الاعتبار والمهابة واعتناء من تقدم من الملوك بشانها ، وفي صدر من الدولة المظفرة وتصريـــف هذا المهم في كل حالة مستطابة والتفالي في حسن القيام على الفقراء وسماحة النفوس المبالغة في ذلك الى كل نفيس من ماكول ومشروب ومركوب وملبوس .

الباب الخامس : وهو لب الكتاب وسجع طائره المستطاب في ذكر المنازل والمناهل محلا بمحل ، وما يلتحق بذلك وفيه فصول :

الفصل الاول : في مسافة ما بين مكة المشرفة وغيرها من البلدان المتوارده على الاسماع ، وذكـــر البرد والفراسخ وما يتعلق بذلك .

وما يتعلق بذلـــك .

الفصل الثالث : في ذكر الادراك وحدودهـــا وطوائف العربان منزلا بمنزل ومنهلا بمنهل ؛ وايراد ما يفتح الله به من معنى أسماء تلك المنازل وما فيها من المياه المتوارد عليه طوائف العربان وما يقرب من حسم واختلاف ما ورد في اسماء بعـض المنـــازل كحدرة دامة وأم البسيس وما قيل في كل منزلة من الشعر ان تيسر وصفة النزول والرحيل ؛ وفي كـم درجة ومقدار الاقامة بالدار وايراد بعـض الوقائـــع الواردة في بعض المحلات وما فيها من تجديد فسقية او عمارة او صالح مدفون بها وترجمته وترجمة العمران ان تيسر وايراد ما تيسر من معنـــى اسم المنزلـــة والسبب في تسميتها كبدر وحنين .

الفصل الرابع في مختصر غزاة بدر ونصـــرة النبي صلى الله عليه وسلم وذكر الشهداء ومسجد الغمامـــة وغير ذلـــك .

الفصل الخامس : في ذكر الاحرام وما يجـــب شرعا من المناسك والمحظورات ومـــا يستحـــب مـــن ذلـــك .

الفصل السادس : في ذكر مكـــة المشرفـــة واسمائها وفضلها وحدود الحرم ودرعه وذكر مراتبها ونسب صاحبها الآن وهو مولانا الشريف ابو يحيـــى ابن بركات وبعض الوقائع على سبيل الاختصار .

الفصل السابع في ذكر افعال الحج وما يجب ويستحب من المناسك الى تمامها شرعا وما يتعلـــق بذلـــك .

الفصل الثامن : في ذكر بقية المراحـــل على الترتيب السابق مما لم يسبقني اليه احد بعون الله.

الباب السادس : في ذكر المدينة المشرفـــة واسمائها وفضلها ومشاهدها ومعاهدهـــا وفيـــه فصـــول :

الفصـــل الاول : في فضلهـــا ومشاهدهـــا ومعاهدهـــا .

الاخبار من محاسن الاخبار .

الفصل الثالث : في كيفية الزيارة وما يفعلـــه الزائر عند الشروع فيها وما يستحب من ذلك .

الباب السابع : وهو خاتمة الكتاب في ذكـــر بعض من حج من الاعيان رجالا ونساء من الصحابـــة والخلفاء والملوك والوزراء واكابر الامراء وذكر بعض احوالهم واقوالهم وافعالهم وفيه فصول :

الفصل الاول : في ذكر من حج من الصحابـــة والخلفـــاء .

الفصل الثاني في ذكـــر مـــن حـــج مـــن الملـــوك .

الفصل الثالث : في ذكر من حج مـــن الوزراء واكابر الامراء والاعيان ممن اشتهر في ذلك الزمان .

الفصل الرابع : في ذكر بعض مـــن حـــج من النساء والخونـــدات وبتمـــام ذلـــك تـــم الكتاب وبالله المستعان وعليه التكلان .

ولقد حاول ما امكنه عند التحليل ان يكـــون ملتزما بتصميمه وان يعتمد في ذلك على مشاهداته ومعرفته من جهة وعلى المعلومات المقتبســة مـــن سابقيه من جهة اخرى ، وكان يرتكـــز في الاحكـــام الفقهية على المذهب الحنبلي لانتمائه اليه . واما في المواد اللغوية والتاريخية فكـــان له ارتباط بأهـــم المصادر التي اشتهرت في ذلك .

ويمكننا ان نقسم مصادره الى ثلاثة انواع :

النوع الاول المصادر التاريخية ونذكر منهـــا على سبيل المثال :

1) كتاب ابي الوليـــد الازرق في تاريـــخ مكـــة (ص : 5) .

2) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام للعلامة الفاسي المعروف بالشريف الفاسي الحسني ، ويعني به تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الحسني الفاسي المتوفى سنة 832 هجرية ، وقد اشار اليه صاحب كشف الظنون وذكر انه قد كان يختصر هذا الكتاب مرارا (ص : 14) .

ومن جملة مختصراته الكتاب المعروف بتحفة الكرام وقد رتبه على ترتيب اصله اربعين بابا فرغ من اختصاره سنة 817 هجرية ، ومن مختصراته تعمير المقام في الحرام .

3) العقد الثمين في تاريخ البلد الامين للعلامة الفاسي المذكور ، واظن انه مختصر من مختصرات شفاء الغرام (ص : 25) .

4) اتحاف الورى باخبار ام القرى للعلامة ابن فهد جد الشيخ جار الله (ص : 79 – 281) ، ويعني به الشيخ نجم الدين عمر بن فهد المكي المتوفي سنة 885 هـ ، ومن المعلوم ان جده هو الفاسي السابق والغالب أن كتابه كان ذيلا لكتاب جده كما ان ابنه وحفيده قد ساهما في تذييل هذا الكتاب ، وقد نقل المؤلف في كتابه بعض النقول الموجودة بالصفحة 344 والصفحة 372 .

5) رحلة ابن جبير لم يذكر اسم صاحبها ولكنه ذكر عنها انها رحلة لاحد المغاربة من اهل غرناطة (ص : 159) .

6) الروض الانف للسهيلي (ص : 153) .

7) العقود الفريدة في تراجم الاعيان المفيدة للمقريزي وقد سماه مرة أخرى بجواهر العقود (ص : 79 – 879) .

8) السلوك في دول الملوك للمقريزي ايضا (ص : 879) .

9) مروج الذهب للمسعودي (ص : 51) .

10) المسالك والممالك للبكري (ص : 45) .

النوع الثاني : كتب الفقه والحديث والتفسير ، ونذكر منها على سبيل المثال :

1 – حجة الاسلام للحافظ برهان الدين البقاعي (ص : 65) .

2 – مناسك الامام النووي (ص : 76) .

3 – تفسير القرطبي (ص : 110) .

4 – حجة المعقول والمنقول للشيخ حسن بن محمد البابلي الحنبلي (ص : 43) .

5 – الشفا للقاضي عياض (ص : 23) .

6 – كتاب الفروع لابن مفلح (ص : 38) ويعني به محمد بن مفلح الحنبلي المتوفى سنة 763 هجرية .

7 – المجرد للقاضي ابي يعلى وهو من ائمة المذهب (ص : 30) والمراد به محمد بن محمد ابن الفراء الحنبلي المتوفى سنة 458 هجرية .

8 – الجامع الصغير للسيوطي (ص : 5) .

النوع الثالث : كتب اللغة والادب ، ومن ذلك :

1) كتاب الاخبار والفوائد والانصار لابي القاسم الزجاجي النحوي (ص : 64) .

2) تذكرة ابن حمدون (ص : 73) .

3) العقد الفريد لابن عبد ربه .

4) الاحكام السلطانية للماوردي .

5) ادب الكتـــاب لابـــن قتيبـــــة

6) درة الغـــواص للحريـــري .

7) المحـــاسن والاضــــداد للجاحـــظ .

وان تنويع هذه المصادر لما يدل على ان المؤلف كان حريصا على الافادة راغبا في تعزيـز ابحاثـه وتقريرته بكل ما يتيسر له من وسائل البحث ، ولعل الذين سيتولون تحقيق هذا الكتاب ويقومون باخراجه سيعملون ما امكنهم على ربط الاستدلالات باصولهـا ليعرفوا مقدار ما اكتسبه ومقدار ما أضافه وليوازنوا بين ما في هذا الكتاب وبين ما في غيـره ، الا ان التحقيق لا يتم الا اذا وجدت نسخ اخرى من هـذا الكتاب نظرا لما في نسخة خزانة القرويين من مسح وطمس لكثير من سطورها خصوصا في الجزء الثاني، فقد تغلبت عليها آثار الرطوبة في كثير من اوراقها ، ورغم ذلك فهي لقيت عناية كبرى من مؤرخ الجزيرة الشيخ حمد الجاسر الذي حـرص على تصويرهـا والتحقق من مضمونها ليخرجها اخراجا سليما .

وفي انتظار ذلك لا نرى باسا من تقديم بعـض الجزئيات التي تطرق اليها المؤلف لنعرف طريقته في التأليف ولنطلع على كيفية تعرضه للموضوعات التي اشار اليها سواء كانت متصلة بالاحكام الفقهيـة او كانت متصلة بغيرها ، وفيما ياتي ذكر ذلك :

اولا : فضائل الحج والعمرة :

اقتضت اهتماماته الفقهية ان يعرف بهمـا و ن يبرز فضائلها واستعان في ذلـك بآيـات قرآنيـة وأحاديث نبويـة .

فمن الآيات التي استدل بها قول الله تعالى في سورة البقرة : (ج 1 ص : 20) « واذ جعلنا البيت مثابة للناس وامنا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ، وعهدنا الى ابراهيم واسماعيـل ان طهـرا بيتـي للطائفين والعاكفين والركع السجود » .

ومن المعلوم ان هناك في سورة الحج آية اخرى تتحدث عن تطهير البيت وتستعمل لفظة القائمين بدل العاكفين ، ولكن المؤلف وقع له خلط وسهو فاستعمل جزءا من تلك الآية هنا واتم آية البقرة بما تتم به آية الحج ، وهذه غفلة واضحة لا شك انه سينتبه اليهـا من يقرا كتابه قال تعالى : « واذ بوانا لابراهيم مكان البيت الا تشرك بي شيئا وطهر بيتـي للطائفيـن والقائمين والركع السجود واذن في الناس بالحـج ياتوك رجالا وعلى كل ضامر ياتين من كل فج عميـق ليشهدوا منافع لهم ويذكـروا اسم الله في أيـام معلومات على ما رزقناهم من بهيمة الانعام » (الحج 26 – 27 – 28) .

فالمؤلف جعل جزءا مما هنا تابعا لآية البقرة السابقـة .

ومن الآية التي استدل بها قول الله تعالـى : « الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فـلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج » (البقرة 197) .

وقوله : « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد (المائدة 97) .

وقوله : « مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنـا ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيـلا ومن كفر فان الله غني عن العالمين » (آل عمران 97) .

واما الاحاديث النبوية فكثيرة ايضا ، نذكر منها قوله : « وروينا عن الشيخين وغيرهما عن ابي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلـم قال : (العمرة الى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء الا الجنة) ، ورواه الاصبهاني وزاد وما سبح الحاج تسبيحة ولا هلل من تهليلة ولا كبر من تكبيرة الا بشر بها تبشيرة » .

ولابي يعلى وللبيهقي في شعب الايمان عن أبـي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : (من خرج حاجا فمات كتب له اجر الحـاج الى يوم القيامة ، ومن خرج معتمرا فمات كتب له اجر المعتمر الى يوم القيامة ، ومن خرج غازيا فمات كتب له اجر الغازي الى يوم القيامة ، وفي التنزيل الجليل : ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركـه الموت فقد وقع اجره على الله .

ولا ريب أن اعتماد المؤلف على الكتاب والسنة في هذا الموضوع انما يدخل في نهجه الديني المتجلي في طريقة تفكيره واستدلالاته .

ثانيا : الحديث عن فريضة الحج وفريضة العمرة :

وهذا الموضوع متصل بمنهجه التحليلي الذي لا يقتصر على الاخبار المجرد وانما يشير الى الاقوال المختلفة رغم انتمائه الى المذهب الحنبلي .

فالحج فرض لا خلاف فيه ، أما العمرة فقد اختلف في فرضيتها ، فمن الفقهاء من يرى انها سنة ومنهم من يرى انها فرض لازم كالحج ، وقال بذلك احمد بن حنبل في احد قوليه معتمدا في ذلك على قول الله تعالى : « واتموا الحج والعمرة لله » .

قال المؤلف (ج 1 ص : 26) : « وممن قال بوجوبها عمر بن الخطاب وابنه عبد الله وابن عباس وزيد بن ثابت وابن مسعود في رواية وجابر بن عبد الله في رواية ، ومن التابعين وغيرهم سعد بن المسيب وسعيد بن جبير وعطاء وطاووس ومجاهد والحسن وابن سيرين والشعبي ... الخ » . قال وعن احمد رواية ثانية انها سنة غير واجبة ، وهو قول النخعي وأبي حنيفة ومالك والشافعي في القديم .

وقد ادمج المؤلف ابا حنيفة مع من قال بسنيتها لا مع من قال بفرضيتها ، وهذا مخالف لما هو مشهور ، فقد جاء في كتاب القوانين الفقهية لابن جزي ان العمرة سنة مؤكدة خلافا لابن حبيب من المالكية ولابن حنيفة ، فهما من الذين قالوا بفرضيتها .

وعلى كل حال فان الفقهاء قد اضطربوا في الحكم بسبب اختلاف تأويلهم للآية السابقة التي استدل بها احمد بن حنبل باعتبار أن الاتمام ليس معناه الوجوب وانما معناه القيام بهما على احسن وجه او على ان المراد به الاتمام بعد البداية ، فهي تصبح واجبة بعد الشروع فيها ، فليس اقترانها بالحج دليلا على وجوبها سواء كان ذلك في الآية أو كان في الحديث ، اذ من المعلوم انه ورد عن عائشة رضي الله عنها انها قالت قلت : يا رسول الله اعلى النساء جهاد ؟ قال نعم ، عليهن جهاد لا قتال فيه : الحج والعمرة ، رواه احمد وابن ماجة ، وهذا لفظه ورو ته ثقات ، وقد نقلنا هذا الحديث من كتاب المحرر في الحديث في بيان الاحكام الشرعية لابن قدامة المقدسي .

وقد تقدم فيما سبق ان المؤلف أشار أثناء حديثه عن فرضيتها الى الصحابي الجليل جابر بن عبد الله باعتبار احد روايتيه ، أما الرواية الثانية عنه التي يقول فيها بالشبه ، فهي قوله : اتى النبي صلى الله عليه وسلم أعرابي فقال يا رسول الله اخبرني عن العمرة اواجبة هي ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ، وان تعتمر خير لك ، رواه الامام احمد وضعفه والترمذي وصححه ، وقد روي موقوفا وهو اصح .

ثالثا : شرائط الحج (ج 1 ص : 30) :

وقد ذكر ان شروط الحج خمسة ، هي : الاسلام ، والبلوغ ، والحرية ، والعقل ، والاستطاعة ، وقد قسمها الى ثلاثة اقسام :

1 — ما يشترط للوجوب والصحة ، وهو الاسلام والعقل .

2 — ما يشترط للوجوب والاجزاء دون الصحة ، وهو البلوغ والحرية .

3 — ما يشترط للوجوب دون الاجزاء ، وهو الاستطاعة ، فلو تكلف غير المستطيع الحج اجزاه واسقط عنه فرض الاسلام .

رابعا : ما يجب ويستحب على من قصد الحج والعمرة (ج 1 ص : 34) :

كان المؤلف في هذه المقالة بالذات حريصا على ابراز ما ينبغي للحاج ان يقوم به قبل سفره لما في ذلك من الاخلاق السامية الاسلامية الهادفة الى عدم الاضرار بالآخرين والباعثة على الاتكال على الله في كل الامور والدافعة الى الاستفادة من خبرة الناس الموثوق بهم ، لذلك رغب من الحاج ان يستشير ذوي

الخبرة وان يلتمس منهم النصيحة وان يستخير الله فيما يقوم به ، وان يوسي بما يحتاج الى الوصيـــة ، وان يسجل المعاملات الموجودة بينه وبين الناس ، وان يطلب من الله المعونة على السفر ، وان يتعلـم مناسك الحج ، وان يعد النفقة لمن تلزمه ، وان يتزود من غير اسراف ، وان يسترضي والديه ويطلب منهما الدعاء ، وان يتجنب الغيبة والنميمة ، وان يصلـي ركعتين قبل وداع اهلــه .

واشار أثناء تفصيله لهذا الموضوع الى بعـض الادعية التي ينبغي للمسافر ان يذكرها قبل سفره ، نسجل منها الدعاء الآتي : « اللهم بك استعين وعليك اتوكل ، اللهم ذلل صعوبة امري وسهل علي مشقـة سفري وارزقني من الخير اكثر مما اطلب ، واصرف عني كل شر . رب اشرح لي صدري ونـور قلبـي ويسر امري ، اللهم اني استحفظك واستودعك نفسي وديني واهلي واقاربي وكل ما انعمت علي وعليهم بـه في آخرة ودنيا فاحفظنا اجمعين .. » . ويختتـم ويفتتح بالحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وهكذا نجد ان هذا الفصل من الباب الاول يعد من الفصول التمهيدية لبداية الرحلة لكـل من اراد التوجه الى البقاع المقدسة . ومن هنا نلاحـظ ان هذا الباب لم يكن مقتصرا على الوصف التقريري ، بل انه كان في الوقت ذاته كتاب تعليـم وتوجيـه وارشاد .

خامسا : ولاية امرة الحاج (ج 1 ص : 72) :

اشار في هذا الباب الى ان ولاية الحاج واجبة وان المسؤول عن الامة ملزم باختيار الكفء لها دينا وعلما واخلاقا ، وانه لا يسمح له بالاستهانة بهـذه الوظيفة التي تعتبر ذات شان كبير في تحقيق ركـن مهم من اركان الدين ، واستدل على ذلك بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ولي من امر المسلمين شيئا فولى رجلا وهو يجد من هو اصلح للمسلميـن منه فقد خان الله وخان رسوله وخان المومنين » . رواه الحاكـم وصححـه .

وذكر ان هذه الولاية ضربان : احدهما ان تكون على تسيير الحج والثاني على اقامته ، فاما تسييـر الحج فهو ولاية سياسة ورعاية وتدبيـر والشروط المعتبرة في المولى ان يكون مطاعا ذا راي وشجاعة وهداية ، وقد استمد من كتاب الاحكام السلطانيـة للماوردي ما تتضمنه هاته الولاية من اعمل وما تتكلف به من امور وهي ان يجمع الناس في مسيرهـم وان يرتبهم وان يسلك بهم اوضح الطرق وان يقوم خالنهم وان يؤدب ظالمهم وان يراعي اتساع الوقت حتـى يؤمـن الفـوات .

واما اذا كانت الولاية على اقامة الحج فهو فيها بمنزلة الامام في الصلاة ، فيشترط فيه ان يكـون عالما بمناسك الحج واحكامه ، عارفا بمواقته وايامه ، ثم قال : « وتكون ولايته مقدرة بسبعة ايام اولها من صلاة الظهر في اليوم السابع من ذي الحجة وآخرها يوم الحلاق وهو يوم النفر الثاني في اليوم الثالـث عشر من ذي الحجة وهو فيما قبلها او بعدها احـد الرعايا وليس من الولاة » .

سادسا : المناصب التابعة لامرة ولاية الحج :

وهنا ذكر منصب الدوادار المكلـف بتبليـغ الرسائل عن الامير وابلاغ عامة الامور ومنصب قضاة المحمل ويتكلف به قاض يحكم في المسائل الشرعية بين الحجاج ذهابا وايابا حفظا لمصالحهم . ومنصب الشهود والكتاب زيادة على المكلفين بشؤون المحمل والخيل والقوت وغير ذلك .

وبعد هذه التمهيدات العامة شرع في ذكـر شؤون الحج قديما وحديثا وذكر من كان يتولى هذه الامرة في الجاهلية والاسلام مع الاشارة الى من حج من زمن فرضية الحج الى عهد المؤلف وهـو بـاب طويل جدا ومفيد ، ولولا ما فيه من محو وطمس في بعض صفحاته لكان اكثر فائدة وبه انتهى الجزء الاول وكانت البداية في الجزء الثاني بالباب الرابع المتعلق بمشتملات ديوان امرة الحاج ثم اعتنى بعده بالبـاب الخامس المتعلق بذكر المنازل والمناهل ثم بالبـاب السادس المتعلق بالمدينة المشرفة وما يتعلق بهـا وختم الكتاب بالباب السابع المتعلق بذكر بعض من حج رجالا ونساء من الصحابـة والخلفـاء والملوك والوزراء واكابر الافراد مع ذكر بعـض احوالهـم واقوالهـم .

ولعل الذين لهم عناية بالتاريخ وبالشؤون الاجتماعية سيجدون في هذا الجزء الفائدة الكبرى وسيدلهم على صورة من صور المجتمع الاسلامي في هذه البقعة الطاهرة وما جاورها من البلدان والاقاليم .

وانا لنشعر بكامل الاعتزاز حينما نعلم انه يوجد من بين المهتمين بتاريخ الجزيرة العربية في العصر الحاضر من يعنى باحياء التراث وبتتبع مراحله وعلى رأسهم الاستاذ الفاضل الدكتور حمد الجاسر الذي أخذ صورة من هذه المخطوطة ، وهو الآن يتتبع محتوياتها ويستفسر عن غامضها ويحرص على تحقيقها واخراجها اخراجا سليما ، تتمنى له التوفيق والسداد والتمكن من انجاز الهدف المراد .

فاس : محمد بن عبد العزيز الدباغ



من موضوعات أعدادنا القادمة



تصورات في الثقافة والصحافة

للأستاذ محمد الجحرة

المحيط الثقافي ينبع من التعليم بمراحله التقليدية او العصرية ، ومن المحاضرات ومجالس العلم والندوات الادبية والمناظرات الثقافية والعلمية، ومن المجلات الادبية والثقافية والفنية ، وحتى مما تنشره الجرائد اليومية والاسبوعية مما له ارتباط بالتوعية الفكرية وتوسيع دائرة الافق العقلي والفكري مما يصلح ان يكون اداة فعالة للميدان الثقافي ، ولذلك كان لا بد من توسيع دائرة التوعية الصالحة التي تكتشف المواهب وتفتح الابواب لبلوغ الاهداف المنشودة لكل مثقف ومتعلم .

ومن هذا ينشأ المجتمع الثقافي المشبع بالافكار الخلاقة التي تنير الطريق لجيل سوف يلجأ الى التنقيب عن الماضي ليستخرج منه ما يطلبه الحاضر في قالب جديد يوافق عقل جيل لم يعش ذلك الماضي الا ما يسمعه ممن يحكى له عنه ، لكن المجتمع الثقافي الذي سبق نشأته بسنوات هو الذي احتفظ له بذخائر في مادتها الاصلية الاصيلة مسبوكة في اسلوب يلائم ويساير تطور الفكر العربي الحديث .

واذا انعدمت تلك الينابيع فليس باستطاعة احد ان يلمس اي اثر ثقافي له اسسه ومقوماته ويعتمد عليه في خلق جو ثقافي يدرك وسائل التطور ويخطو الى تنوير العقول المتفتحة التواقة الى الرقي والتقدم في مدرجات حضارية وفكرية تسمو بالعقل الى مستوى رفيع ينفع الوطن والامة .

تلك ظاهرة طبيعية مرت بها كل الشعوب ، ومراحل دقيقة اجتازتها بالخصوص الدول المستضعفة وطوقها بمرور السنين في ظروف انتقالية وتغلبت عليها بوسائل عديدة وجد ايجابية ترجع الى طبيعة وطبائع الانسان الذي من فطرته ان يعيش بين الاحلام والاماني وانتظار غد مشرق . وفي هذه الحالة يكون الفرد والجماعة سببين في المسؤولية ، وهو شأن المجتمع الصغير والمجتمع الكبير ، فلكل منهما احلام وتفكير لا يفارق الذهن لتحقيق تلك الاماني التي قد يكون منها بناء الاسرة الصالحة من زواج الابناء والبنات والمصاهرة والحرص على انجاب الاطفال وتوسيع دائرة الاسرة ، ومثل ذلك المجتمع الكبير له من الاماني الكثيرة يسعى لتحقيقها وبالاخص اذا كان تحت الضغط والكبت والحرمان بتوسيع دائرة التوعية لتشعر الامة ان الظلام والظلم زائلان غير دائمين ، وانه لا بد من بزوغ فجر وطلوع شمس ، ولا بد كذلك من غد مشرق باسم يعيش فيه الجميع في سعادة ويتنفس فيه الافراد الصعداء وينعم فيه الصغير والكبير بنسيم الحرية التي طالما خاطبته بها الاحكام وناشدها في سره ونجواه .

ونحن في المغرب كان لنا ولا زالت معاقل للعلم ينهل من منابعها كل طالب يتلقى فيها العلوم على اختلاف شعبها وانواعها من علماء أجلاء فضلاء لهم باع طويل في مختلف فنون العلم والادب ولهم ملكة

وموهبة وقدرة على التبليغ والادراك ، هؤلاء تركوا لنا الكثير من ذخائر انتاجاتهم العلمية وابحاثهم القيمة الفردية مما يعمل على استخراجه وتحقيقه وطبعه علماء هذا العصر المعروفين بتفانيهم واخلاصهم في الابحاث التاريخية والادبية والعلمية .

وجل مدن المغرب كانت بها مجالس العلم كما في قراه ، وفي هذه المجالس او الحلقات العلمية يتكون طلاب العلم تكوينا صحيحا وقويا متينا رغم قلة الكتب وندرتها وانعدام وسائل الطبع والنشر ، فالنقل ، نقل الكتب باليد ثم المطبعة الحجرية هما الوسيلتان للحصول على ما في الامكان من الكتب .

وهذا التكوين وان كانت وسائله بدائية مع انعدام النور الحديث او الضوء الكهربائي اعطى للبلاد ثمرة علمية نافعة في شتى العلوم الفقهية واللغوية والادبية وغيرها من العلوم التي اختص بها كل عالم مشارك .

وهذه الظاهرة العلمية الواسعة لم تخلق في البلاد حركة ثقافية شاملة جامعة ، بل ومجتمعا ثقافيا يشمل شباب الجيل ورجال المستقبل ، انها كانت في نطاق خاص يعرف اهلها بالعلماء والفقهاء لهم صفات يختصون بها احتفاظا على مكانتهم العلمية التي هي غاية العلم في التحلي بالصفات الحميدة من حشمة ووقار ومكارم الاخلاق .

وهذا التكوين التقليدي بعد حصول طلابه على الاجازات من اكبر العلماء والفقهاء يتعاطون التدريس والقضاء والعدالة والافتاء والامامة وخطب الجمعة وبعض الوظائف العليا على الصعيد الحكومي ، وكانوا العضد الايمن للدولة في الشدة والرخاء حيث حافظوا على اللغة العربية والشريعة الاسلامية السمحة ، وحثهم على فتح الكتاتيب القرآنية في كل حي ليكثر حفظة كتاب الله العزيز في مدن المغرب وقراه الى جانب قيامهم بالواجب العلمي من وعظ وارشاد وتوعية دينية واخلاقية ومواقفهم المشهودة ضد الغزاة المحتلين .

ونرى من خلال تاريخنا المجيد ان من العلماء من تعاطى الكتابة وتقريض الشعر، فالابداع في الكتابة الفنية كانت الى جانب الخط المغربي الجميل لها مكانتها وتحتل مكان الصدارة في دواوين الانشاء للدولة ، وترك كثير من الكتاب والشعراء ذكريات عصرهم وحالة الامة الاجتماعية في مختلف اطوارها ، ومن ملوك الدولة العلوية الشريفة علماء تركوا وراءهم اثرا قيما في التاليف ونظام سياسة الدولة ، ومن علمائنا من يمكن ان نطلق عليه موسوعة لما جمع من مشاركته في كثير من فنون العلم والادب والثقافة .

وملوكنا الابطال الذين قادوا سفينة هذه الامة بنصائحهم الغالية وحكمتهم الرشيدة كانت لهم العناية الكبرى بالعلم والعلماء ، فقد مدوا يد المساعدة والتشجيع للعلماء على اداء رسالتهم العلمية ، وللعمل المستمر على توحيد كلمة الامة وحثها على التمسك بتعاليم الاسلام والتخلق بالاخلاق التي جاء بها خاتم النبيئين والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، والتعلق بالعرش العلوي العتيد الذي هو ضمان وحدة هذا الوطن الدينية والترابية .

وقد بذل الجانبان جهودا جبارة للحفاظ على اللغة العربية وتعاليم الاسلام السمحة الخالصة من كل بلبلة وتشويش مما اعطى لهذا الوطن ميزة خاصة في وحدة عقيدته وبعده عن كل غزو فكري في حرصه على احياء اللغة العربية التي هي لغة القرءان الكريم .

والملاحظ ان الناشئة المغربية المثقفة اليوم في تشوق للاطلاع على الاطوار التي مر بها مجتمعنا العلمي والثقافي في عدة عصوره لاعطاء هذه الاطوار نوعا جديدا من السبك والبحث المفيد للوصول الى الغاية المنشودة في مجال البحث العلمي ومنهاجية التاليف الحديث خدمة للمستقبل العلمي المتطور ، وهذا ما اهتدى اليه بعض طلاب العلم في حياتهم العلمية واستكمال جوانبها لتحقيق الغاية المثلى في تحضير عمل علمي ترجع ابحاثه الى ما كتبه وسجله العلماء والادباء والكتاب المغاربة بالخصوص في شتى مراحل تاريخ المغرب ، والى الجانب الثقافي الشامل لدى رجال العلم والفكر وما يذخروه ويحتفظون به في مكتباتهم الخاصة مقدرين المجهودات التي بذلوها في هذا السبيل امتدادا لمسلسل النهضة الثقافية في وطننا وتتميما لما قدمه شيوخنا داخل هذه الحلقات المحكمة المنسقة لخلق وحدة فكرية ابداعية امتزجت في قالب من الماضي والحاضر

حفاظا منه على التراث المغربي الاصيل ماضيه وحاضره ومستقبله .

ومن الاهداف التي تنهج سبيلها الناشئة من الباحثين والباحثات في التاريخ والادب والعلوم هو التعريف بالحياة الاجتماعية والثقافية والحضارية في شكلها الاصلي وفي اطار جديد يعطينا صورة لمغرب جديد في ثقافته الجديدة الحديثة مع انبعاث علمي وحضاري متطور .

وهذا من بواعث النهضة الثقافية الحديثة التي وجهت التعليم ونظمت مراحله وشجعت المتخصصين في مختلف الشعب وفي زمن وجيز مع توفر الامكانيات العلمية ليتقلدوا مهام ذات مسؤولية في التعليم والقضاء والهندسة والطب وعلوم الاعلام وتسيير الادارة وغير ذلك من المهام التي يتكون منها جهاز الادارة ومتطلبات الامة .

من بين هذا التكوين المشبع بالثقافتين الممتزجتين بتراث الماضي والحاضر تظهر مواهب بين الحين والآخر في فنون مختلفة تعطي اشعاعها بنوع من الجراة الفكرية والشجاعة الادبية .

ذلك ان طلاب العلم من شبابنا في أوائل هذا القرن كانوا تواقين الى طلب العلم أينما وجدوه ، لكن الغاية لن تتم الا اذا اغترفوا من منابعه ، ومعقل العلم واللغة والدين والشريعة والادب بجامع القرويين التي كان يحج اليها الغني والفقير من أنحاء المغرب طلبا للعلم والتزود بالدر من معدنه لما لمدينة فاس من الامكانيات لقبول الطلبة بمدارسها التي تأوي بداخليتها كل طالب علم ، كمدرسة الصفارين والبوعنانية من المدارس التي أصبحت من الآثار التاريخية المعمارية الفنية ، كما كانت توجد ببعض مدن المغرب الشهيرة بالعلم مدارس من هذا النوع لكنها قليلة حيث توجد مدرسة في كل مدينة ، كمدرسة لوقش بتطوان ، على ان القرويين كانت بمثابة الجامعة ، يتخرج منها علماء حملوا الاشعاع العلمي الى بقية انحاء المغرب ، ومنهم كان علماء الحديث والتفسير واللغة والادب ، ومنهم القادة العلماء والزعماء البلغاء الذين لم يكتفوا بما حصلوه من ثقافة ، بل زاد تطلعهم وطموحهم الى ثقافة سياسية لم تلقن ولم تدرس شعورا منهم واحساسا بالضغط والحرمان من الحريات العامة وتأسيس الجمعيات وتبادل الآراء والتعبير البناء ، وحرية التجول في أنحاء المغرب شماله وجنوبه ، وفتح المدارس العصرية والتطلع الى نظام دمقراطي يمنح الشعب حقوقه وطموحاته للخروج من عزلته ليعبر عن شعوره وآرائه في اصلاح البلاد والسير بها الى مستقبل افضل ، ووضع حد للثقافة الدخيلة المفرضة ونشر التعليم الذي هو حق لجميع ابناء الوطن واحياء اللغة العربية ومحاربة روح التفرقة التي بدات تسود البلاد .

في اجواء هذه السحب القاتمة بدات تنمو الثقافة السياسية التي كان لزاما أن تعمل في السر زمنا طويلا ، حتى اذا افلحت مسعاها خرجت الى الوجود ، وكان يطعم هذا النوع الجديد من الثقافة بعثات من شباب المغرب رجعوا الى الوطن من الشرق والغرب حاملين معهم الوجه الجديد للثقافة الحديثة الى جانب ما كان يرد على المغرب من جرائد سياسية ومجلات ثقافية من بلاد الكنانة زيادة على الاتصالات الشخصية والمراسلات السرية بين القادة ورجال الفكر في المشرق والمغرب .

بمثل هذه العوامل توفرت لدى الثقافة السياسية كل العناصر المطلوبة ، وحصلت على تكوين صحيح يؤهلها لخوض تجربة في النشر باصدار صحف تلقن القراء شبابا وكهولا من خلال مقالاتها وتعاليقها ثقافة سياسية كان من الضروري أن تعم جميع طبقات الامة .

واذن كان لا بد من ثقافة حديثة تظهر للوجود بعد ما فرضت الحماية على هذا الوطن ، وتصرف فيه الولاة المعتمرون أسوأ وابشع تصرف ، وضيق الخناق على أصحاب الارض ، فكان المتنفس الوحيد امام هذه الوضعية هي الصحافة المغربية المعبر الوحيد عن مطالب الشعب ، فكانت نشرات وجرائد تطبع على آلة التكرار ثم جرائد تطبع على المطابع الحديثة ، وبدات تصدر جرائد عربية وفرنسية واسبانية هي الباقة التي قدمت لهذا الشعب وثمرة الثقافة السياسية ، وهذه النواة المباركة للصحافة المغربية التي لم تنقطع عن توعية المواطن المغربي ، ثقافيا وسياسيا وفكريا منذ ان ظهرت أول ورقة ضمت بين سطورها الثقافة السياسية ..

لهذا نجد في عهد الحماية الذي دام مسلطا على هذا الوطن مدة خمس واربعين سنة بعض الجرائد تصدرها ادارة الحماية تنطق بلسان حالها ، وجرائد وطنية تبث الوعي الثقافي والسياسي وتخدم مصلحة الوطن وتسهر على حفظ الكيان المغربي لما يجد فيها القراء من آراء حرة وافكار نيرة ووطنية صادقة بأقلام رواد الفكر والادب والحرية .

وتجدر الاشارة الى ان من مظاهر هذا الانبعاث في الميدان الصحفي الذي كان ثمرة الثقافة السياسية صدور عدة جرائد ومجلات في مختلف مدن المغرب ، نذكر منها ما صدر في الثلاثينيات :

ففي الرباط : صدرت مجلة المغرب وجريدة الاطلس وجريدة المغرب ، وبمدينة سلا جريدة التقدم، وبمدينة فاس جريدة الدفاع .

وبمدينة تطوان صدرت مجلة السلام وجريدة الحياة ومجلة المغرب الجديد وجريدة الريف وجريدة الاخبار وجريدة الحرية وجريدة الوحدة المغربية ومجلة الارشاد الديني وجريدة بريد الصباح .

على ان هذا من تاريخ الصحافة بالمغرب تعرضنا لذكر بعضها دون ذكر مؤسسيها من القادة والاساتذة والاعلام الفضلاء جزاهم الله احسن الجزاء على ما قدموه من خدمات لهذا الوطن العزيز ، وذلك لشهرتهم ولما لهم من الفضل الكبير في تنوير الناشئة الطموحة لخوض تجربتها في ميدان الصحافة والنشر التي ظهرت بعد في تاريخ الكفاح المغربي والمقاومة عن طريق الثقافة السياسية في فترات متتابعة الى ان تحرر المغرب وتحررت صحفه الوطنية من الرقابة .

كان هذا جانبا من الوعي الثقافي المثمر ، ظهر بعد ان اكتمل النمو الثقافي وترعرع وبلغ اشده لتعطشه للتجديد والتعبير السالم والراي الذي لا مراء فيه ولا خذلان .

على هذا النهج القويم تتلمذ جيل الاربعينات متصدى بكل جراة ونزاهة لميدان الصحافة مجربا حظه في النجاح وفي حذر من الفشل ككل تجربة .

فصدرت بالرباط : مجلة رسالة المغرب وجريدة العلم ومجلة الشباب المغربي .

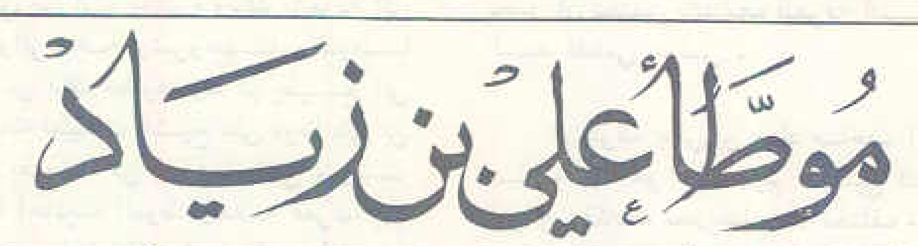
وبالدار البيضاء جريدة الراي العام . وبمدينة سلا جريدة الوداد . وبطنجة جريدة مراكش وجريدة منبر الشعب .

ومن الصحف التي صدرت بتطوان خلال هذه الفترة : المجلات : الانيس ، الانوار ، لسان الدين ، المعرفة . ومن الجرائد : الدستور ، النهار ، الشهاب .

ونترك ذكر ما صدر من الصحف في النصف الاول من الخمسينات التي صدرت فيه أكثر من عشرين صحيفة ما بين جريدة ومجلة صدرت في الدار البيضاء والرباط وطنجة وتطوان للوصول بكفاح الثقافة السياسية الى بزوغ فجر الحرية والاستقلال .

وبمقدار ما حققته صحافتنا من اهداف وغايات نستطيع القول بأن الراي العام كان على صلة وثيقة بجرائده ومجلاته وما تنشره على صفحاتها من تعليقات وتحليلات ومواضع ادبية وقصائد شعرية وقصص شيقة ، وتعطيه الاشعاع الكافي اللائق بمستواه العقلي والفكري وذوقه الادبي في هيكل صحفي صالح ، له ميزاته في التنسيق والاتقان والابداع .

تطوان : محمد الجحرة



تحقيق: الشيخ محمد الشاذلي النيفر
عرض وتقديم:
الأستاذ محمد صلاح الدين المستاوي
(تونس)

موطأ علي بن زياد كتاب من نفائس المخطوطات في الفقه الاسلامي، ظل رهين الخزائن الخاصة لا يرى النور، ولا يتعرف على ما فيه المهتمون بالفقه الاسلامي عامة والمالكي بصفة خاصة الى أن اتجهت اليه عناية فضيلة الشيخ محمد الشاذلي النيفر فقدمه ودرسه دراسة عميقة ونشرته في طبعة أولى الدار التونسية للنشر سنة 1978، ثم توالت طبعاته بعد ذلك في الشرق العربي بواسطة دار الغرب الاسلامي، فطبعته طبعة ثانية سنة 1980 ونفذت، وطبعة ثالثة سنة 1981 ونفذت، وطبعة رابعة سنة 1982، ولن تكون الاخيرة، اذ الاقبال على هذا الكتاب الهام يزداد يوما بعد آخر وتحرص على اقتنائه كل المؤسسات التعليمية والجامعية والاسلامية.

واهمية هذا الكتاب (موطأ بن زياد) متأتية من ان موطأ الامام مالك بن انس هو أول كتاب دون في العربية بعد كتاب الله القرءان الكريم، فقد دون قبل كتب الصحاح المشهورة كالبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة والنسائي. وروايات الموطأ عن الامام مالك كثيرة، تجاوزت الستين رواية، في كل رواية اختلاف وزيادة مثرية عن الرواية الاخرى.

ولقد ظلت روايتا يحيى بن يحيى الليثي المصمودي ومحمد بن الحسن الشيباني هما كل ما تصل اليه ايدي القراء من روايات الموطأ. وفي السنوات الاخيرة ظهرت في تونس قطعة من رواية القعنبي وهي رواية ذات قيمة واهمية فاضافت الى الروايتين رواية ثالثة. ثم اخرج فضيلة الشيخ محمد الشاذلي النيفر رواية علي بن زياد الافريقي، ولهذه الرواية خصائص ومميزات تذكر في هذه العجالة بعضها تاركين لاهتمام القارىء التوجه الى هذه الرواية بنفسه ليرى اهميتها وقيمة الجهد العلمي الذي بذله في سبيل اخراجها فضيلة الشيخ محمد الشاذلي النيفر.

تقارب صفحات الكتاب الثلاثمائة من الحجم المتوسط، تحتل القطعة المحققة الحيز الواقع بين صفحتي 119 و 226، ويبدأ كتاب رواية ابن زياد بباب الضحايا ثم العقيقة ثم الزكاة ... وينتهي بباب الصيد والذبائح.

وقد تتبع الشيخ الشاذلي هذه الابواب فربط بين كل باب بما يقابله في الرواية التي تعد الى اليوم الرواية الاوسع والاشمل وهي رواية يحيى بن يحيى الليثي وبين أن كان هناك اختلاف بين الروايتين وشرح الكلمات الغامضة والمصطلحات الدقيقة بالعودة الى الكتب المعتمدة في المذهب المالكي مشيرا بدقة الى الاجزاء والصفحات، ونبه المحقق الى ما لم يرد في رواية يحيى واختصت به رواية ابن

زياد . وهكذا فعل مع كل حديث وقول لاحد الصحابة او التابعين او راي من أراء مالك ، وذلك بالعودة الى خليل وشروحه والرسالة وشروحها والموطا وشروحه ما كان من ذلك مطبوعا وما لم يطبع الى اليوم ، وبذلك جاءت تعليقات الشيخ على موطا علي بن زياد ربطا لاصوله بفروعها في الفقه المالكي ، ولم ينس الشيخ رواة احاديث الموطا واعلامه فعرف بهم بايجاز غير مخل ، مشيرا دائما الى مواضع التراجم من الكتب التي اعتمدها .

وان ما يتكرر كثيرا في هذا التحقيق الشامل والدقيق هو المقارنات التي اتخذ لها الشيخ الشاذلي جداول تبين اوجه الاختلاف حتى في الالفاظ المستعملة ، لقد افاض المحقق على رواية الموطا من علمه الغزير وتمكنه انقوي من الفقه المالكي وامتلاكه لناصيته ما جعل تحقيقه كتابا مستقلا ودراسة مستفيضة لا غنى للقارىء عنها ، بل اجل خدمة يقدمها مالكي من المتأخرين لاصل المالكية الاول الموطا ، ان تحقيق رواية علي بن زياد ربطت الاصول المالكية القديمة كالموطا والمدونة والعتبية والواضحة بالرسالة وشروحها ، وخليل وشروحه ، وبقية كتب المتاخرين . وما كان لهذا العمل الجليل ان يتحقق على غير يدي الشيخ الشاذلي النيفر شيخ المالكية ف شمال افريقيا .

وقد قدم الشيخ النيفر تحقيقه بدراسة شغلت الصفحات (من 7 الى 112) في هذا الحيز درس المحقق منبت المذهب المالكي فذكر السند الافريقي للمذهب المالكي وهو سند متصل الى الامام مالك متقدم في الزمن ثم تتبع نمو المذهب وانتشاره ذاكرا مشاهير أعلامه في افريقية والمغرب والاندلس واهم تآليفهم يقول الشيخ الشاذلي (.. استحقت افريقية ان تكون المنبت الثاني للمذهب المالكي) ، (فالبذرتان الاوليان هما موطا ابن زياد ثم مدونة سحنون) . ثم تحدث المحقق فعد موطا ابن زياد اول تأليف افريقي وبين قيمة ابن زيادة ومنهجه الفقهي ، ثم عقد فصلا طويلا عنون له بالتعريف بابن زياد وموطئه ودرس فيه العلم في تونس فعرف بأول من نشر العلم في تونس وهو خالد بن ابي عمران ، وذكر تلقيه عن التابعين وتتبع حياة هذا العلم وبين قيمته العلمية وتلاميذه ف القيروان وتونس ومؤلفاته واعتبره مؤسس المدرسة التونسية ، وفي راي ان حياة ابن ابي عمران كان يجدر ان تختص بالتاليف ليعرفه الناس ويتصل السند العلمي بتونس .

ثم عرف بعلي بن زياد صاحب الروايه فذكر اصله ، فاذا هو من العجم ، وتتبع المحقق كل كتب التراجم فكادت تعاريفها به لا تختلف ، وقد انتقل الى تونس من طرابلس في الصبا وتلقى عن ابن عمران سالف الذكر ثم انتقل الى الشرق فاخذ عن اعلامه وذكر المحقق مشايخه الكثيرين والذين منهم الليث ابن سعد ، وتحدث الشيخ عن مدرسته وذكر رسوخ قدمه وسعة عمله واطلاعه ، وتميز فقد قيل فيه (وهو معلم سحنون الفقه) وتوسع الشيخ في هذا الباب ، ثم ذكر مؤلفاته ووفاته التي كانت سنة 183 هـ .

ودرس الشيخ الشاذلي موطا علي بن زياد في ما يزيد عن الخمسين صفحة تناولت هذه الدراسة حياة الامام مالك وقيمته العلمية ، والموطا واهميته وتعدد رواياته وعددها ، وذكر الرواة الافارقة فذكر موطا اسد وموطا خلف وموطا عيسى التونسي وموطا ابن زياد التونسي وبين اختلاف الموطات ونسخة ابن زياد ودرس مختلف ابواب القطعة المحققة من رواية علي بن زياد ثم بين نسبة هذه القطعة الى علي بن زياد ومنهجه في التحقيق مصحوبة بصفحتين من المخطوط .

هذه صورة سريعة لعمل تونسي معاصر يرفع الراس ، يحق لنا ان نفخر به ونزين معارضنا به ونقدمه لاشقائنا في الجامعات والمعاهد والكليات مساهمة جليلة من هذه الديار في خدمة الثقافة الاسلامية اداها مشكورا مبرورا فضيلة الشيخ محمد الشاذلي النيفر ، تلقفتها ايدي الاشقاء بلهف شديد زادهم الاطلاع عليها اكبارا لتونس ولابن تونس ومفخرتها العلمية الشيخ محمد الشاذلي النيفر امد الله في انفاسه حتى يواصل وباقصى السرعة ما حدثنا عنه من مشاريع علمية في مجال التحقيق والدراسة اثناء كل لقاء معه في بيته العامر او فى قاعة الدرس فى شعبة الفقه والسياسة الشرعية بالدراسات العليا في الكلية الزيتونية للشريعة واصول الدين .

في الأسرة الإسلامية:

من قضايا الوهم... وسوء الفهم

للدكتور توفيق محمد شاهين
(كندا)

تقديم:

الاسلام دين الانسانية ـ الخالد والخاتم ـ في مستواها الرفيع، جاء به خاتم المرسلين ـ صلى الله عليه وسلم ـ رحمة للعالمين ـ وجربت الامم والشعوب غيره فاعتراها القلق، وشقيت حياتهم .. وليس الاسلام دينا خاصا بالمسلمين، ولكنه رحمة للناس اجمعين، غير انه لا يجبر احدا على الدخول فيه واعتناقه، « فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر ».

والاسلام هو الدين الوحيد الذي انصف اهل الكتاب، وسجل لهم تاريخهم بالامانة والاخلاص فيما كانوا فيه هداة ومهديين، وسجل على عابثيهم ما خرجوا به على الصراط المستقيم ..

الا ان الاسف يملأ الجوانح، لان كثرة من مثقفي الشرق والغرب على حد سواء، لا يطيقون مجرد سماع اسم الاسلام ويتحاملون عليه في حقد بارد ومكتوم، وما تخفي صدورهم اكبر ..

وكان واجب الامانة والانصاف والمنهج العلمي يقتضيهم البحث والتحري والانصاف والعدل، ان كانوا علماء حقا .. بدلا من محاولة رمي الاسلام بكل نقيصة وخسيسة .. وغض الطرف عن كثير من الامور مراعاتها تضع الامور في نصابها ..

فما فتىء الشغل الشاغل للمبشرين والمستشرقين وتلاميذهم ذكر الاسلام بالسوء، والنيل منه، وغض الطرف عن محاسنه .. بغية تشويهه، وصرف ابنائه عنه، وعصمة ابنائهم عن اعتناقه كحق ونور، ولكن: « يريدون ليطفئوا نور الله بافواههم، والله يتم نوره ولو كره المشركون ».

ونتناول اليوم موضوع « الطلاق » في الاسلام، لانه ما زال مصدرا خصيبا لسوء الفهم والجدال وقضايا التجني والوهم .. وسنرى ان احكام القرءان في الطلاق اكثر مراعاة لروح الانسانية والعدالة اكثر بكثير مما سبق في الديانات الاخرى:

فقد كان الحق في « الطلاق » وقفا على الرجال في الشرائع الاخرى، وتقدمت الحضارة فنالت من المرأة نصيبا ضئيلا. وقد تعسف الرجال في استعمال هذا الحق الى درجة الاساءات البالغة، اهدرت آدمية المرأة، وكان الرومان يقدمون نساءهم لارتكاب بعض الاعمال التي لا تستوجب القتل، حتى خفف ذلك الى الطلاق.

وحين قال عيسى بن مريم عليه السلام: « ما جمعه الله لا يفرقه انسان »، انما كان يقصد وقف التيار المتردي بالفساد الاخلاقي المزري. وكان حق الطلاق عند العرب قبل الاسلام غير مقيد بقيد.

وجاء الاسلام فاستنكر الطلاق لانه سبيل يقوض اركان المجتمع ، ولكن من المستحيل الغاءه كلية في كل اوضاع كانت قائمة ، وتشريعا لاستثناء يجعل من الشريعة الخالدة صلاحية للاصلاح والصلاح ، فقيد الطلاق بقيود خاصة ، تحد من التهور والطيش ، واعطى الزوجة الحق في طلبه لاسباب معقولة ، وجعل حق الرجل فيه رخصة يراعى في ممارستها قيود وارشادات ونذر . ولو فهم المسلمون العصريون وغير المسلمين قدسية الزواج في الاسلام ، ونبل مقاصده واهدافه ، وما يحيط به من تعاليم .. لعلموا ان في الطلاق وتشريعه على نظام الاسلام رحمة من الله تعالى .

فقد شرع الاسلام الزواج ، وحث عليه لتحصيل اهداف سامية نبيلة ، من كثرة النسل الى عمارة الكون ، الى ممارسة الجنس من طريق نظيف والتسامي به .

وكان الزواج ايضا للسكن الجسمي والنفسي ، وبهجة القلب وشرح الصدر ، وبذلك تستقر الحياة الزوجية ، وتقوم الحياة على الامتزاج والتناغم والانسجام والاطمئنان والرضا .

ومن ثم وثق الاسلام عقد الزواج ، وجعله ميثاقا غليظا ، وعهدا مؤكدا ، وحرما مرعيا ، وعقدا مصونا ، له من القدسية والاحترام منزلة وتقديرا ؛ فهو علاقة باركها الرب ورضي عنها .

وحث على كل ما من شأنه ان يصون الحياة الزوجية ، ويدفع بها نحو السعادة والاستقرار والدوام .

وحذر الاسلام من خلخلة البناء للحياة الزوجية او زعزعته بأي منغص او اضطراب ، ليكون بمأمن من العواصف التي قد تعصف به ، او الحتوف السود التي تتحيفه .

واذا كان من واجب المسلم ان يتمسك في استماته بامر الله ، وأن يتجنب نواهيه ، وان يحل ما احل ، ويحرم ما حرم ، عن طيب نفس ورضى وطواعية واختيار .. فاننا نجد « الطلاق » حلال يبغضه الله ، فهو حلال ، لكن الله يبغضه ، وتهتز له السموات ؛ لانه يفصم علاقة مقدسة ، ويقوض اركان بناء مبارك ، ويسبب حقدا وعداوة ، ويورث ثارا ، ويفضي الى بغضاء وضغينة دفينة تجلب من المشاكل ما المجموعة البشرية في غنى عنها ، والى غيرها احوج منها .

ففي الزواج : المحبة والمودة والسكن والصداقة والقرابة والتآلف والتعاون على الخير ..

وفي الطلاق : الدمار والخراب ، وتفتيت اواصر المحبة وتشتيت الاسرة وضياع الاولاد والاحوال ، وايغار الصدور .

ولذلك حذر الاسلام من الطلاق وهو الحلال كما اسلفنا ، عن ابن عمر رضي الله عنه ، عن النبي – صلى الله عليه وسلم – : « ابغض الحلال الى الله الطلاق »، وقوله عليه الصلاة والسلام : « ايما امراة سألت زوجها الطلاق في غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة » .

وكذلك الزواج اذا عبث برباط الزواج المقدس ففصم عراه بالطلاق ، اتباعا للهوى والشيطان ، واستخفافا بكل ما من شانه ان يجلب الاستقرار للاسرة والهناء للاولاد ... فهو انسان لا يعبأ بمثل الحياة الانسانية الرشيدة ، ولا بالمثل العليا في هذه الحياة ، ونظرة الاحياء اليه في الدنيا نظرة شك وارتياب ، وفي الآخرة حسابه على الله تعالى .

* * *

الا ان صفو الحياة لا يخلو من الكدر .. والوجه الجميل تكتنفه احيانا الكلف التي لا تجعل الجما لقبه خلوا من الشوائب التي تعكره وتفسد عليه بهاءه ورواءه . كما ان الخداع او عدم الفطنة والعجلة تردى احيانا في المنحدر الكريه او الردىء ، نتيجة لعوامل ما كانت في الحسبان ، او ادى اليها الغش والخداع، او سببتها الغفلة او العجلة وعدم التروي ، او دفع اليها سبب قاهر ... يجعل الحياة الزوجية جحيما بدلا من النعيم ، وتعاسة بدلا من السعادة ، وترحا بدلا من الفرح والسرور ... وهنا تختفي كل معاني الزواج السامية ويحل محلها كل ما من شأنه الاضطراب والازعاج والتعاسة والشقاء .

فقد يتكشف للزوجية ان احدهما او كلاهما قد اخطا في اختيار شريكة العمر ، فطاشت لذلك الاحلام .. أو يرى احدهما من مالوف الطبع والعادة ما يجعل التنافر بينهما كتنافر قطبي المغناطيس .. او تتعذر امور وأهداف كانت المقصود من بناء الحياة الزوجية ، ثم تستبين الاستحالة في علاجها او تلافيها ، مما يسبب التكدير الدائم والشقاء النامي والمتراكم ...

وهنا تبرز عظمة الاسلام في اباحية مشروعية ابغض الحلال الى الله ، وهو « الطلاق » ، لان الزواج فقد مقوماته الاساسية وعمده ، فاستمراره نكد ، والصبر عليه عذاب ، ومنافعه اصبحت عدما ، ومباهجه باتت كمدا والما .. فلا بد من مخرج من هذه الورطة ، وحل لهذه العقدة ، بيسر حل هذا الميثاق الغليظ ، الذي اصبح كابوسا ثقيلا ، فيكون الطلاق دواء من داء وقتئذ .

وتشريع الطلاق هنا يرينا مدى مرونة الاسلام وطواعيته ، ومواكبة الاحداث النازلة والطارئة تصحيحا لوضع ، وانهاء لعلاقة يغلب اثمها نفعها .. واعطاء الحرية الشخصية في التصرف من جديد على اسس نظيفة ، وقد تكون آمن عاقبة ، واكثرها نفعا ، واعمق تعقلا ، واثرها ايجابيا وبناء .

وكان الاسلام منطقيا مع نفسه والحياة باعتباره خاتم الاديان ، لمراعاة حال البشر ، اذا جنح بهم السفين ، ومال بهم الطريق : فالبتر على قساوته خير من حياة يسودها القلق ويعتورها الاضطراب . وفي هذه الحالة يكون البلسم الشافي ، هو قول الحكيم الخبير :

« وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته ، وكان الله واسعا حكيما » ،(النساء : 130) ، فاقتضت حكمة الحكيم الحكمة في السلوك حيال هذه المشكلة، وفيما تاتي به الايام من الفرج الواسع ، والعوض المكافىء ، ما تلتئم به الجروح ، وترتاح له النفوس ، على نحو ما ختمت الآية الكريمة ، والله لطيف بعباده، متى صلحت النيات ، واستقام العدل واخذ مجراه .

ولا يتبادر الى الذهن ان الاسلام يسارع الى فصم عرى الزوجية من اول بادرة خلاف ، او عند بوادر الشقاق والنزاع ؛ بغية انهاء الخلاف واغلاق الباب ... بل هو يوصي بالصبر والتريث ، والحلم ، والحكمة ، والموعظة الحسنة ، والنصح السديد والرشيد ... وعلى الجانب الآخر يحذر من تعاطي أسباب الشقاق والخلاف وكل ما شأنه تكدير صفو الزوجية ، يقول الله تعالى :

« واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن ، فان اطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ، ان الله كان عليا كبيرا » (النساء 34) .

فالنشوز المحظور هنا هو : معصية الزوج او الترفع عليه بالخلاف وعدم الطواعية ، والعظة : تكون بالتذكير بما امر الله ورسوله مما جاء في الكتاب والسنة ، والهجر : تولية الظهر الموقوت او الهجر في المضجع عسى ان يكون رادعا ، والضرب : هو الايلام الطفيف بما من شأنه ان يكون ادبا لا انتقاما ولا غلا ... فان اطعن فلتتق الله العلي القوي والقهر الكبير ... ولنحذر ان يكون الامر أمر هوى وسوء طبع .

ويضرب الرسول الكريم جميل القدوة والاسوة بنفسه حين يقول : « ... خيركم خيركم لاهله ، وانا خيركم لاهلي » ، ويحكم بانه لا يكرمهن الا كريم ، ولا يهينهن الا لئيم ، ويوصي بالنساء خيرا ، لان في طبيعتهن ضعف ، يعبر عنه بالعوج ، وكان من آخر وصاياه – صلى الله عليه وسلم – في حجة الوداع : « ن استوصوا بالنساء خيرا » .

وعلى الجانب الآخر يحذر المراة من سخط الرب حين تسوء عشرتها ، وتتمرد على طبيعتها ، وتستعصى على واجبها ، فمن الذين لا تقبل صلاتهم – كما يقول الرسول الكريم – ولا ترفع لهم الى السماء حسنة ، ثلاثة هم : « العبد الابق حتى يرجع الى مواليه فيضع يده في ايديهم ، والمراة الساخط عليها زوجها حتى يرضى عنها ، والسكران حتى يصحوا » ، رواه الطبراني في الاوسط ، وابن حبان وابن خزيمة في صحيحيهما . ويروي الترمذي – رضي الله عنه – قول الرسول الاكرم : « لوكنت آمر احدا ان يسجد لاحد لامرت المراة ان تسجد لزوجها » ، من عظم حقه عليها . ويقول الرسول – صلى الله عليه وسلم – لعمة الحصين بن

محصن ، حين ذكرت زوجها للنبي : « انظري من اين انت منه ، فانه جنتك ونارك » فيما اخرجه النسائي . وابن عمر ـ رضي الله عنه ـ يروي عن المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا ينظر الله الى امراة لا تشكر لزوجها وهي لا تستغني عنه » ، فواجب المراة ان تطلب رضاء زوجها وتتجنب سخطه .. كما ان واجب الرجل اعفاف المرأة واكرامها بما جرى عليه العرف ، وان زاد فهو منه احسان ودرجة عليها ..

وحسن التبعل والصبر ادعى الى الرضاء ودوام المعروف وحسن العشرة ، قال الاصمعي : دخلت البادية فاذا امراة حسناء لها بعل قبيح ، فقلت لها : كيف ترضين لنفسك ان تكوني تحت مثل هذا ؟ فقالت : اسمع يا هذا ، لعله احسن فيما بينه وبين الله خالقه فجعلني ثوابه ، ولعلي اسات فجعله عقوبتي .

وقبل الطلاق يقدم الاسلام ادوية كثيرة ايضا في محاولة لرأب الصدع وحسم الخلاف بغية ارجاع المياه الى مجاريها الرقراقة الصافية بكل الوسائل الممكنة :

- بسلاح التحذير والتهديد بان : الطلاق قسوة مكروهة ، فهو ابغض الحلال لذلك الى الله .

- وبوسيلة الاصلاح الذاتية ، فيما بين الزوجين ، احتراما لبيت السكن والمودة والرحمة ، ومبناه على السرية في العلاقات الخاصة ، صيانة عن الفضول والتدخلات الخاطئة او الجاهلة او المشبوهة .

- وبالحث على مراجعة النفس الامارة بالسوء : « فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا » (النساء : 19) .

- وبالتذكير بنعمة البنين والحفدة ، ومن حقهم هناءة العيش والعيشة الراضية ، وذكرهم حافز مثير ومنبه وداع الى الصبر والتحمل ، ان هم امتداد الزوجية ، واكبادنا تمش على الارض ، وأشواق الروح ، قال تعالى : « والله جعل لكم من انفسكم أزواجا وجعل لكم من ازواجكم بنين وحفدة ، ورزقكم من الطيبات ، افبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون » . (النحل : 72) .

- كذلك يذكره القرءان ويذكرها بنعمة الزوجية ، التي يجب ان يحرصا عليها الحرص كله ؛ اذ لا قوام لاحدهما بدونها في مامن من العثار والزلل ، وبالاجتماع بها يكون وجودها وكمالها ونعمة الاحساس بها : « وخلقناكم ازواجا » .

- ثم هناك دعوة أهل الخير والصلاح ، وذوي النيات الحسنة ، لتلطيف هذا العارض الذي يهدد حياة الزوجية ، عسى ان تطيب العشرة والحياة وترفرف السعادة على حياتها من جديد ، حين يستمع الحكمان في أمانة وحكمة لمصدر الشقاق والنزاع ، ثم محاولة ازالة اسبابه ، وبذل النصيحة الخالصة لاصلاح ذات البين ، وعلى قدر صلاح النيات يكون الخير ، واتباع الهدى ، يقول تعالى : « وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من اهله وحكما من أهلها ، ان يريدا اصلاحا وفق الله بينهما ان الله كان عليما خبيرا » (النساء : 35) .

واذا لم تجد هذه المسكنات والادوية في معالجة ما طرا على الحياة الزوجية من نفور وفتور .. فلا حل اذن الا بابغض الحلال الى الله ، باستعمال رخصة الانفصال لفض الشركة بالتي هي احسن ، والمحافظة على اطرافها من المشاكسة والتمادي في العناد واللجاج ، حين لا يتسع الخرق على الراقع .

ومن مزايا الاسلام في الطلاق ايضا انه لم يجعله بعد استنفاد جميع هذه الوسائل ضربة واحدة، وكلمة تقال في مجلس واحد ، فيكون الحكم باتا وقاطعا ، وانما جرى الاسلام ـ كشانه ـ في التدرج ومراعاة الخصائص البشرية ، عسى أن يكون في الامر ما يتدارك ، ويحل الوئام محل الخصام .

فيطلق الرجل امراته في طهر لم يمسها فيه طلقة اولى ، وتظل امراته مع ذلك ، عسى ان يراجع نفسه طوال طهرها ، ويقلع عما هو مقبل عليه .. وان كانت حاملا فعدتها ان تضع حملها ، وان كانت من ذوات الحيض فعدتها ثلاث حيض اوقروء ، وان كانت لم تحض بعد فعدتها ثلاثة أشهر .. وعسى ان تهدا

حدة الخلاف في تلك الفترات وتصفو النفوس ويرفرف السلام من جديد .

وقد هم رجل بطلاق امرائه ، فقال له عمر بن الخطاب ، لم تطلقها ؟ فقال : لا احبها ، فقال عمر : او كل البيوت بنيت على الحب ؟ فأين الرعاية والتذمم ؟ .

واذا ما قورن هذا الوضع الرحيم المتدرج من الاسلام ، بالصنيع الذي كان سائدا قبل الاسلام .. ظهر البون شاسعا وجليا ، بين رحمة الاسلام وتعنت الجاهلية واللاانسانية قبله .

لقد كان الزوج يطلق زوجه بلا عدد ، وقبل انتهاء المدة يراجع ويراجع ، فتبقى الزوجة لامد طويل معلقة ، فلا هي مزوجة ولا هي مطلقة ، وفي هذا ما فيه من التعسف في استعمال الحق ، فتصبح الحياة عذابا لا يطاق ، في ظل قهر وظلم وحرمان ، يجعل بطن الارض خيرا من ظهرها ، وينمي الحقد والضغائن والبغضاء .

لكن سماحة الاسلام وعدالته تابى ذلك .. فمن ادبه العالي ان يدفع الانسان الى التي هي احسن بعد أن عاش تجربة الطلاق مرتين حين يذكر التسريح باحسان ، بعد التطليقتين : « الطلاق مرتان ، فامساك بمعروف او تسريح باحسان» (البقره 229)، فلامساك في مودة واعزاز ، او الترك الحسن في غير ما كيد ولا انتقام ، « ولا تنسوا الفضل بينكم ، ان الله بما تعملون بصير » (البقرة : 237) .

ولها البقاء في هذه المدة في بيت الزوجية ، في محاولة اسلامية رحيمة بغية الصلح والاصلاح ايضا ، « يا ايها النبي اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن واحصوا العدة ، واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجن الا ان يأتين بفاحشة مبينة ، وتلك حدود الله ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ، لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك امرا ، فاذا بلغن اجلهن فامسكوهن بمعروف او فارقوهن بمعروف » (اول سورة الطلاق) .

وفي هذا من المودة ما فيه عسى ان يقضي على ما بالنفوس ، وعلى ما استحكم بالنفوس من خصام ، وفيه ابقاء على المودة السابقة واعتراف بها ، وابقاء موضع للعلاج ، حتى فرضت النفقة لها في هذا الوقت العصيب اعترافا بما كان وتطييبا للخاطر، وحتى اضيف بيت الزوجية اليها ، وربما تخرج منه الى غير رجعة ، ابقاء على ما ذكرنا ، واستثارة لعواطف الحب والذكريات الطيبة ، وتذكيرا بالهوة السحيقة المنتظرة .

وكل طلاق لا يجري على هذا السنن فهو بدعي يسال عنه صاحبه لا الاسلام ، روى النسائي بسنده، قال : « اخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن رجل طلق امرائه ثلاث تطليقات ، فقام غضبان ، ثم قال : ايلعب بكتاب الله وانا بين اظهركم ؟ حتى قام رجل فقال : يا رسول الله ، الا اقتله ؟ » .

وروى الدارقطني بسنده عن الحسن قال : « حدثنا عبد الله بن عمر قال : قلت يا رسول الله ، ارايت لو طلقت امراتي ثلاثا اكان يحل لي ان اراجعها؟ قال : لا ، كانت تبين وتكون معصية » .

وشرع الاسلام الرجعة ما دامت الزوجة في العدة فضلا من الله ورحمة بلا مهر ولا عقد قبل مضي الطلقة الاولى والثانية ، وبعدهما بعقد ومهر جديدين، فما زال الباب مفتوحا للرحمة والمراجعة .

وبعد ذلك تصبح المسالة اعمق من تداركها واصلاحها ، ولا تحل له الا بعد أن تتزوج آخر زواجا صحيحا بعيدا عن شبهة المحلل ، وان حدث وطلقها الزوج الثاني ، فيحل للاول مراجعتها ان رغبا في ذلك ، وزواجها من جديد .

وكأنما ذلك تاديب عن العبث والاستهتار ، واشعار بقيمة الزواج وقداسته ، يقول سبحانه : « فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره » . وفي الضمير (الهاء في له) بما يشعر بانه اصبح غير مخاطب وغير مرغوب فيه ، وفي التصريح بذكر الزوج استثارة بأن غير سيعتليها غيره ، عسى ان تثير من حسه شاكلة انتباه ، فيبقى على علاقة كريمة مشرفة .

ولبيان مقدار القسوة الجاهلية من جهة ، وبيان رحمة الاسلام من جهة اخرى في هذه المسالة نسوق

حديث السيدة عائشة رضي الله عنهـــا ، فيما رواه الترمذي بسنده عن عروة ، فيما قالت :

« كان الناس والرجل يطلق امراته مـا شاء ان يطلقها ، وهي امراته اذا ارتجعها وهي في العدة وان طلقها مائة مرة او اكثر ، حتى قال رجل لامراته : والله لا اطلقك فتبيني مني ولا آويك ابدا ، قالت : وكيف ذلك ؟ قال : اطلقك فكلما همت عدتـك ان تنقضــي راجعتك ، فذهبت المراة حتى دخلت على عائشــة فاخبرتها . فسكتت عائشة حتى جاء النبــي ــ صلى الله عليه وسلم ــ حتى نزل القرءان : « الطلاق مرتان فامساك بمعروف او تسريح باحسان »(البقرة 229) . قالت عائشة : فاستانف الناس الطلاق مستقبلا مـن كان طلق ومن لم يكن طلق » .

وتلك اشارة لنظام الجاهلية الجائر الظالــم ، والتجني على المراة في أقدس حقوقها ، والاستهتار بالحياة الزوجية والجناية على القيمة الانسانيــة .. وتقرير ــ بالتالي ــ عن نظام الاسلام في عدل ورحمة واحترام وحفظ للحقوق وتقديس لحــق الحيــاة الكريمة ، في تشريع قوامه العدل والرحمــة ، من الحكيــم اللطيــف .

يقول الاستاذ العقاد ــ رحمه الله ــ في كتابه : (المراة في القرءان) :

(فاوجب القرءان الكريم على الزوج ان يئوب اليها في امد محدود ... تهدأ فيه سورة الغضب ، ويعاود الرجل فيه طوية نفسه ، عسى ان يستجــد لعشرته الاولى حنينا طغت عليه النظرة في ساعــة الغضب او الفتنة ، وعسى ان تظهر الامومة المستكنة، فتربط بين الاب والام برباط يعز عليهمـــا ان يبتــر وينفصم الى غير رجعة . وعسى ان تلين المراة بعد شماس ، وان تستحضر المحبة والوئام بعد استحضار الانفة والخصام ، فان طالت المهلة شهرا بعد شهر ، ولم يتغير ما في النفوس ، فالبت في الطلاق ــ اذن ــ انما يشرعه القرءان الكريم رحمة بالمراة المعلقــة ، لكيلا يسومها الرجل ان يرتهنها بقيد الزواج ، ويطيل ارتهانها نكاية لها ، واهمالا لامرها ، واستبدادا منــه بحاضرها ومصيرها) .

على ان الطلاق ليس سيفا مصلتا على رقبــة المراة ، وبالتالي ليس ارتهانها بقيد جعل الطلاق بيد الرجل كما لو كانت في سجن لا فكاك منه :

فللمراة ــ في الاسلام ــ حق الخلع ، وحــق المباراة من النفقة والصداق ، اذا ما رغبت في فصم عرى الزوجية ، لاستحالة العشرة ، او سوء الخلق ، او ارغبة لسبب في الانعتاق .

على ان الاسلام قد كره ذلك كما كره الطلاق ، يقول عليه الصلاة والسلام :

« أيما امراة سألت زوجها طلاقا في غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة » .

وكانت جميلة بنت عبد الله بن ابي سلول تبغض زوجها ثابت بن قيس ، فأتت النبي عليـــه الصـــلاة والسلام ، فقالت : « لا انا ولا ثابت لا يجمـع راسي وراسه شيء ، والله ما أعيبه في دين ولا خلق ، ولكني اكره الكفر في الاسلام وما اطيقه بغضا : اني رفعــت جانب الخباء فرايته اقبل في عدة من الرجال ، فاذا هو اشدهم سوادا ، واقصرهم قامة ، واقبحهم وجها. فقال رسول الله لها : « اتردين عليه حديقة ؟ ، قالت: اردها وازيده عليها ، فقال الرسول اما الزائد فلا » ، وقضــى بالطــلاق بينهمـــا .

بل واكدت بعض المذاهب الاسلاميــة المعتبرة ان للمراة ــ اذا تنازل الزوج عـــن حقـــه ورضـــى بشرطها ــ ان تجعل العصمة بيدها ، فيكون لها ــ كما له ــ حق الطلاق ، حين تتعـــذر العشرة الـــودودة والهنـــاء العائلـــي .

فالطلاق في الاسلام وان كانت فيه قسوة كما قلنا وبغضا ... الا انه فيه احسان بالاعتاق من رق النكاح ، واذا لم يحصل بالنكاح المطلوب منه فان في الطلاق صلاح حتى لا يكون الوقوع في الهلاك لاحــد الزوجيــن .

وكان الطلاق متعددا لمراجعة الحـــال والمآل ومعرفة امكانية الصبر ومداه ، واكتفى بالثـــلاث لان التجربة تحصل بها غالبا . وبعد الثلاث علقه بما تكره

النفوس وهو زواجها من غيـــره . وجعلـــه الاسلام اساسا بيد الرجل ، حتى لا يخضع لاهواء المـــراة وسرعة تقلبها وكثرة ضجرها وسرعة غضبها ، وراعي الطبيعة البشرية في ان يطلقها في طهر لم يمســـها فيه ، لامتحان كمال رغبته وميله اليها في حالة عدم انتقاص ميله اليها ، وحتى لا يزهد فيها اذا قضـــى وطره منها ، والنعمة اذا اشرفت على الزوال عزت ، وهما لنفسها في هذه الاثناء املك . وما جعل الاسلام العدة الا للمراجعة اولا ، ومعرفة براءة الرحم ثانيا ، حفظا للانساب ، وتورعا وبعدا عن الاثم والحـــرام ، واملا في رجعة اذا كان الرحم مشغولا .

يقول الاستاذ العقاد – رحمه الله – في كتابه : (المـــراة في القـــرءان) :

(ولم تخل آية عرضت للطلاق من توكيد الامر بالمعروف والنهي عن الاساءة والايذاء ، والحث على مغالبة الشح والتقتير ، وهي الحيطة التي لا مقترح وراءها على الشريعة واحكامها ،وانما يكـون الاقتراح على اخلاق الناس وعواطفهم وآدابهم ، وليست هي مما تتولاه الشريعة بقوة الاحكام .

ومن الحسن ان يفرض على الناس طلب الكمال . ولكنه الامل المنظور غير الواقع ، وغير ما في الامكان بين مختلف الامم والعصور .

وما من شريعة الهية او انسانية تصد الناس عن المثل الاعلى من الكمال المقدور لبني آدام وحواء ، ولكنهم – الى ان يدركوا شاوهم من كمالهم – لا ينبغي أن يجني احدهم على غيره بجريرة تقصيره، بل جريرة التقصير الملازم لبني الانسان اجمعين) .

وقد سقنا كلمة الاستاذ العقاد ، لالقاء بعـــض الضوء على فلسفة التشريع في الاسلام حتى تخف حدة المتحاملين عليه وعلى شرائعه من الفارغيـــن والفارغات من اعداء الاسلام ، ومن بعض أبناء جلدتنا، ممن لم يفهموا روح التشريع الاسلامي ، او اشربوا فى قلوبهم حب المستعمر ونظرته الى تراثنـــا ، حيـــن تثقفوا على يديه ، وارتاوا نظرتـــه وتحيزوا لهـــا ، واصبح موضـوع « تعدد الزوجات » ، و « الطلاق » ، و « الرق » .. مصدرا خصبا لسوء الفهم والجدال عند المبشرين والمستشرقين وتلاميذهم على حـــد سوء ، ولآماد وابعاد طويلة لا تنتهي .

وغفل هؤلاء وأولئكم عن ان الاسلام لم يبتكـــر الطلاق ، ولم يحكم قيده ، ولم يرهف حده ... ولم يذكر هؤلاء ما كان سائدا قبل الاسلام مـــن عنـــت وارهاق ، وظلم وظلمات .. وكيف احالها الاسلام الى رحمة وشفقة ، ووضع حواجز كانـت بمثابة طلـــب التمهل وامعان الرؤية والروية .

فغالبا ما يكون الطلاق من اهمال وصايا الاسلام وتعاليمه فى وجوب العناية بسلامة الاسرة قبل تكوينها وبعد تكوينها : من مراعاة اختيار الزوجة على خلـــق ودين ، وشروط الخطبة في الرؤية والتعـــرف على الطرف الآخر في حدود الدين ، ومن وجوب المصارحة والصدق قبل ابرام الامر . ومن وجـــوب احتـــرام الزوج والزوجة لبعضهما ، ومن تبادل المودة والمحبة والايثار والصبر ، ومن رعاية الزوجين من الاهـــل والمحيطين بما يجعل بينهما الهناءة والانسجام ، ومن تذليل سبل الحياة الكريمة حتى تسير رحلة الحياة سوية سعيدة ، وفي اشاعة جو المحبـــة والثقـــة والتقدير بين الاسر الصغيرة والكبيرة على حد سواء.

فتعاليم الاسلام من الصالحـــات الهاديـــات ، والقرءان الكريم يقول : « من عمل صالحا من ذكر او انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهـــم اجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » ، (النحل 97) .
صـــدق الله العظيـــم .

د. توفيق محمد شاهين



جذوة الاقتباس
في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس

تأليف : أحمد بن القاضي المكناسي
عرض : الأستاذ محمد العلمي حمدان

ينقسم الكتاب الى قسمين : القسم الاول يتكون بعد تقديم الناشر ، من مقدمة المؤلف ، التي قد تبلغ الخمسين صفحة مجردة من التعليقات ، وهي في الكتاب مع التعليقات تصل الى 68 صفحة تليها التراجم التي تخضع للترتيب الابجدى المغربي ويحتوي القسم الاول على الحروف من الهمزة مرورا بالتاء والجيم والحاء والخاء والدال والراء والزاي والطاء والميم والنون نهاية بحرف الصاد ، وينتهي بفهرس الاسماء المترجم لهم حسب الترتيب المذكور ، وعدد صفحات هذا القسم 378 وقد أضيف الى الكتاب جدول صغير للخطاء والصواب لبعض ماورد من أخطاء الطبع وهي ثمانية تصويبات .

القسم الثاني : وتتابع فيه التراجم بحسب الترتيب الابجدي المغربي السابق الذكر ابتداء من حرف العين مرورا بلغين والقاف والسين والشين والهاء والواو مستأنفا الترقيم المنتهي بآخر القسم الاول برقم 385 ، وتنتهي التراجم برقم 565 لتليها الفهارس الى صفحة 693 وهي كالآتي :

فهرس موضوعات الكتاب ـ فهرس أسماء الرجال والنساء ـ فهرس أسماء الاجناس والقبائل والبطون والجماعات ـ فهرس أسماء الاقطار والبلاد والامكنة ـ فهرس أسماء الكتب .

وقد رتبت فيه الفهارس ترتيبا أبجديا مغربيا أيضا ، كما ختم الكتاب بجدول الخطاء والصواب لما في القسمين معا من ثلاث صفحات مستدركا بعض الاخطاء لم ينبه عليها في القسم الاول .

وطبعة دار المنصور هي الطبعة الثانية للكتاب بعد طبعة فاس الحجرية عام 1309 من 358 صفحة بعناية وتحقيق السيد محمد الفاطمي بن الحسين الصقلي كما أشارت الى ذلك طبعة الكتاب ، ويذكر الناشر أنه لم ينصرف في نص الجذوة الا بترتيب التراجم ترتيبا ألف بائيا وحذف الكنى ومقارنة التواريخ الهجرية بالميلادية وترقيم وكتابة اسم كل مترجم باحرف بارزة (ص 7) .

واذا نحن تجاوزنا ماخذ الطبعة شكلا والمتجلية في التفاوت بين الجزأين والتباين الواضح بين أوراق الجزء الواحد بين المائلة الى الصفرة والشديدة البياض وعن اخطاء جدول الخطا والصواب (ص 14-18-41)

اذا تجاوزنا عن ذلك فاننا لا نعدم تجاوزات في المضمون منها :

1 ـ تميز الطباعة بمخالفتها للرسم المتداول بين جميع الدول الناطقة بالضاد برسم الالف اللينة الفا مطالقة روي = رواء النصاري = النصارا (ص 12)
تعالى = تعالا (ص 16) صلى = صلا (ص 17)
قوى = قوا (ص 31) أتى = أتا (ص 30)
ولكنه لم يلتزم هذه القاعدة في حروف الجر على ، الى ، حتى ، وأحيانا يرتبك فيكتبها مرة بالمقصورة

هكذا: اتي واخرى بالمدودة أتا(ص 58) وحسب القاعدة الاملائية في مواضيع أخري موفي ص 61 وبني هامش الصفحة 18 وص 19 .

2 ـ مده رسما لكل ممدود لفظا ، هذا = هـــاذا ، وداود = داوود (ص 67) ورآها = راهـــا ، وآناء = اناء وتآليف = تاليف غشاان الخ .

3 ـ الهمزة في آخر الكلام ان جاءت ساكنة وضعهـا على الـــف .

4 ـ والهمزة المسبوقة بسكون ميت مثل جاء يكتبها جاات ص 58 و 33 والنبوءة = النبواة ص 13 وجاء = جاا ص 60 ولكنه احيانا لا يلتزم ذلك فيكتب علمائها حسب القاعدة والغرباء علـى السطر (ص 10) ومئة ص 23 .

5 ـ يجعل الهمزة المنونة على الالف مثل جزءا = جزاا ص 60 رغم انها مسبوقة بسكون .

6 ـ تغييره للترتيب الذي وضع المؤلف عليه كتابه اي على حروف المعجم ـ اسقط الكني والالقاب، فاضطر الى التقديم والتاخير في التراجم (ص10) وبذلك اختل النظام الموضوع من طرف المؤلف .

7 ـ تدخله في تصحيح الاسماء والمعلومات في أصـل التآليف أحيانا ، منبها الى ذلك في الهامش على خلاف المطلوب في التحقيق العلمـي (ص 38) حيث جاء في الاصل نزول ثمانية بيوت نزلـت بفاس من اهل القيروان فصححها ثلاثمائة واشار الى ذلك في الهامش ، وبصفحة 11 قال «نقلـه الرقيق والوراق صاحب المقباس »وأشار فـي الهامش الى أن «الاصل فيه نقله ابـن الرقيـق صاحب المقباس وهو غلط» ، وبصفحة 41 هو ابن ست وثلاثين سنة مشيرا في الهامش قائلا : «في الاصل هو ابن ثلاث وثلاثين سنة» وبصفحة 78 قال البكري في مسالكه ، وفي الهامش «في الاصل في مقباسه وليس بصحيـح فكتاب ابـي عبيـد البكري والممالك اما المقياس فهو لعبد الملـك الوراق» ، ،،

وهذا لم يمنعه احيانا أن يلتزم اصول التحقيق كما بصفحة 12 حين تحدث ابن القاضي عـن نهر النيل وذكر ماء منه يصب في البحر المحيـط وماء يمر بمصر ليصب بالابيض المتوسط وقسم ينزل على الحبشة ويصب في بحر القلزم معلقـا على هذا في الهامش بقوله : «خلط ابن القاضي بين الانهار النيجر والسينغال والنيل» كما أورد معلومات غير صحيحة عن النيل .

8 ـ لايتدخـــل أو يعلـــق على ما يـــرد احيانـــا بالكتاب من خرافات لم يعد عصرنـــا يقبلهـا أو يجيز السكوت عنها لما لها من أثر على نفوس شبابنا وهو يقرأ هذه المؤلفات ، مع انه علق على جزيئات كثيرة كما في الصفحة 12 حين اعتبـر حكاية تلون جبل القمر مجرد خرافة .

ففي الصفحة 43 يذكر المؤلف مميزات نهر وادي الجواهر انه يحرك شهوة الجماع ويفتت الحصا ويذهب الصيبان من الرأس والقمل من الجسد لمن اغتسل به وداوم على شربه ، وأن مـــاءه يسخن سريعا ويبرد سريعا عند الحاجة الى كل منهما ويخرج منه الصدف الثمين الذى يقوم مقام الجواهر أم هي مناسبة سياحية ؟

وبصفحة 56/55 أن العقرب لا تدخل قبة العنزة بالقرويين بسبب صلم فيها وان ادخلها احد في ثنايا ثيابه خدرت، ومنها طلم في تفافيح من نحاس للحية فلا تدخله حية ، وان دخلت افتضحـت وقتلت ، وما يوجد فيه من الحيات فهو من عمار الجـــن .

وهذا لا يمنع من ملاحظة بعض المزايا في تحقيق الكتاب فمن محاسنـــه :

1 ـ شرحه للاعلام الجغرافية (ص 11) والتاريخيـة (ص 45) .

2 ـ تعليقاته تمتاز بالضبط والاستيفاء والاستناد الى المصادر حيث يعرف بالمدن والجبال والعيون والانهار والاحياء والاسر غالبا ، سواء من ذلك الباقي أو المعفي عليه مع تحديد مكانه او اسمه الجديد ان امكن .

3 ـ ترجمته احيانا للاعلام والكتب الواردة في النص بشكل واف المقصود (ص 13) .

4 ـ تذكيره واشارته أحيانا الى صاحب الشعر أو القول الذي أورده المؤلف وسكت عنه كما بصفحة 42 وهو لا يفعل أحيانا (ص 55) .

5 ـ تنبيهه أحيانا الى ما يخالف رواية المؤلف ممـا اتى به من شعر مشيرا الى المصدر (ص 81) .

6 ـ ويبقى أخيرا لدار المنصور للطباعة النية الصادقة في نفض الغبار عن هذا الكنز الدفين الذي أضحت طبعته الاولى من قبيل المخطوطات حتى يطلع الجيل المعاصر على احدى الذخائر القيمة وكفاها ذلك عملا يستحق عليه التنويـــه .

فـاس : محمـد العلمي حمـدان

المعركة العلمية

بين الرافعي وطه حسين

للأستاذ عثمان بن خضراء

ان من يتتبع مراحل تطور الادب العربـي في هذا العصر ، من قديم ، لا يشك في ان صدى تلك الخصومات العنيفة التي اثارها اصحـاب القديـم والجديد لا زالت ترن في اذنه ... ولسنا نشك في ان الادب المعاصر استفاد من هذه الاختلافات التي كانت مثار النزاع بين اصحاب القديـم ومذهبـه ويتزعمهم المرحوم الاستاذ الكبير مصطفى صـادق الرافعي ، والمرحوم امير البيان الاستاذ شكيـب ارسلان ... وبين المذهب الحديث ويتقدمهم عبقري الادب العربي الدكتور طه حسين ، والاستاذ سلامة موسى ... وغيرهمـا !

اقول ... مما لا جدال فيه ان الخلاف الـذي قام بين الرافعي وطه حسين نتجت عنه اختلافات في الراي بين هذا وذاك . ويظهر من خلال ما كتبه بعض المنتصرين لكل منهما ان الدافع الذي يحثهم على اقحام اقلامهم في الموضوع هو التعنصر للمبدا الذي يتبعه كل فريق منهما !

لقد كان سير الادب العربي يتارجـح تـارة ويضطرب احيانا ... تقذف به الامواج الثائرة الى الشاطيء ثم لا تلبث ان تجرفه فتعيـده الى وسط الامواج المتلاطمة في ذلك البحر الخضم من الحيرة والارتباك في تلك الحقبة من الزمن .

ويدفعنا الانصاف الى القول بأن الادب العربـي على كثرته وتعداد صنوفه وانواعه اصيـب بالعقـم حيث اوحظ في الجامعات الكبرى كالازهر والقرويين والزيتونة وغيرها عجز عن الاتيان بما يوائم تطـور البلاد وعقول طلابها العديدين رغم مـا كان الحقـل الادبي غنيا به في تلك الحقبة من الزمن من الشيوخ والعلما والنوابغ الكبار ... ولو ان هؤلاء كان مـن بينهم الحجة وامير البيان والمتضلعون في العلـوم والفقه والنحو والدين ، فقد كانت ثقافتهم عن ابتكار شيء جديد بغير سير الدراسات التي اصبح التعليم فيها محدودا اثناء الاحتلال ! .

ولما انبثقت طائفة المجددين في الشرق بقيادة الدكتور طه حسين اعترضتها ثورات صدرت عـن صفوة من المفكرين في ذلك الوقت ... وكان يقودها المرحوم مصطفى صادق الرافعي - فشاهد الناس في الصحف والمجلات مقالات ممتعة من النقد والرد وتباين الافكار والاتجاهات ... وتبـادل الكثيرون وجهات النظر فكان ان افتتحت ابواب حرية الفكر على مصراعيها ، ونمت روح النقد في نفوس الادباء مما دفعهم الى ابداء ما يعرض لهـم عى هامش هـذه الخصومات العنيفة التي كانت بين طـه حسيـن والرافعـــي !

رحم الله الرافعي ... لقد كان غيورا على الدين ، مخلصا للغته اخلاصا جعله يعتني بالمنطق والمعنى والافكار في كل ما يكتبه ، ولعل هذا هو السبب في بداية تلك الخصومة التي قامت بينهما !

لقد كان يعتب على طه حسين اول الامر تكراره في اسلوبه للجمل ... وكان يرى في هذا عبثا لمن يحاول ان يكون بليغا في اسلوبه ـ واذا ما نظرنا الى كتاب « المعركة بين القديم والجديد » او « تحت راية القرءان » للرافعي نراه يستعرض شيئا من اسلوب طه ننقله كنموذج لما يؤاخذ الرافعي به على طه حسين ، يقول الرافعي : « ... ولكني في كل ما قرات من بدىء اتصال الرواية بالعرت الى اليوم لم أصب مثل هذا الاسلوب الذي تكتب به كقولك في صدر قصة المعلمين التي نشرتها « السياسة » اليوم :

« نعم ، قصة المعلمين ، فللمعلمين قصة ، وللمعلمين قضية ، وكنا نحب الا تكون للمعلمين قصة، والا تكون للمعلمين قضية ، لاننا نربا بمقام المعلمين عن ان تكون لهم قصة او قضية ... ليست قضيتهم امام المحاكم ، وان كانت اوشكت في يوم من الايام ان تصل الى المحاكم ، وليست قضيتهم مفزعة مهلعة (كذا كذا) وان كانت أوشكت في يوم من الايام أن تكون مفزعة « مهلعة » .

يقول المرحوم الرافعي بعد ان قدم نموذجا من اسلوب طه :

« فهذه عشرة أسطر صغيرة ـ باسطر الجريدة ـ دار المعلمون فيها عدد ايام الحسو ، وحكيت « القصة » ست مرات ، وكان « للقضية » ست جلسات غير ما هناك من مفزعة ومهلعة قد افزعت واهلعت مرتين وغير ما بقى مما هو طاهر بنفسه ، ولا ريب ان الاستاذ ـ يقصد طه ـ اما ان يكون قد نحا بهذا نحوا لا نعرفه ، وقصد الى وجه لم نتبينه ، فهو يدلنا عليه لنجربه فيما أجرينا من أساليب البلاغة ونؤرخ له في الذوق الجديد ، واما ان يكون عند ظننا به في اعتبار هذه الكلمات رقى وطلاسم للتسخير بقوتها وروحانيتها ، فاذا قرا المعلمون هذه المقالة عشر مرات انحلت المشكلة وجاءهم الرزق وهم نائمون ... ولكن يبقى يا سيدي ان تختم الكلام بهذه الهمهمة والغمغمة بقولك : الوحي الوحي ، العجل العجل ، الساعة الساعة ، ... والسلام » .

على أن الذي عرضناه لا يعد سوى جزء مما كان سببا في اثارة الخصومة بين المرحومين صادق الرافعي وطه حسين ... بل هناك المشكلة الكبرى ، مشكلة كتابه : « في الشعر الجاهلي » .

لقد كان الاستاذ طه يعيش في جو جامعي ... ومن تقاليد الجامعات ان تاخذ البحوث الادبية والدراسات العلمية طابع البحث الحر ... وسار في نهجه يدرس النصوص ويبحثها بطريقته التحليلية دراسة ناقد بصير ...
ونهج الاستاذ طه في البحث الادبي ان يكون العقل العربي متحررا من كل الرواسب والعفونات ... وان يصل ببحوثه الى نتائج يقررها العقل ويرضى عنها الفكر ... الفكر المتحرر ـ واثمرت هذه الدروس في كتابه : « في الشعر الجاهلي » .

وعند الكلام عن هذا الكتاب ينبغي أن نعرض لكم اهم ما كان جل العلماء يعيب به على الدكتور طه حسين في كتابه هذا عندما كان يتحدث عن الاسلوب الفني والبلاغة في القرءان أراد ان يبحث في الشعر الجاهلي عن الاسلوب الفني البليغ عند امرىء القيس فذكر قصيدته المعلقة التي مطلعها :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها
لما نسجتها من جنوب وشمال

حتى اذا ما وازن بين اسلوبها واراد ان يظهر قوته قال :
« قفا نبك ابلغ من التين والزيتون » وهذه هي المؤاخذة الاولى .
اما الثانية فقد قال : « ان حادثة ابراهيم واسماعيل ـ التي نص الكتاب العزيز عليها ـ حادثة لا يعول التاريخ عليها ولا يمكن التسليم بها ، وانما هي حادثة ارجعها المسلمون لسبب مخصوص هو سبب سياسي اكثر منه دينيا ، فلقد جاء في كتابه بالصفحة 26 ما ياتي :

« للتوراة ان تحدثنا عن ابراهيم واسماعيـل ، وللقرءان ان يحدثنا عنهما ايضا ... ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرءآن لا يكفي لاثبات وجودهما التاريخـي .

وقد قال الاستاذ القاياتي عند محاكمة كتاب طه في صـدد هذا :

« معنى هذا ان دعوى الله ان شيئا حصـل لا ينهض دليلا على ان هذا الشيء حصل ، والله يعلـم ان هذا يساوي في قوله ان الله كذاب فيما قال !

ثم في نفس الصفحة يقول طـه :

« ... فضلا عن اثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة اسماعيل بن ابراهيم الى مكة ونشأة العـرب المستعربة بها ، ونحن مضطرون الى ان نحـرى في هذه القصة نوعا من الحيلة في اثبات الصلـة بين اليهود والعرب من جهة ، والقرءان والتوراة مـن جهـة اخـرى .

« واقدم عصر يمكن ان تكون قد نشأت فيه هذه الفكرة انما هو هذا العصر الـذي اخـذ اليهـود يستوطنون فيه شمال البلاد العربية ويبثـون فيـه المستعمرات ، فنحن نعلم ان حروبا عنيفة نشبت بين هؤلاء اليهود المستعمرين وبين العرب الذين كانـوا يقيمون في هذه البلاد ... وانتهـت بشيء مـن المسالمة والملاينة ونوع من المحالفة والمهادنـة ، فليس بعيدا ان يكون هذا الصلح الذي استقر عليـه الراي بين المغيرين واصحاب البلاد منشأ هذه القصة التي تجعل العرب واليهود ابناء اعمام ... لا سيمـا وقد رأى اولئك وهؤلاء ان بين الفريقين شيئا مـن التشابه غير قليل ، فأولئك وهؤلاء ساميون » .

اما الثالثة في انه ذكـر في أول الكتـاب ان الواجب على الكاتب الذي يبحث ويحلل الآداب القديم ان يتجرد من الدين لئلا يتأثر او ينجذب الى اي عمل من العوامل المؤثرة التي قد تنجلي له اثناء قيامـه بالبحث والتنقيب !

لقد كان من الطبيعي ان تثير هذه الاقوال فـي نفس الرافعي الحريص على القديم حماسة الدفاع عن مذهبه ، ان كان الجديد أتى بهذه الجراة النادرة التي سوف تترك وراءها تخديرا في عقول النشيء الذي كان يتلقى على يد طه واتباعه قـراءة العلـوم في الجامعـة !!!

فهل يكون هذا سبب الخلاف بيـن الرافعـي وطـه حسين على العموم ... هذا ما يتبـادر الى المنقب ... ولكن ان تعمقنا في الدواعي التي ملأت صدريهما بالحقد على بعضهما نجد ان الرافعي رحمه الله كان يعتد بنفسه ، كان يحاول ان يحصـل على اشياء كما يقول خصومه ، ويرى ان الاسبقية لنيلها له ، فالب على نفسه عداوات حيا وميتا ... لقد كان ذا لسان حديدي ، ينتقد بعنـف ، ولا يـداري ولا يصطنع الادب في نضال خصومه ، وكانت فيه الى كل هذا غيرة وحرص على اللغة والدين ، وكان يؤمـن بأنك : « لن تجد ذا دخلة خبيثة لهذا الدين الا وجدت له مثلها في اللغـة » .

فحينما انتصب طـه حسين مديرا للجامعـة المصرية لم يرى المرحوم الرافعـي هـذا حسب البعض ... حيث كان يطمع في ان يكون اليه تدريس الادب في الجامعة منذ انشئت ... وكان كشف عن رغبته هذه في احدى الصحف ، واذا ما تجاوزنا في هذا ولم نجعله كسبب رئيسي للمصاولات التي حدثت وكانت السبب ، فانها كانت فيما بعد بينهما احـد عوامل هذه الخصومة الادبية والعلمية .

ان الفكر المتحرر او « فكر بلا قيود » المتداول في الجامعة آنذاك على يد اساتيذ تخرجوا من نفس الجامعة وكانوا من انصار التحرر تصدى لهم العلماء والنقاد على اساس ان حرية الفكر لا ينظمهـا سوى الفكر نفسه حيث لا يصحح الفكر الخاطـيء سوى الفكر الصائب ... لان الحرية المطلقة هي الفوضى بعينها ... والفوضى معيبة في مختلف صورها سواء اكانت فوضى في السلوك والعمل ام فوضى في الفكر والاعتقاد ، وفكر بلا قيود مسرح للاوهام والخيالات ، وميدان فسيح للتضليل والمغالطـة ! ولا شك ان الفكر يخطيء ويصيب ، وقد يقول بالشيء وضـده ويستطيع ان يأخذ الرذيلة مأخذ الفضيلة — اما تقييد الفكر في مجال الدين فهناك فرق بين « النصـر » الموحى به والذي هو من صميم الدين واساسه ، وبين التفكير في فهم هذا « النص » ، فكلما ازدادنا فهما للنصوص الدينية ازددنا ايمانا بتلك النصوص ... مع مراعاة شعور وايمان السواد الاعظـم ... فاذا كانت حريته ستنتهي به الى اعلان رأي ليس هو مـا تأخذ به الناس في شأن دينهم ، فان القائميـن على الدين حريصون على مقاومته بكل الوسائل .

عثمان بن خضراء

قصة قصيرة :

ليلة الزفاف وأيام العرس [1]

للأستاذ محمد أحمد اشماعو

... ونذهب الى منزل العريس ، لنكون معه في حفلات عرسه — قبل عصر التطور الحديث — مبتدئين بحفل (الهدية) . انه قبل الليلة الكبرى ، ليلة العمر ، التي تزف فيها المراة الى بيت زوجها ، تعرض هدايا العريس الى عروسته ، عرضا مرتبا انيقا ، وذلك بعد العصر ، من حيث تقبل النساء والعذارى المحجبات ، من غير ذوات القرابة ، زيادة على ذوات القرابة ليتفرجن ، بل ليتفحصن جيدا نوعية تلك الهدايا ، ويتعرفن عن قرب على ما فيها من جديد ، ومن طريف ، ومن ثمين ... وقد يطالبن « النكافة » القائمة على حراسة تلك المعروضات ، بتقريب ما هو بعيد ، ليكون التعرف على الاشياء كاملا . ولا مانع عند أم العروسة وقريباتها من هذا الفضول الزائد ، ما دام يزيد في زعزعة كيان الحاسدات ...

والمعروضات قد تشتمل على أثواب متنوعة ، بعضها مخيط على احسن حال ، وصالح للاستعمال في الحين : « تحتيات » حريرية ناعمة الملمس ، مطروزة ومخرمة عند الطوق والاكمام ، و « قفاطين » ثمينة من نوع الملف او المبر او الصقلي ، ذي اللون الذهبي البراق ، جيدة التفصيل والخياطة ، ثم « منصوريات » ذات نسج هفهاف ، مطرزة آليا ، بانواع الورود والازهار والاشكال الزخرفية التي لا حصر لها ، ثم تعرض « السبنيات » الحريرية المزخرفة ، ذات الذوائب الطويلة الناعمة ، وهذه هي غطاء الراس ، ووضعها على الراس ، يعني ان الفتاة اصبحت سيدة ، ولم تعد عذراء كما كانت ، يوم كانت تلف شعرها وتغطيه بمنديل ملون او ابيض في غالب الاحيان . وتعرض كذلك (حمالة) أو أكثر ، وهي مشد للكمين ، يمر بين الاكتاف ، عند الظهر وتتدلى منه ذوائب ايضا ، ضفرت أو فتلت بمعرفة « المجدليين » ، وتوضع « المضمة » ، وهي حزام من الثوب المطروز محشو بالورق المقوى القابل للثني ، وهذا أمر طبيعي لانه سيحيط بخصر العروسة الواهي ، او الموشك ان يكون واهيا ...

يبقى غطاء الرجل وهو « الشربيل » وهو ايضا حذاء نسوي خفيف مطرز ، والتطريز في كل هذه الاشياء ، اما بخيوط الحرير او بخيوط الذهب المعروفة بـ « الصقلي » ، حسب المقدرات المالية . ويستحق الذكر ان العروسة لا تلبس ايام عرسها الا خفين مطرزين كذلك « امزلاكية » هما من الخفة بمكان ، وبذلك يمكنها ان تصعد بهما حتى فراشها ، خوفا على القدمين الرشيقين من ثقل الشربيل بعض

---

(1) هذه الصورة هي من مجتمع سلا والرباط قديما ، قد تختلف عن الحالة في مجتمعات حضرية اخرى ، الا انه اختلاف غير كبير . م / ش .

الشيء ، وهكذا، فالكل يحرص على الا ترهق العروس، او ان تحمل مالا تطيق ، وهي تودع بيت أبويها .

ومن خلال معروضات (الهدية) يبرهن الزوج واقرباؤه على انهم ليسو فقراء ، وليسوا من ذوي الامكانات المحدودة ، وتاكيدا لهذا يعرضون الحلي الذهبية ايضا المشروطة في الصداق وعقود الجواهر، وما لديهم من نوادر المجوهرات ان امكن ... فباب التباهي – حينئذ – مفتوح على مصراعيه . وقد لا تتفطن الفضوليات الى ان من بين المعروضات أشياء ثمينة معارة فقط ، من حيث جرى الاتفاق خفية بين العائلتين على ان تعرض وتحمل في موكب الهدية ، وفي الايام الموالية ترجع من حيث أتت ، ولتزد قلوب الحاسدات تمزقا !

يتهيأ (موكب الهدية) بعد صلاة المغرب ، من حيث ياتي أقارب العريس فرادى ، فيجدون عند الباب كراسي يجلسون عليها منتظرين ، ربما ليكونوا شهودا بالحضور على عملية التسليم ، وفي هذا الحين يدعى الطبال والغياط للدخول الى دهليز الدار، ويشرعان في العزف الايقاعي المنغم ، على نمط عزف أجواق الطرب الاندلسي ، وتكون كل « نكافة » قد حملت صينية على جزء من الهدايا ، التي كانت معروضة طيلة المساء ، وتطوف هؤلاء المسخرات بحمولتهن الخفيفة ، في فناء الدار سبع مرات على الانغام ، وقد يمارسن بعض الرقصات ، والاطفال والطفلات بينهن يحملون الشموع الموقدة . ويتجه الموكب من الدار الى الدهليز ثم الى الخارج : حملة الشموع اولا ، والطبال والغياط ، يليهما حامل كيس الدقيق ، والآخر القابض على الحبل الموصول بقرون الكبش ، فالكبش هو ايضا حاضر في الموكب .

ويسير الموكب الهويني ، وفي المؤخرة مجموعة أفاضل ، الاهل والاقارب والمعارف ، وعند الوصول الى مسكن والد العروسة ، يجد القادمون أفاضل آخرين في الاستقبال ، وهكذا تدخل الهدية تحت أبصارهم اجمالا ، فليس لهم فضول مثل فضول النساء ، ليتفحصوا الاشياء واحدة واحدة ، المهم هو هذا القدوم واللقاء المبدئي السعيد ... وتتلى الفاتحة ، ويذهب كل الى حال سبيله .

وفورا يتجدد العزف الايقاعي في البيت الثاني، وتتعالى الاصداء والاهازيج والزغاريد ، ولا بد وان تكون قد بلغت اسماع العروسة المنزوية فوق فراش امها ، فيهتز قلبها نشوة وطربا ، وحبذا لو كانت وسط الجمع ترى رؤية العين أجواء الاحتفال بها ... ولكن هذا لا يجوز ! .

ووفاء بتعهد مقابل وفاء . فعند منتصف الليل، من تلك الليلة ، يهتز الحي ويستيقظ النائمون من جراء الزغاريد الصداحة ، وهنا لا بد من المبادرة بالقول انه على الحيين معا ، الحي الذي يسكنه العريس ، والحي الذي يسكنه والد العروسة ان يتحمل سكانهما هذه الازعاجات ، ولو ان افراح قوم عند قوم مضايقات ، فيوم لنا ويوم علينا ... ان هذه الاهازيج والزغاريد هي بسبب ان احمال (الشورى) في طريقها من بيت الابوة الى بيت الزوجية .

وتصل الاحمال الى الحجرة الجديدة العارية الا من الفرش واللحف الواصلة من قبل ذلك ، والتي اشبعها اقارب العريس تحسسا ، وحكموا هل هي محشوة بالصوف الخالص او محشوة بخليط ... وتتقدم الموفدات الحاذقات (بتعليق الشوار) : فتعلق الخاميات والستائر بمختلف الوانها وانواعها واحجامها ، وتوضع « التلامط » أي الاغطية على اللحف والفرش ، واذا كان من بساط ، تركي النسج، فارسي الزخرفة فانه يفرش على الارض. وبهذا وبغيره تصير الحجرة تحفة تبهج الانظار ، وتملأ الخياشيم رائحة الثياب الجديدة ... وبمجرد الانتهاء تتناول الزائرات كؤوس الشاي على عجل ، فالليل موشك ان ينتهي ، او هو قد انتهى فعلا ، وحلت محله انوار الفجر ، والجميع في حاجة الى قسط من الراحة ، استعدادا للافراح المقبلة التي تتطلب مجهودات وسهرا .

ويصبح الصباح ، وهو آخر صباح للعذراء المحتفل بها في بيت أبيها ، وهو آخر صباح كذلك لشاب أعزب اوشك ان يغادر ايام العزوبة بما فيها من خير وشر ، ولو سئل عن مشاعره لما وجد ما يقول ، فالقلب معلق والفم مطبق !

القريبات تصبح معهن ، هنا أو هناك ، مشاعر متضاربة ، تؤججها الغيرة ، فاما ان يرين راضيات بما وصل ، ومثنيات بلسان لا يخطئه التعثر ، واما سخط وتذمر من التقصير والخلل ، وهات من تعاليق

وتنكيت وسخرية ، وحتى سب واقذاع ، واحتجاج على المقامات غير المتساوية ... هـذا مـع ان المغنيين بالامر منصرفون على الخـوض من هـذه السفاسف ... فما وقع قد وقع .

وتغرب شمس ذلك اليوم ، فتوقد مصابيح الدار كلها ، وقد تجلب خيوط مصابيـح مـن الخارج ، وعندئذ يتجلى ان حجرات الدار كلها قـد فرشت ، وهيئت على احسن حال لاستقبال المشاركيـن في الحفل ، ويكون الاشراف على الاستعدادات كلها من والد العريس ، او من احد الاقـارب الموصوفيـن بالخبرة والحنكة والحذاقة واللباقة ، والا فان صديقا عزيزا ذا اريحية هو الذي يتولى الاشراف ، وقـد يزاحمه احد الفضوليين الراغبين في الظهور ! .

وتقضي العادة ان ياتي المدعوون بعـد صلاة المغرب لتناول « لقمة الحلال » ، وهي غالبـا مـن الكسكس ، الذي يختار لهذه المناسبة مـن اجـود الانواع ، كما يختار له لحم الضان لا غيره من اللحوم، وتعوض الخضر بطبيخة « التفاية » المشهورة ... واذا كان العريس ، او والده ، من ذوي اليسار فانه تضاف وجبة الدجاج المحمر ، المرصح بأنصـاف بيضات ، وبحبات اللوز المسلوق المقلى ، وقلمـا تضاف الى ذلك فاكهة الموسم .

ووجد بعض الناس ان الطعام المجموع يكلـف الكثير فاخذوا يحصرونها في اضيق نطاق ، من اخذوا لا يستدعون الا أشد الاقارب صلة بالعائلة مع اخـذ الاحتياط من نسيان احد او تجاهلـه ، لان الامـر ـ عندئذ ـ لا يعود يتعلق باكلة ، وانما يعني عـدم الاعتراف بالقرابة او تنكرا للصداقة ... ويذكر ان من جملة من يحتفى بهم ، وفي مقدمة الجميع جوق الطـرب .

فاهل الحواضر لا يرون قيمة مهمة لحفل زفاف لم يحيه جوق الطرب الاندلسي ، وفعلا ، فور انتهاء العشاء ، يحتلق افراد الجوقة ويبتدئون العـزف ، حتى ولو كان الحاضرون قليلين ، ويكون البدء ـ في الغالب ـ بالتواشي السبع ، وهي معزوفة صامتة ، ذات مقاطع سبعة ، من نوبة الحجـاز المشرقـي ، وبعد استراحة قصيرة يشرعون في اداء نوبة مطولة، تستغرق ساعة ونصف او ساعتين . فقد تكون نوبة « الاستهلال » او « الحجاز الكبيـر » ، وتتوالـى النوبات ، او تتف من كل واحدة ، حتى اذا هبـت نسائم السحر ، التي لا يدركها بالاحساس الفريد الا مثل هؤلاء الفنانين ، اتى دور « رصد الذيل » ثـم « نوبة العشاق » ، وبهذه يكون الختام ، ويؤجـل « رمل الماية » الطافح بمدائح الرسول الى حين بدء جلسة الحلاقة .

وفعلا ، يقع تعديل في جلسات الحاضرين ، اذ لا حاضرات هناك ، وانما هن فوق السطح يشرفن من اعلاه على الحفل الزاهر ، ويصببن من الزغاريد الكثير الكثير ، خصوصا من العذروات ، فالمكان حافـل بالعزاب ، والاماني هناك في الاعالي وهنا في الاسافل لا بد وأن تخالط الافئدة الفتية وتهزهـا ، ويتجـرا البعض فيرفع الراس باحثا عن وجه مليح ، ولكـن كيف ، والحجاب ضارب اطنابه ؟ !

ياتي العريس وسط الهتاف والضجيج فيجلس على كرسي مرتفع ، ويتقدم الحلاق الرصين ، ويشرع في مباشرة عمله ، متثاقلا عن عمد ، مستغلا ما تبقى عند العازفين والمنشدين من حماس ، ومن حوالـي العريس رفيقان يرطبان الجو الحار بتحريك منديلين حريرين ، وياتي ثالـث من الخـف فيسر في اذن العريس بعض الهمسات ، يحمر منها وجه الشاب ، ولعله يذكره بمواقف هو مقبل عليها ، ان لم يكـن يحرضه عليها تحريضا ، وسرعان ما يعـود البـال منه الى جو الاحتفاء به الذي يملؤه نشوة وسعادة ، حتى يتوهم انه فعلا « مولاي السلطـان » وانهـم موشكون حقا ، ان « يبايعوه » ...

وتنتهي جلسة الحلاقة « الحسانة » ، ويغادر افراد الجوق حلقتهم ، فيؤخذ العريس الى حجرة من الحجرات يستبدل ملابسه بثياب العرس ، وهي كلها مغربية فضفاضة ناصعة البياض ، ويحـرص على ان تكون الاطواق ـ عنده هو ايضا ـ مفتوحـة ، وان يكون غطاء الراس نازلا الى قرابة الحاجبين دلالة على الحياء ، ولو انه حياء يخفي تحته اعتـزازا وثقـة بالنفس وجراءة ! .

ووسط اهازيج أقوى مما سبق وهتافات اعلى يخرج العريس الى فناء الـدار في تؤدة واتـزان ،

فيجد حلقة منتظمة دائرة فيقف في نقطة منهـا ، محفوفا بـ « وزرائه » ورفقائه ، ويقف الوالد او كبير العائلة في الطرف المقابل ، وبعد قراءة الفاتحة يتقدم العريس في خشوع وخضوع صادقين نحو والـده ، فيقبل راحتيه ـ اعترافا بالجمائل السابقة ـ ورأسه، ثم يتهاوى الى الارض ليقبل قدميه ! ، وهنا يتكهرب الجو ، اذ تدمع العيون كلها ، وتسمـع حشرجـة وهمهمة دلالة على التأثر ، ولكن زغاريد النساء تغطي على ذلك ، وعندئذ يخرج احد المنشجعين بترنيمـة البيتين المشهورين من بردة البوصري :

ومن تكن برسول الله نصرتـه
ان تلقه الاسد في آجامهـا تجـم

من يعتصم بك يا خير الورى شرفا
الله حافظـه من كـل منتقـم

وعلى أصداء هذه ولترنيمة الحلوه يغدر الجمع منزل الحفل ، في الطريق الى احد الاضرحة ، لرفع اكف الابتهال ، ويختار ابعد الاضرحة عن الـدار ، وبذلك يفسح الطريق لموكب العروسة ، التي تحمل في الحين الى بيت الزوجية ، بعد وداع حار ، وعند المدخل تستقبل من طرف حماتها ـ ان كانـت ـ بقدحين ، احدهما مليء بالعسل ، والآخـر ملـيء بالحليب ، مع المتمنيات في ان تكون الايام حلـوة كالعسل وبيضاء نقية كاللبن ، وتقـاد العروسة في احتفاء بالغ لتجلس في صدر بيتهـا الجديـد ، في انتظار قدوم العريس المشوق ، وسرعان ما تتناهى الى الاسماع الاصداء والانغام واللعلعات والهتافـات الآتية من بعيد . ولا حاجة الى السؤال عد المشاعر الجياشة عند القادم والمقدوم عليها ...

ويستقبل العريس هو ايضا بالحليب والعسل ، وتحرص الوالدة على ان تقف عند باب الحجـرة ، وتمد ذراعها بطوله ، مستندة براحتها على حافة الباب المقابلة ، ومن تحت هذه الذراع يدخل الولد البار الى عشه الزوجي ، مستسلما مطيعا مشمولا بالرضى ، مؤملا فيه ان يبقى استقبالا كما كان .

واذا كان العريس متجرئا فانـه يتقـدم الى العروس ، ويكشف عن وجهها المزين الستار الحريري، ويتعرف في تلك اللحظة بالذات ، وربما لاول مرة على الوجه الذي سيرافقه على مدى الحياة ، ان كتب الله عشرة طويلة وطيبة ، وقد يتمـادى في جراءتـه فيطبع هناك قبلة ، في مكان ما من محيا العروسة ، واذا لم يفعل لتردده او حيائه فان « وزيرته » هـي التي ترفع الستار ، وتقدم له ارشادات في شان هذه القبلـة .

ولا حاجة الى تطويل الجلسة فالايماءات مـن البعض للبعض تأخذ الحاضرات في الانسحاب ، ولا تبقى الا « الوزيرة » ، التي تقدم بمساعدة العروسة على التخفف من حليها وملابسهـا ، بينما يتوجـه العريس الى اداء ركعتي الشكر ، ثم يتولـى بنفسه تغليق الابواب ، ثم يقبل هو ايضا على نـزع ملابسه الفضفاضة ، ولا يبقى الا الخفيف ... ولا يهمه شيء من صخب ونداءات النساء العازفـات الضاربـات في فناء الدار ، كما تهمه ازعاجات الضاربيـن على مصراع باب الدار ، من المحرضين الاصدقاء العزاب، الذين لم يجدوا ما يدعوهم ويلزمهم بالانصراف !

وبعد فترة تطول او تقصر يفتح الباب ، وينادي على الوزيرة الخاصة ويطلعها على ما من شانه ان يزيد في الصخب والابتهاج ...

وينسل صاحبنا عند طلوع الشمس او قبله الى الحمام العمومي ، وتكون معه لوازم الاستحمام تامة وجديدة ، التي حملتها معها العروسة في جملة مـا حملت ، انما هذه تعتبر هدية خاصة حميمـة الى الزوج الكريم ، ويكون المستحم مصحوبا بأحد اقاربه ... وفي غيبته يأتين ، فرادى وجماعـة ، لطبـع عشرات القبلات على خـدي العروسة الدافئيـن مهنئات وتبقـى من تعينهـا على نظافتهـا ، وعلى تجديد عمليات الزينة والتعطر ، وتهييئهـا لتكـون مشاركة لزوجها في طعام أفطاره ... وتكون المفاجاة اذا ما رجع الزوج ، اذ يجدها ممتنعـة عن هـذه المشاركة ، ربما لانها لا تزل واخذة في خاطرها من هذه المتجرىء عليها ... بارك الله في رجولته !

من جهته يأكل بشراهة في صباحه الجديـد السعيد هذا ، ويلح عليها أن تؤاكله ، فان هي امتنعت دس بين الشفتين الحلوتين القرمزتين بعض اللقيمات والجرعات ، وعندئذ لا يكون هناك حفز . ولما يحاول ان يجاذبها اطراف الحديث تجيبـه على اسئلتـه

باقتضاب ، والا فهي ممسكة عن كل جواب ، وتكتفي بالتحديق أمامها في لا شيء ، فالعتب عليه ما زال شديداً ...

وعلى غير العادة ينام الشاب في هذه الضحى ، وما ان يستغرق في النوم ، حتى تأخذ القادمة السعيدة في تفحص المكان ، وتتأكد مما هو ملائم ، ومما هو غير ملائم ، وقد تقوم بخفة ، متقلبة على ما تشعر به من الم عند مشيتها من جراء « احداث » الليلة الاخيرة ، ويطلب لها ان تلقي نظرة عن قرب ، على هذا الرجل ، الذي ارتبطت به ، وتكاد تتلمسه عضوا عضوا ، وهكذا تصير لها فكرة عامة عنه ، وتلقائيا تجد نفسها تحنو عليه ، من حيث تغطيه بعناية تامة .

وتقبل على صندوق زينتها ، وقد صار لها من الجرأة من مراحلها الاولى ، فتكحل عينيها ، وتضع على وجهها قليلا من البودرة ، وتحمر الخدود والشفاه بالدمام ، وتعطر رقبتها وما وراء أذنيها ... وعلى عكس ما توهمت فانها تجد وجهها طافحا بالسعادة ، وان لعينيها بريقا جديدا لم تعرفه من قبل ، انما تجد ان تحت الجفون اثرا رماديا بسبب اتعاب وأحداث الليلة السابقة .

ويطرق الباب بخفة ، وتدخل الوزيرة الحاذقة ، وتلقيها نظرة عامة سريعة على الاشياء والناس فتجد آثارا للمسات الرقيقة الحانية ، خصوصا ذلك الزوج النائم في سعادة ، والمغطى بعناية ، مما يدل على ان عفوا شاملا قد صدر في حقه ... وتتقدم تطوعا منها فتوقظه بلطف ، فمائدة الغداء الحافلة قد تهيأت .

تقضي بعض العوائد في بعض الاسر ، ان تتبع العروسة في صبيحتها تلك بطعام افطارها الاخير المستحق على ابيها ، وهو طعام افطار سخي يزيد على الحاجة ، فيه حلويات ومحشيات وفواكه ، مما يكفي طعاما لكل من في الدار ، ولا عجب فالموقف حتى ذلك الحين ما زال متعلقا باظهار الشرف والاستطاعة الوافرة والنعم التي انعم الله بها .

ويحسب العريس انه دخل في زوايا النسيان عند الرفقاء والاقران والاقارب في مثل عمره ، ولكن الواقع عكس هذا ، لقد اقتحم بعضهم فناء الدار واصر على ان يؤخذ عنوة ، من بين احضان عروسه الى دار « الصبوحي » او « يسلان » ، حيث يكون جوق الطرب الاندلسي يلعلع بتوبة « العشاق » وببعض « البريولات » الخفيفة ، فالحماس اقل مما كان عليه في الليلة السابقة ، وان كان الانس والتعاطف اشمل . ويستغل احد الاصدقاء الحاذقين الفكهين توقفات العزف ليحكي بعض النكات الباعثة على الضحك والصخب ، وان وافى الحظ بوجود احد المغفلين فان الجو ينقلب الى فرجة تمثيلية لا تقدر بثمن .

ورغم اجواء العزف والانشاد ، ورغم النكات والمزاحة تعجب الجميع ، فان واحدا من بين هؤلاء لا يعجبه شيء من ذلك ، اذ قلبه معلق بتلك التي تركها ، ولم تشبع منها بعد لا العين ولا الاذن ، ولا اية جارحة من الجوارح ، ذلكم هو العريس ، الذي يتحين اية فرصة فينسحب ، ولا يدري احد كيف كان ذلك الانسحاب ... ولو تتبعه لوجده قد وصل الى جوار عروسته وجلس يتحدث ويتحدث ، ويأكل ويشرب ، ويجهر ويهمس ، ويبتسم ويقهقه ، ويضايق بالاسئلة التي لا مهرب للعروسة منها مهما اسعف عروسته الذكاء واللباقة . وليس امامها الا هذا ، فوصايا الخبيرات لا تزال معها بأن تكون معاندة بعض الشيء ، رافضة بعض الشيء ، متكلمة بعض الشيء ، منكتمة بعض الشيء ... فالطبع عند هذا الرجل ليس معروفا على حقيقته بعد !

وتمضي القيلولة جيدة ومريحة ، يشبع فيها الزوجان راحة ونوما ، وعند العشي تأتي القريبات الصارمات — من جهتهن — فينتزعن منه العروسة ، وبوده وبودها الا يكون هناك انتزاع ولكن ... يقمن على تزيينها والباسها ثم على ابرازها للحاضرات من قريبات العريس ، هؤلاء اللواتي هي جديدة عليهن كلهن ، وهناك تسلط على الانظار المتفحصة ، على شكلها بصفة عامة ، على ميزاتها الجمالية ، على رصانتها وتعقلها ، ومن المفضل ان تبقى عيناها مغمضتين ، ونعم ما فعلت ، فاذا غلبت على امرها من جراء نكتة من احدى الوقوحات ، التي تستغل فرصة الجو النسوي الخالص ، فتطلقها اقوالا مكشوفة يصطخب لها التجمع صاخبا من الضحك ، وتكتفي هي بالابتسامة ، التي تغطيها بالسبابة والوسطى مضمومتين ، ومع ذلك تخن الواحدة

جارتها عند ظهور الابتسامة ، توقعا لتصرفات اكثر جراءة !

ثم تأخذ الاهتمام تلك المراة المعروفة بـ (الشيخة مع جوقتها ، وهي ليست شيخة سنا ، وانما فنيا وشرافا ، والا فهي جميلة ، باذخة الزينة ، ومن اللواتي لا يتحرجن في الاقوال والتعليقات والاشارات بالشفتين والعينين ... وما جاءت هذه الجراءة الا من كونها تجالس بعض الرجال وتغني لهم في بعض الاوساط ، لهذا فموقف النساء الكريمات منها ومن زميلاتها موقف التحفظ ، وكل واحدة تسر لنفسها أو لجارتها « الله يستر » ، وكيف لا يقلن هذا ، وهن يرينها بين الوصلة والاخرى تخرج السجارة ، وتروح تدخنها علانية ، وبالتذاذ ووقاحة ، وتبرز من الحلقة واحدة ، ممشوقة القدم مليئة الوسط لتؤدي رقصات لولبية تنال عنها مكافآت لها ولمعلمتها ابتداء من أم العريسة وقريباته الى صغرى الحاضرات ، دون افلات ! ويأتي الليل بانسه ومتعه !

وبخصوص اليوم التالي ، المعروف عند البعض بيوم « الراحة » ، فالعروس يلازم عروسته ملازمة ملاصقة ، ويؤتي لهما بما يلذ ويطيب من الماكولات والمشروبات ... وتكون المناسبة مواتية ليفتح لها قلبه ، ويحكي لها الكثير من اخبار ماضيه ، ويرسم امامها خطوط المستقبل ، ومقابل ذلك لا تبخل عليه بالحديث دون استفاضة ولا تفاصيل ، ودون الدخول في ذكر ما لا ضرورة لذكره ، وقلما تدخل واحدة عليهما ، فحتى الوزيرة يقل تدخلها ، علما منها أن دورها يكاد ينتهي ، ان لم يكن انتهى بالفعل .

في اليوم الرابع تفتح الابواب والنوافذ ، وترفع الستائر ، لانه في بعض التسميات (يوم الحزام) ، اذ العروسة تضع على نصفها حزاما يشد على وسطها ، لاول مرة بعد الزواج . وتخرج لفناء الدار ، وتجد دائرة حول مائد الافطار ، فتدعى لاخذ مكان بارز بينهن ، محاذيا لزوجها ، ويكون المنظر حلوا جذابا ، وهي بينهن امراة جديدة فتية ، يترقرق الصبا والرقة والجمال في وجهها ، وعددها ما زال طربا رشيقا لافتا للانظار ، وتثير الاعجاب بقايا الزينة الكبرى التي لا تزال بادية للعيان ، وهي تعرف انها قبلة الانظار دائما ، لذلك تنال فطورها بلباقة وحذق كبيرين . وتصاحبها — بعد هذا — احدى القريبات للتجول في انحاء المنزل ، وعندئذ تستطيع ان تقدر انها انضمت الى أسرة ميسورة او دون ذلك !

وقبيل الزوال ، يقام آخر احتفال عائلي ، فتعان الشابة على أخذ الزينة مجددا ، وتجلس في صدر لبيت ، ومحاذة لها يجلس زوجها العزيز ، الذي يكلف تكليفا باعداد الشاي ، ويجتهد أن يؤدي هذا الدور بمهارة وتدقيق ، والا تعرض للتعليق والنقد من احدى المترشحات المتجرئات عليه ، ويكون ضحك وصخب من الجمع ، وتكتفي العزيزة بالابتسام ، وحبذا لو استطاعت الدفاع ... ولكنها تغتنمها فرصة فتزيد في معرفة رجلها ، هل هو رصين ؟ هل هو ماهر ؟ هل هو مضبوط الحركات والسكنات ؟ هل هو لبق وذكي في ردودها واجوبتها ... هل هل ؟ ؟

في نهاية الجلسة تقوم رفيقة العروسة ، من قبل اهلها ، ومنذ اليوم الاول ، بتوزيع الهدايا الشخصية على الاقارب والقريبات ، وكلها من الملبوسات ، وهي عند الاب والام ذات قيمة بالنسبة للباقين والباقيات ، والعملية في جملتها تثير مشاعر مختلفة ، ولكن التقبل والشكر يكون هو الطابع السائد .

بعد الغذاء ، يسود المنزل نوع من الاسف على ان موعد الافتراق قد حان ، وبود الجميع ان يستمر اللقاء والانس والسمر الى ما لا نهاية له ، ولكن لا بد مما لا بد منه ، فتجمع أشتات الملابس في صناديقها ، وتلف الاغطية ، ويرجع ذلك الى المنازل ، لاشعار الازواج هناك ان ربة الدار في الطريق ... وذلك انتقال سعيد هو ايضا وهو الابقى .

وتتقبل العروسة عشرات ومئات القبل ، كما يودع العريس توديعا قلبيا حارا ، مع ترك التمنيات الصادقة في حياة هانئة طيبة ميسورة .

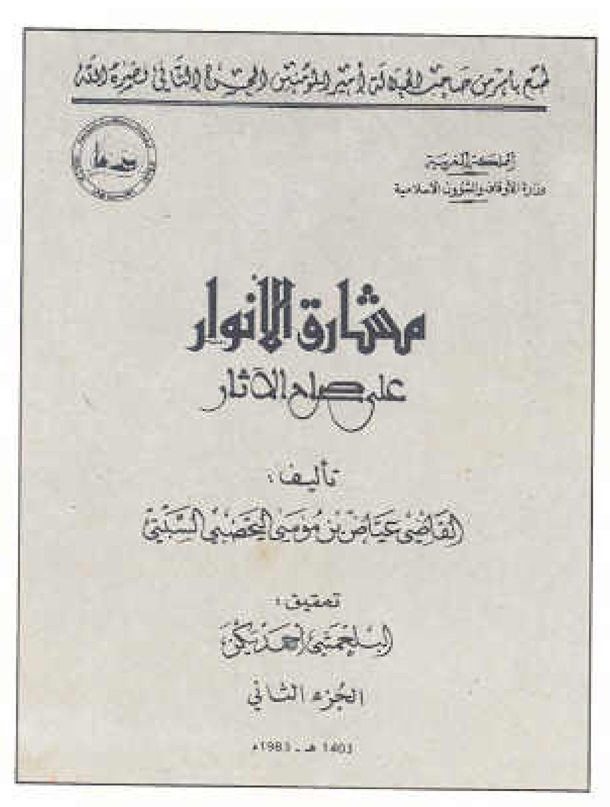
فهرس العدد 235

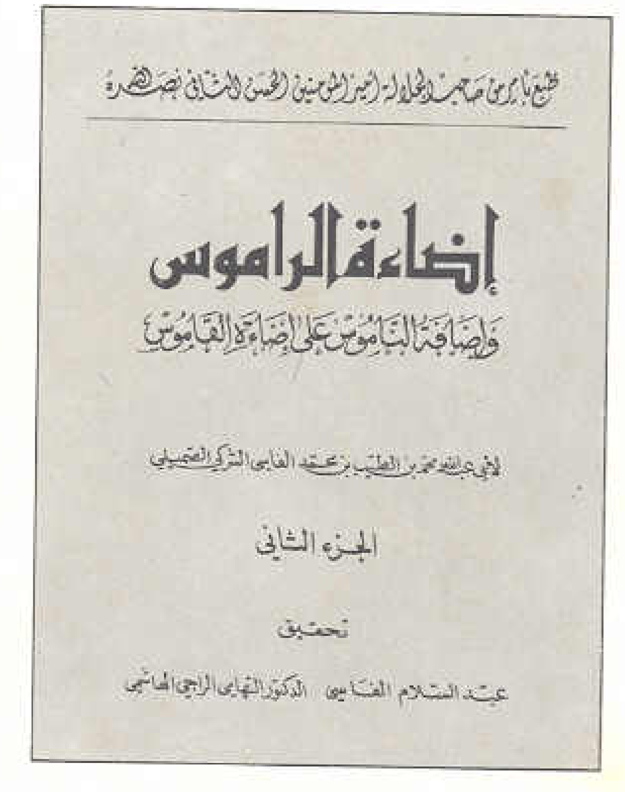
صفحة

مطبعة فضالة . المحمدية . المغرب
رقم الايداع القانوني 1981/3

من مطبوعات
وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية







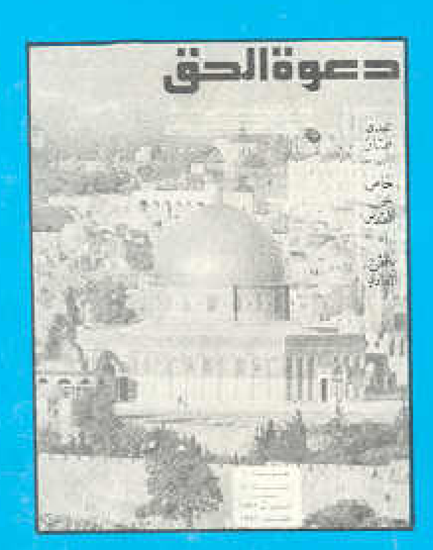


التوزيع : مكتبة الأوقاف، 5 زنقة بيروت، ساحة المامونية، الرباط



















صدر العدد الأول في يوليوز سنة 1957